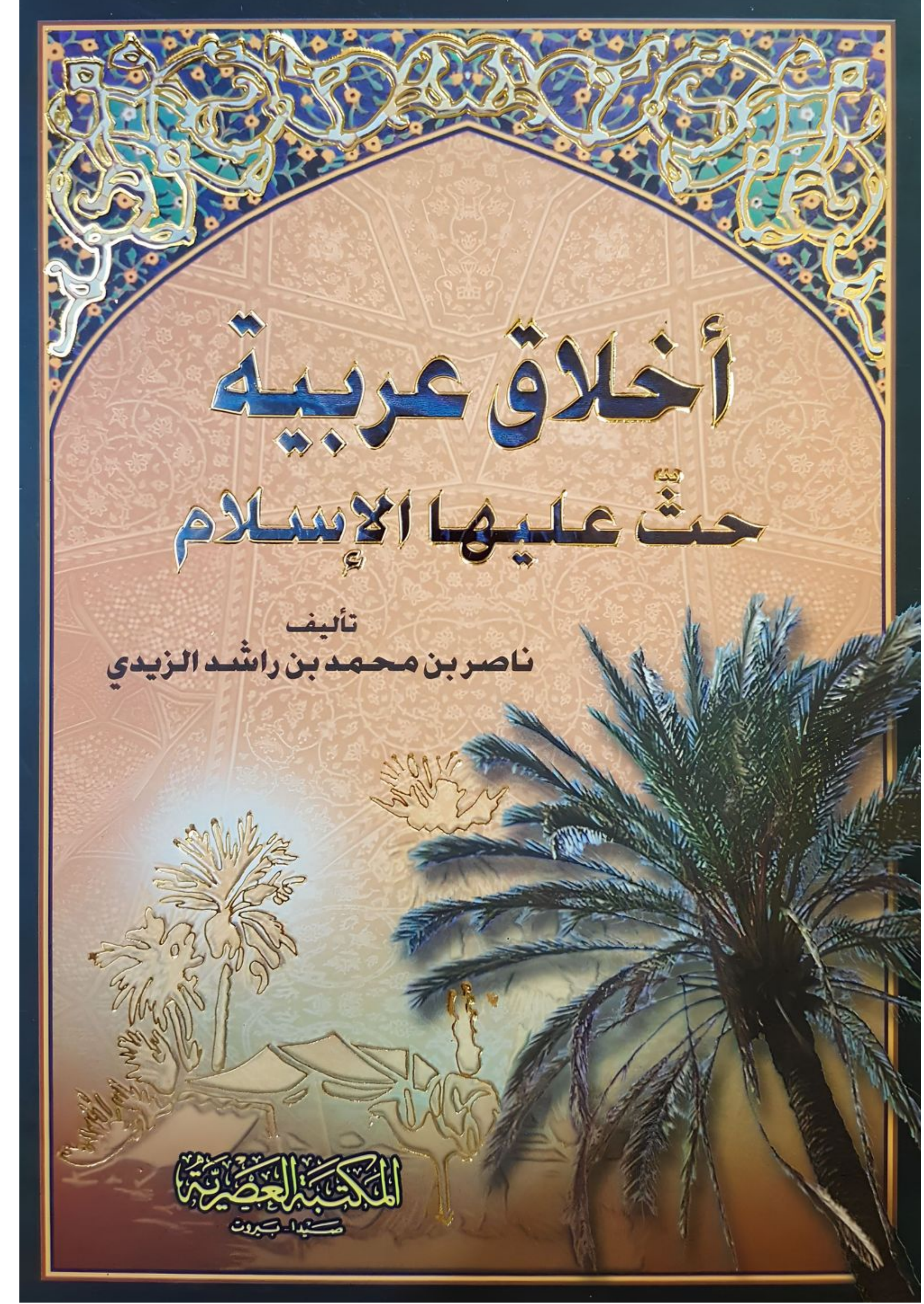

أخلاق عربية
حثَّ عليها الإسلام
تأليف
ناصر بن محمد بن راشد الزيدي
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

أخـــلاق عربـيـة

حثّ عليها الإسلام


بسم الله الرحمن الرحيم



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
07 230195 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

الطبعة الأولى
1437 هـ - 2016

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.alassrya.com

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران ١٠٢]. وقال أيضاً: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [سورة يوسف ١١١]. والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

فإن العرب أمة أميّة اتصفت بالبداوة، إذ ليس لها من وسائل العمران ما يساعدها على الاستقرار، ولا تملك من أسباب الرخاء ومقوماته، ووسائله ما يجعلها أمة متحضرة كسائر الأمم الأخرى التي كانت تعاصرها،مثل الفرس والروم، وليس لها من أسس الحضارة ، ما يؤهلها لتترقى، علمياً وثقافياً، واجتماعياً وعمرانياً.

لذلك فإن الكثير منهم دائماً في حل وارتحال، إما بحثا عن الماء والكلإ، أو بحثاً عن الأمن والراحة والاطمئنان، على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وكثيراً ما تتعرض بعض الفئات الضعيفة، إلى هجوم مفاجىء، من إحدى الطوائف القوية، فيتعرضون للسلب والنهب، وقد تقوم حرب بين قبيلتين بسبب بسيط، وكتب التاريخ والسِّير مليئة بمثل تلك الحروب القبلية، التي تقضي على الحرث والنسل، فتجتاح الأخضر واليابس.

كذلك وللسبب ذاته، صعوبة الحياة البدوية، التي كان يعيشها العرب في تلك الصحاري والقفار، تحتاج إلى الاعتماد على النفس، والبقاء للأقوى والأصلح، وإلى الشجاعة والإقدام، وإلى السخاء والكرم، وإلى الوفاء بالعهود، وإلى الصبر وتحمل الصعاب، وهي صفات تتماشى وطبيعة الحياة القاسية.

ومع ذلك فتلك الصفات قد يتجمع أغلبها في شخص واحد، وقد توجد في أشخاص متفرقين، وهي صفات لا تكلف فيها،لذلك حثّ عليها الإسلام، وبالمثال يتضح الحال.

ومما يروى أن الرسول الكريم ﷺ، أنشد قول عنترة بن شداد العبسي قوله:

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به كريم المأكل

فقال ﷺ: «**ما وُصِفَ لي أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة**»، والرسول الكريم ﷺ، لا يقول مثل هذا الكلام إلا استحساناً لمواقفه النبيلة التي هي تعتبر من أخلاق العرب، وصفاتهم الحميدة، فجاء الإسلام حاثًّا عليها ومرغِّباً في سلوكها.

وقد جمع عنترة بن شداد العبسي، من الصفات النبيلة والأخلاق الحميدة صفات وأخلاقاً قلّما تجتمع لغيره من الشعراء الفرسان، سواء في الجاهلية أو في الإسلام، ففي مجال الشجاعة والإقدام يقول عنترة بن شداد:

لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمّم

يدعون عَنْتَرَ والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم

ما زلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانه حتى تسربل بالدم

فازورّ من وقع القنا بلبانه   وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلِّمي

إنها صورة ناطقة معبرة، لا تحتاج إلى توضيح، لأن صدق اللّهجة يشع من جميع جوانبها، خالية من التكلف أو الادعاء بما لم يفعل.

الباب الأول

من أخلاق العرب

الفروسية:

وهذا قبيصة بن مسعود، يحذر بكر بن وائل، يقول: الجزع لا يُغني من القدر، والصبر من أبواب الظفر، والمنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الثغر أكرم منه في الدبر، وهالِك معذور خير من ناجٍ فرور.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: الشجاعة والجبن غرائز في الرجال، تجد الرجل يقاتل عمن لا يبالي ألا يؤوب إلى أهله، وتجد الرجل يفر عن أبيه وأمه، وتجد الرجل يقاتل ابتغاء مرضاة الله، فذلك هو الشهيد.

أجبن الناس:

يحكى أن عمرو بن معديكرب دخل يوماً على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، فقال له أمير المؤمنين: يا عمرو، أخبرني عن أشجع من لقيت، فقال: والله يا أمير المؤمنين، لأخبرنك عن أجبن الناس، وأَحْيَل الناس وأشجع الناس.

يا أمير المؤمنين: خرجت مرة أريد الغارة، فبينما أنا أسير بفرس مشدودة، ورمح مركوزة، وإذا أنا برجل جالس، وهو كأعظم ما يكون من الرجال خَلْقاً، وهو محتبٍ بسيف.

فقلت له: خذ حذرك، فإني قاتلك، فقال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معديكرب، فما إن سمع قولي واسمي حتى شهق شهقة فمات، فهذا أجبن من رأيت من الناس يا أمير المؤمنين.

أَحْيَل الناس:

وخرجت يوماً من الأيام، حتى انتهيت إلى حي من أحياء العرب، فإذا أنا بفرس مشدودة، ورمح مركوزة، وإذا بصاحبه في وهدة جالس مطمئن، فقلت له: خذ حذرك فإني قاتلك، قال: ومن أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرب، قال: أبو ثور؟ قلت: نعم، قال: ما أنصفتني، أنت على ظهر فرسك وأنا في بئر، فأعطني عهداً أنك

لا تقتلني حتى أركب فرسي، وآخذ حذري، فقلت له: لك ذلك، فأعطيته عهداً ألا أقتله حتى يركب فرسه ويأخذ حذره.

فخرج من موضعه الذي كان فيه، حتى احتبى بسيفه وجلس جانباً، فقلت له: ما هذا؟ فقال: ما أنا براكب فرسي ولا بمقاتلك، فإن نكثت فأنت أعلم بنكث عهدك، وما هي من أخلاقك المعهودة، فغلبني ومضيت في سبيلي ولم أتعرض عليه بسوء، فهذا، يا أمير المؤمنين أَحْيَل ما رأيت من الناس.

أشجع الناس:

ثم إني خرجت يوماً آخر، حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه، فلم أر أحداً، فأجريت فرسي يميناً وشمالاً فظهر لي فارس، فلما دنا مني إذا هو غلام قد أقبل نحو اليمامة، فلما قرب مني سلم فرددت عليه، وقلت: من الفتى؟ قال: أنا الحارث بن سعد، فارس الشهباء، فقلت له: خذ حذرك، فإني قاتلك، فقال: الويل لك من أنت؟ قلت: أنا عمرو بن معد يكرب، قال: عمرو الحقير الذليل؟ والله ما يمنعني من قتلك إلا استصغارك، وحقارتك، فتصاغرت نفسي إليَّ وعَظُمَ عندي ما استقبلني به من الكلام.

فقلت له: خذ حذرك، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا، قال: اغرب، ثكلتك أمك فإني من أهل بيت ما نكلنا عن فارس قط، فقلت: ما هو إلا الذي سمعت.

قال: اختر لنفسك، إما أن تطرد لي، وإما أن أطرد لك؟ فقلت: مغتنمها فرصة منك: بل أطرد لي، فأطرد وحملت عليه حتى إذا قلت إني وضعت الرمح بين كتفيه إذا هو قد صار حزاماً لفرسه، ثم أتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك واحدة، فو الله لولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فتصاغرت إلي نفسي، وكان الموت - والله يا أمير المؤمنين - أحب إلي مما رأيت، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا، فقال: اختر لنفسك فقلت: أطرد لي.

فأطرد لي، فظننت أني قد تمكنت منه، فأتبعته حتى إذا قلت إني قد وضعت الرمح بين كتفيه، فإذا هو قد صار لبباً لفرسه، ثم أتبعني فقرع رأسي بالقناة، وقال: يا عمرو خذها إليك ثانية، فتصاغرت إلي نفسي، فقلت: والله لا ينصرف إلا أحدنا.

فقال: اختر لنفسك، فقلت: أطرد لي فأطرد حتى إذا قلت إني وضعت الرمح بين كتفيه، وثب عن فرسه، فإذا هو على الأرض فأخطأته ومضيت، فٱستوى على فرسه، وأتبعني فقرع بالقناة رأسي، وقال: يا عمرو، خذها إليك ثالثة، ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك.

فقلت له: اقتلني، فإن الموت أحب إلي مما أرى بنفسي، وأن تسمع فتيان العرب بهذا، فقال: يا عمرو، إنما العفو ثلاث، وإني إن ظفرت منك بالرابعة قتلتك وأنشأ يقول:

وكَدت أغلاظاً من الأيمان إن عدت يا عمرو إلى الطعان
لتوجرن لهب السنان أو لا فلست من بني شيبان

فلما قال البيتين، كرهت الموت يا أمير المؤمنين، وهبته هيبة شديدة، وقلت: إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قلت :أكون لك صاحباً، ورضيت بالصحبة معه، قال: لست من أصحابي ، فكان ذلك والله أشد علي وأعظم مما صنع .

ومع كل ذلك، فلم أزل أطلب إليه الصحبة حتى قال لي: ويحك يا عمرو وهل تدري أين أريد؟ قلت: لا، ولكني أحرص على مصاحبتك، قال: أريد الموت عياناً، فقلت: رضيت بالموت معك، فقال: ٱمضِ بنا فسرنا جميع يومنا وليلتنا حتى جنّنا الليل وذهب شطره .

فوردنا على حي من أحياء العرب ،فقال لي: يا عمرو في هذا الحي الموت،ثم أومأ إلى قبة في الحي، فقال: وفي تلك القبة الموت الأحمر، يا عمرو فإما أن تمسك عليّ فرسي، فأنزل فآتي بحاجتي، وإما أن أمسك عليك فرسك فتنزل فتأتي بحاجتي فقلت: لا بل انزل أنت، فأنت أعرف بموضع حاجتك، فرمى إلي بعنان الفرس، فرضيت لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون سائساً له.

ثم مضى حتى دخل القبة، فاستخرج منها جارية، لم تر عيناي قط مثلها حسناً وجمالاً، فحملها على ناقة، ثم قال: يا عمرو. قلت: لبيك، قال: عليك بزمام الناقة.

فسرنا بين يديه، وهو خلفنا حتى أصبحنا ، فقال لي: يا عمرو قلت: لبيك ما تشاء؟ قال: التفت فانظر هل ترى أحداً؟ فالتفت، وقلت: أرى جمالاً، قال: أغذ السير (أي أسرع).

ثم قال لي: يا عمرو، قلت: لبيك، قال: انظر فإن كان القوم قليلاً، فالجلد والقوة والموت، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء، فالتفت، فقلت :هم أربعة أو خمسة، قال: أغذ السير، وسمع وقع الخيل، فقال لي: يا عمرو، قلت: لبيك قال: كن على يمين الراحلة، ووقف هو عن يسارها.

ودنا القوم منا، فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ، وهم أبو الجارية وأخواها، وهما غلامان شابان، فسلموا فرددنا السلام، ووقفوا عن يسار الطريق.

فقال الشيخ: خلِّ عن الجارية يا ابن أخي، فقال: ما كنت لأخليِّها، ولا لهذا أخذتها، فقال لأصغر ابنيه: أخرج إليه، فخرج وهو يجر رمحه، وحمل عليه الحارث وهو يقول:

من دون ما ترجوه خضب الذابل ... من فارس مستلئم مقاتل
ينمى إلى شيبا ن خير وائل ... ما كان سيري نحوها بباطل

ثم شد عليه فطعنه طعنة دق منها صلبه فسقط ميتاً. فقال الشيخ لابنه الآخر: اخرج إليه يا بني، فلا خير في الحياة على الذل، فخرج إليه، وأقبل الحارث يقول:

لقد رأيت كيف فراق طعنتي ... والطعن للقرن الشديد همتي
والموت خير من فراق خلتي ... فقتلتي اليوم ولا مذلتي

ثم شد عليه ، فطعنه طعنة سقط منها ميتاً. فقال الشيخ: خلِّ عن الظعينة يا ابن أخي ، فإني لست كمن رأيت ، قال: ما كنت لأخلِّيها، ولا لهذا قصدت، فقال له الشيخ : اختر يا ابن أخي، فإن شئت طاردتك، وإن شئت نازلتك، فاّغتنمها الفتى ونزل ، ونزل الشيخ وهو يقول:

ما أرتجي بعد فناء عمري؟ ... سأجعل السنين مثل الشهر
شيخ يحامي دون بيض الخدر ... إن استباح البيض قصم الظهر
سوف ترى كيف يكون صبري

فأقبل الحارث وهو يقول:

بعد ارتحالي وطويل سفري وقد ظفرت وشفيت صدري
والموت خير من لباس الغدر والعار أهديه لحي بكر

ثم دنا، فقال له الشيخ: يا ابن أخي، إن شئت نازلتك، وإن بقيت فيك قوة ضربتني،وإن شئت فاضربني ، فإن بقيت فيَّ قوة ضربتك.

فاغتنمها الفتى، فقال: وأبدؤك. قال الشيخ أبو الجارية: هات فرفع الحارث السيف ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه، ضرب بطنه ضربة فَقَدَّ أمعاءه، ووقعت ضربة الحارث في رأس الشيخ فسقطا ميتين.

فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف، ثم أقبلت إلى الناقة، فعقدت أعنة الأفراس بعضها إلى بعض، وجعلت أقودها، فقالت الجارية: يا عمرو إلى أين؟ ولست لي بصاحب، ولست كمن رأيت، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيلهم، فقلت: اسكتي، قالت: فإن كنت صادقاً فأعطني سيفاً ورمحاً، فإن غلبتني فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك.

فقلت لها: ما أنا بمعطيك ذلك، وقد عرفت أصلك، وجرأة قومك وشجاعتهم، فرمت بنفسها عن البعير، وهي تقول:

أَبَعْدَمَا شيخي وبعد إخوتي أطلب عيشاً بعدهم في لذة
هل لا تكون قبل منيتي

وأهوت إلى الرمح، فكادت تنتزعه من يديَّ لقوتها وشجاعتها،فلما رأيت ذلك التصرف منها خفت إن هي ظفرت بي أن تقتلني، فعاجلتها فقتلتها.

فهذا أشد ما رأيته يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: صدقت يا عمرو، حتى لا يغتر المرء بشجاعته وقوته.

موقف فارس بني جشم:

ويحكى أن دريد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، خرج في فوارس بني جشم يريد الغرة على بني كنانة، فلما كان بواد لبني كنانة رفع له رجل من ناحية الوادي معه ظعينة (الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج).

فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه :صِحْ به أن خلِّ عن الظعينة وانج بنفسك (وهو لا يعرفه)، فذهب إليه الفارس، وألح عليه في ترك الظعينة، فأنذره صاحب الظعينة بعدم التعرض له،فلما أبى الفارس ذلك، ألقى صاحب الظعينة زمام الراحلة، وقال للظعينة:

سيري على رسلك سَيْرَ الآمن سير راح ذات جأش ساكن
إن انثنائي دون قرني شائن أبلي بلائي واخبري وعايني

ثم حمل صاحب الظعينة على الفارس فصرعه،وأخذ فرسه،فأعطاه الظعينة، فبعث دريد فارساً ثانياً، لينظر ما صنع صاحبه، فرآه صريعاً، فصاح بصاحب الظعينة أن يترك الظعينة، فلم يأبه به ولم يلتفت إليه، فظن الفارس الثاني أن صاحب الظعينة لم يسمع قوله فغشيه، فألقى صاحب الظعينة زمام الراحلة إلى الظعينة، ثم حمل على الفارس فصرعه وهو يقول:

خلِّ سبيل الحرة المنيعة إنك لاق دونها ربيعة
في كفه خطية مطيعة أو لا فخذها طعنة سريعة
فالطعن مني في الوغى شريعة

ثم حمل عليه فصرعه،فلما أبطأ على دريد بعث فارساً ثالثاً لينظر ما صنع الفارسان السابقان، فلما انتهى إليهما وجدهما صريعين، ونظر إلى صاحب الظعينة يقود ظعينته مطمئناً يجر رمحه ، فقال له الفارس: خلِّ عن الظعينة وانج بنفسك، فقال صاحب الظعينة للظعينة: أقصدي قصد البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ما تريد من شتيم عابس ألم تر الفارس بعد الفارس
أرداهما عامل رمح يابس

ثم طعنه طعنة فصرعه فٱنكسرت رمحه، فلما أبطأ رجوع الفرسان الثلاثة الذين أرسلهم البطل الشجاع دريد بن الصمة، أرتاب في الأمر فظن أن الفرسان الثلاثة أخذوا الظعينة وقتلوا صاحبها.

موقف دريد بن الصمة:

فلحق بهم فوجد الفارس صاحب الظعينة لا رمح معه، وقد دنا من الحي ووجد فرسانه الثلاثة قد قتلهم فارس الظعينة، فلما رآه دريد قال له: أيها الفارس إن مثلك لا يقتل ، وإن الخيل ثائرة بأصحابها ، ولا أرى معك رمحاً وأراك حديث السن، فدونك هذا الرمح ، فإني راجع إلى أصحابي فمثبِّطهم عنك.

ما هذه الأخلاق التي يتمتع بها فارس وسيد جشم، يقتل ثلاثة من فرسانه ولا ينتقم، ودريد بن الصمة، الذي غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها، إذ كان مظفراً ميمون النقيبة، أدرك الإسلام ولم يوفق للدخول فيه توفي سنة ثمان (٨ هـ) للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فرجع دريد بن الصمة إلى أصحابه، فقال لهم: إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فوارسك، وانتزع رمحي، ولا طمع لكم فيه، فٱنصرف القوم وقال دريد شعراً:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	حامي الظعينة فارساً لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة	ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللاً تبدو أسرة وجهه	مثل الحسام جلته أيدي الصيقل
يزجي ظعينته ويسحب رمحه	متوجهاً يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رمحه	مثل البغاث خشين وقع الأجدل
يا ليت شعري من أبوه وأمه	يا صاح من يك مثله لا يجهل

صاحب الظعينة:

إن كـان ينفعك اليقيـن فسائلي	عني الظعينة يوم وادي الأجزم
إذ هي لأول من أتـاهـا نهـزة	لولا طعـان ربيعة بن مكـدم
إذ قـال لي أدنـى الفوارس ميتة	خـلِّ الظعينة طائعـاً لا تنـدم
فصرفـت راحلـة الظعينة نحوه	عـمداً ليعلم بعض ما لم يعـلـم
وهتكـت بالرمـح الطويـل إهـابهُ	فهوى صريعاً لليدين وللفـم
ومنحت آخـر بعـده جياشـة	نجلاء فاخرة كشدق الأضجم
ولقـد شفعـتهما بـآخـر ثالث	وأبى الفـرار لي الغـداة تكـرم

من هو صاحب الظعينة؟

صاحب الظعينة: هو ربيعة بن مكدَم بن عامر بن حرثان، من بني كنانة أحد فرسان مضر المعدودين المشهورين في الجاهلية، له أخبار أشهرها حمايته الظعن بعد مقتله ، ولا يعلم قتيل حمى الظعن غيره .

وذلك أنه خرج مرة في ظعن كنانة، فلقيهم نبيشة بن حبيب السلمي غازياً، فتقدم ربيعة بن مكدم، فقاتل نبيشة ومن معه طويلاً، فأصابه سهم، فعاد إلى الظعن، وأمه فيه فشدت على جرحه عصابة، فكرَّ راجعاً يقاتل القوم، نبيشة وأصحابه والدم ينزف منه فهابه القوم، فٱختار عقبة وٱتكأ على رمحه، وهو على متن فرسه يراه القوم فلا يجرؤ أن يتقدم إليه أحد منهم.

ثم رموا فرسه بسهم فقمصت وٱنقلب عنها ميتاً، وكان الظعن قد نجا، ذلك هو صاحب الظعينة، الذي صادفه فارس جشم وسيدها دريد بن الصمة.

مقتل صاحب الظعينة:

قتل ربيعة بن مكدم بن عامر فارس مضر في زمانه سنة ٦٢ قبل الهجرة النبوية، وسبب قتله ما ذكره محمد بن الحسن بن دريد الأزدي العماني، قتله نبيشة بن حبيب السلمي.

يحكى أن نبيشة بن حبيب السلمي كان غازياً، فلقي ظعناً من بني كنانة بالكديد، يوم الكديد: وهو يوم من أيام العرب، وهو موضع يبعد عن مكة المكرمة، حوالي

اثنين وأربعين ميلاً تقريباً، في نفر من قومه وبصر بهم نفر من بني فراس ابن مالك، فيهم عبد الله بن جذل الطعان بن فراس، والحارث بن مكدم أبو الفارعة أخو ربيعة بن مكدم، وكان أبو الفارعة مجدوراً يومئذ يحمل في محفة، فلما رآهم أبو الفارعة قال: هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم، فقال أخوه ربيعة: أنا أذهب حتى أعلم القوم، فأنبئكم بخبرهم، فتوجه نحوهم، فلما ولى قال بعض الظعن: هرب ربيعة، فقالت أخته أم عزة بنت مكدم: أين تنتهي نفرة الفتى (أي جماعته)؟ فعطف وقد سمع قول النساء فقال:

لقد علمن أنني غير فرق ... لأطعنن طعنة وأعتنق
أعمل فيهم حين تحمر الحدق ... عضباً حساماً وسناناً يأتلق

ثم انطلق يعدو به فرسه، فحمل عليه بعض القوم، فاستطرد له في طريق الظعن، وانفرد به رجل من القوم، فقتله ربيعة، ثم رماه نبيشة بن حبيب السلمي فطعنه، فلحق ربيعة بالظعن يدمي (أي يسيل دمه من يده من أثر الطعنة) حتى أتى أمه أم سيار، فقال لها: اجعلي على يديَّ عصابة وهو يرتجز ويقول:

شديَّ على العصب أم سيار ... لقد رزئت فارساً كالدينار
يطعن بالرمح أمام الأديار

فقالت أمه تجيبه:

إنَّا بنو ثعلبة بن مالك ... مرزأ أخيارنا كذلك
من بين مقتول وابن هالك ... ولا يكون الرزء إلا ذلك

قال أبو عبيدة: وشدت أمه عليه عصابة، فاستسقاها ماء، فقالت: إنك إن شربت الماء مت، فكرّ على القوم راجعاً يشد على القوم ويذبهم والدم ينزف منه حتى أثخن، وقال للظعن: أوضعن ركابكن خلفي حتى تصلن إلى أدنى الحي، فلن يخلص إليكن أحد لمكاني، ولا يمنعني لما بي من الدفاع عنكن، وسوف أقف دونكن لهم على العقبة، واعتمدت على رمحي، ففعلنَ فبلغنَ مأمنهنَّ فنجونَ.

قال أبو عبيدة : قال عمرو بن العلاء: لا نعلم قتيلاً ولا ميتاً حمى ظعائن غيره ، وإنه يومئذ لغلام له ذؤابة ، قال: فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن، وما تجرأ أحد التقدم نحوه فرقاً منه.

فلما رآه نبيشة بن حبيب السلمي، قال: إنه لمائل العنق، وما أظنه إلا قد مات، فرموا فرسه فقمصت وتحركت من مكانها فسقط عنها ميتاً ففَّوت الفرصة عليهم ولم ينالوا شيئاً.

قال أبو عبيدة ، ولما فاتهم الظعن لحقوا أبا الفارعة الحارث بن مكدم أخا ربيعة فقتلوه وألقوا الأحجار على ربيعة ، فمر به رجل من بني الحارث بن فهر فنفرت ناقته من تلك الأحجار التي أهيلت عليه فقال يرثيه:

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناق منه فإنه ... سباء خمر مشعل لحروب

لولا السفار وبعد خرق مهمة ... لتركتها تحبو على العرقوب

مر الفوارس عن ربيعة بعد ما ... نجاهم من غمة المكروب

يعدو عليًّا حين أسلم ظهره ... فلقد دعوت هناك غير مجيب

لله درُّ بني علي إنهم ... لم يحمشوا غزوا كولغ الذئب

نعمَ الفتى أدى نبيشة بزه ... يوم الكد يد نبيشة بن حبيب

لا يبعدن ربيعة بن مكدم ... وسقى الغوادي قبره بذنوب

وَرَثَتْ أم عمرو أخت ربيعة أخاها ربيعة بن مكدم فقالت:

ما بال عينك منها الدمع مهراق ... سحا ولا عازب لا، لا ولا راقي

أبكي على هالك أودى وأورثني ... بعد التفرق حزناً بعده باقي

لو كان يرجع ميتاً وجد ذي رحم ... أبقى أخي سالماً وجدي وإشفاقي

أو كان يفدى لكان الأهل كلهم ... وما أثمر من مال له واقي

لكن سهام المنايا من نصبن له ... لم ينجه طب ذي طب ولا واقي

فاذهب فلا يبعدنك الله من رجل ... لاقى الذي كل حي مثله لاقي

فسوف أبكيك ما ناحت مطوقة ... وما سريت مع الساري على ساقي

أبكي لذكرته عبرى مفجعة ... ما إن يجف لها من ذكره ماقي

ذلك بعض أخبار مقتل البطل الشجاع حامي الظعائن، ولمَّا يشب عن الطوق، فأين شباب اليوم من أولئك الشباب الذين ضربوا أروع الأمثلة في الشجاعة والإقدام، والإيثار على النفس، فحق لمواقفهم أن تتناقلها الأجيال عبر العصور؟

شجاعة امرأة مؤمنة:

ومن مواقف المرأة الشجاعة: أم علقمة الخارجية،أُسِرَت وأُتي بها إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي، فقيل لها: وافقيه في مذهبه، فقد يظهر الشرك بالمكر، فقالت مستشهدة بقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام ٥٦].

فقال لها: قد خبطت الناس بسيفك، يا عدوة الله خبط عشواء. فقالت: لقد خفت الله خوفاً صيرك في عيني أصغر من ذبابة، وكانت منكسة رأسها، فقال لها الحجاج: ارفعي رأسك وانظري إلي.

فقالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فقال: يا أهل الشام ما تقولون في دم هذه؟ قالوا: حلال.

فقالت : لقد كان جلساء أخيك فرعون أرحم من جلسائك حيث استشارهم في أمر موسى، فقالوا: (ارجه وأخاه) فقتلها.

فقال العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي، وكان شاعراً فارساً، أسلم قبيل فتح مكة المكرمة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ويدعى فارس العبيد. ولما سئل عبد الملك بن مروان عن أشجع العرب فقال:

أشد على الكتيبة لا أبالي أَحَتْفِي كان فيها أم سواها

ويروى عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، أنه قال في شجاعة الأنصار: ما استلت السيوف ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف حتى أسلم أبناء قيلة: يعني الأوس والخزرج.

ومن طبيعة الشجاع [أن] يبادر للحرب غير مبال بها، لثقته بنفسه، وعزمه على التغلب على عدوه، لكنه في نفس الوقت يفرق بين الشجاعة والتهور، والإقدام وانتظار الفرصة المناسبة لينقضَّ على عدوه.

وصف أعرابي قوماً بالشجاعة والإقدام فقال: ما سألوا قط كم القوم، وإنما يسألون أين هم؟.

وسأل رجل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة فقال: صِفْ لي نفسك؟ قال: ما بارزت أحداً إلا ظننت أن روحه في يدي.

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من فرسان الإسلام الشجعان قال: أبالموت تخوِّفوني؟ فو الله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط عليّ.

وقال سيف الله المسلول، خالد بن الوليد عند موته: لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ثم ها أنذا أموت على فراشي كما يموت العير - ويقصد بالعير الحمار الوحشي أو الأهلي- فلا نامت عين الجبناء.

والفرق بين العير والعير: العير بفتح العين: الحمار الأهلي، والوحشي،والجمع أعيار،وعيور، والعير في القدم، هو ما شخص منها فوق الأخمص ونتأ فوق ظهرها، والعير في ورقة الشجر هو الخط الناتىء في ظهرها من الوسط، والعير كل شاخص أو ناتىء ممتد في وسط شيء مستو، ومنه عير النصل، وعير جبل بالمدينة المنورة.

والعير بكسر العين: الإبل تحمل الميرة، قال الشاعر:

كالعير في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

ثم غلب على كل قافلة يمتار عليها من إبل وبغال أو حمير، والجمع عيرات، وفي المثل جاء قولهم: لا في العير ولا في النفير، أي لا في عير أبي سفيان، القافلة، ولا في نفير أبي جهل، جيش قريش في غزوة بدر الكبرى.

والشجاع بإقدامه يدفع عن نفسه العار والشدة، وينشد لنفسه وقومه الأمان،وإن كان للموت كارهاً، ومن المنية هارباً. قال يزيد بن المهلب بن أبي صفرة يوماً لجلسائه: أراكم تعنفوني في الإقدام، فقالوا: أي والله، إنك لترمي نفسك، فقال: إليكم عني فوالله لم آتِ الموت من حبه، ولكني آتيه من بغضه، وإن لم آتِ الموت مسترسلاً، أتاني مستعجلاً، ثم تمثَّل بقول حصين بن الحمام بن ربيعة المري الذبياني،

شاعر جاهلي كان سيد قومه بني سهم بن مرة بن ذبيان، ويلقب مانع الضيم، وهو ممن نبذوا عبادة الأوثان في الجاهلية فقال:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياة مثل أن أتقدما

شجاعة عبد الله بن الزبير:

وقال عمر بن عبد العزيز، لأبي مليكة : صف لي عبد الله بن الزبير، فقال: والله ما رأيت جلداً قط ركب على لحم، ولا لحماً على عصب ولا عصباً على عظم مثل جلده، ولحمه وعصبه، ولا رأيت نفساً بين جنبين مثل نفس ركبت بين جنبيه، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره، فو الله ما خشع له بصره ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع .

ودخلت عليه أمه، أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، في بيته وهو قائم يصلي، فسقطت حية فتطوقت بابنه هاشم، فتصايح أهل البيت بها حتى قتلوها، وعبد الله قائم يصلي ، فما التفت ولا عجل ، فلما فرغ قال : ما بالكم؟ إنها الشجاعة والصبر والخشوع، ومن كان مع الله كان الله معه فهو يعتبر من شجعان المسلمين، ومن الرُّكع القانتين السُّجُود.

موقف أم البنين من الحجاج:

وقدم الحجاج بن يوسف الثقفي على الوليد بن عبد الملك بن مروان، فدخل عليه لابساً درعاً وعمامة سوداء، حاملاً قوساً عربية وكنانة، فرأته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، فبعثت إلى الوليد بن عبد الملك تسأله عن الأعرابي المستلئم في السلاح؟.

فبعث إليها أنه الحجاج بن يوسف، فأعادت الرسول إليه، فقال: تقول لك: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحياناً أحب إليَّ من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف، فأخبره بذلك الوليد بن عبد الملك وهو يمازحه.

فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست قهرمانة، (القهرمان هو كالخازن، والوكيل والحافظ لما تحت يده،

والقائم بأمور الرجل، بلغة الفرس)، فلا تُطلعها على سرك، ومكائد عدوك، ولمَّا دخل الوليد على أم البنين أخبرها بمقالة الحجاج.

فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً بأن يأتيني مستلئماً، ففعل ذلك، وأتاها الحجاج فحجبته، فلم يزل قائماً، ثم قالت: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتال ابن الزبير، وابن الأشعث، أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام، ولا بقتل ابن ذات النطاقين، أول مولود في المدينة بعد الهجرة النبوية من مكة المكرمة، إلى المدينة المنورة.

أما نهيك أمير المؤمنين، عن مفاكهة النساء، وبلوغ لذاته وأوطاره، فإن كن ينفرجن عن مثله فغير قابل لقولك، أما والله، لقد نفض نساء أمير المؤمنين الطِّيب من غدائرهن، فبعنه في أعطية أهل الشام، حين كنت في أضيق من القرن، قد أظلتك رماحهم وأثخنتك كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، فأنجاك الله من عدو أمير المؤمنين بحبهم إياه، قاتل الله القائل حين نظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك.

فرار الحجاج من البطلة الشجاعة غزالة:

قال الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا كررت على غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جوانح طائر

وغزالة هذه هي امرأة شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني، من شهيرات النساء في الشجاعة، والفروسية والإقدام، خرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة٧٦ هـ، أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، فكانت تقاتل في الحروب قتال الأبطال، قال أيمن بن خرم بن فاتك من بني أسد:

أقامت غزالة شوق الضراب ... لأهل العراقين شهراً قميطا

أي شهراً كاملاً، وأشهر أخبارها فرار الحجاج بن يوسف منها في إحدى الوقائع، أو تحصنه منها حين أرادت دخول الكوفة، وقد عيَّره الشعراء، ومنهم

عمران بن حطان الذي ينسب إليه البيتان الآنفا الذكر: أسد علي.. إلخ، قتلها خالد بن عتاب الرياحي، في معركة على أبواب الكوفة سنة ٧٧ هـ.

تحريض المؤمنين على القتال:

في غزوة أحد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين على القتال، وينفخ فيهم روح الإيمان،ويحثهم على الصبر والثبات، فأخذ سيفاً بيده الشريفة، فقال: «**من يأخذ هذا السيف بحقه**»؟ فأحجم القوم، ثم كرر قوله:«**من يأخذ هذا السيف بحقه**»؟، فقام رجال فأمسكه عنهم.

ثم قام أبو دجانة سماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري، فقال: ما حقه يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**أن تضرب به العدو حتى ينحني**». قال: أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً مقداماً، يختال في الحرب بين الصفوف، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل، فأخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن**» إنها الشجاعة والثقة بالنفس، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن شجاعاً مقداماً، لا تأخذه في الله لومة لائم.

أشجع الناس أبو بكر الصديق:

روي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، أنه خطب ذات يوم في الناس، فقال : (أيها الناس! من أشجع الناس؟) ، فقالوا : أنت يا أمير المؤمنين، فقال: إني ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه.

ولكن أشجع الناس هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ففي غزوة بدرجعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي إليه أحد من المشركين؟.

فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه شاهراً سيفه على رأس رسول الله، لا يهوي إليه أحد من المشركين، إلا هوى إليه، فهذا أشجع الناس.

ثم قال الإمام علي بن أبي طالب: ولقد رأيت رسول الله ﷺ، أخذته قريش، فهذا يحاده، وهذا يتلتله ـ أي يدفعه ـ ويقولون : أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟. فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر الصديق يضرب هذا، ويجاهد هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، فترك القوم رسول الله، واتجهوا إلى أبي بكر يضربونه حتى أغمي عليه، ثم رفع الإمام علي بن أبي طالب بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أو أبو بكر الصديق رضي الله عنه؟، فسكت القوم.

فقال الإمام علي كرم الله وجهه: والله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون: ذلك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

موقف أبي محجن البطولي:

ومما يروى أن سعد بن أبي وقاص بن مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، فاتح العراق، وبطل معركة القادسية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ،يقال له فارس الإسلام، أسلم وهو ابن ١٧ عاماً، وتحمل العذاب بسبب الإيمان بالله.

كان سعد مريضاً في إحدى المعارك، التي كان يقودها بنفسه، منعه المرض عنه مباشرة القتال، فكان يرقب المعركة على ظهر بيت،والمشركون يفعلون بالمؤمنين الأفاعيل، وكان أبو محجن عمرو بن حبيب الثقفي لحق بسعد بن أبي وقاص، وهو بالقادسية، وكان منهمكاً في شرب الخمر، وقد حدّه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين مراراً على ذلك.

فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى سعد بن أبي وقاص أن يحبسه، فلما وصل إليه حبسه سعد عنده، فلما دارت رحى الحرب واشتد القتال في إحدى معارك القادسية، فالْتمس أبو محجن من امرأة سعد بن أبي وقاص، أن تحلَّ قيده، وتعطيه فرس سعد،وعاهدها على الرجوع إن سلم من القتل، فأطلقته سلمى امرأة سعد، فركب فرساً بلقاء لسعد، وحمل على المشركين، فجعل سعد يقول : لولا أن أبا محجن في الوثاق محبوساً لظننت أنه أبو محجن، وأنها فرسي، فانكشف المشركون، وجاء أبو محجن ، فأعادته امرأة سعد في الوثاق.

ثـم أتت امرأة سـعـد سلمى سعداً: فأخبرته بموقـف أبي محجن، فأرسل سعد إليه فأطلقه، وقال: والله لا حبستك عليها أبداً ـ أي على شرب الخمر ـ فقال أبو محجن: وأنا والله لا شربتها بعد اليوم أبداً.

ومن شعر عنترة بن شداد العبسي في الشجاعة قوله:

بكـرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتـهـا إن المنيـة منهـل ... لا بـد أن أُسقى بكأس المنهل
فـاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سـأموت إن لم أقتـل

شجاعة عمة الرسول صفية:

وهذه عمة الرسول الكريم ﷺ، صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، قالت صفية: كان حسان بن ثابت شاعر الرسول معنا، في حصن (فارع سوم الخندق)، ومعنا النساء والصبيان، فمر بنا رجل يهودي فجعل يطيف بالحصن، فقلت: يا حسان إن هذا اليهودي ـ كما ترى ـ يطيف بالحصن وأنا والله لا آمن أن يدل علينا من وراءنا من اليهود، ورسول الله ﷺ قد شغل عنا، فانزل إليه واقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب شجاعة.

قالت صفية: فلما قال لي ذلك، ولم أر عنده شيئاً اعتجرت، ثم أخذت عموداً، ونزلت إليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل: فقال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب.

ذلك موقف من مواقف الشجاعة والإقدام، امرأة أفضل من رجل للدفاع عن النساء والصبيان يا له من موقف عظيم مشرف!

يروى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان ينشد هذه الأبيات، ويترنم بها:

إن المكـارم أخـلاق مظهـرة ... فالعـقـل أولها والـدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعهـا ... والجود خامسها والعرف سادسها
والـبـر سـابعها والصبر ثامنهـا ... والشكر تاسعها واللين عاشرها

والعين تعلـم من عينَيْ محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفس تعلم أني لا أصدقها ولست أرشد إلا حين أعصيها

إقدام عمرو بن معديكرب الزبيدي:

ومما قال العباس بن مردا س في عمرو بن معد يكرب:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطيء زبيداً فقد أودى بنجدتها عمرو

وعمرو بن معد يكرب الز بيدي، فارس من فرسان الجاهلية والإسلام، وله مواقف مذكورة ، ومواطن مشهورة، أسلم ثم ارتد عن الإسلام، ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إذا رآه قال: الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمراً، إعجاباً به وبإقدامه.

الإمام علي يقدم ولده محمداً:

وهذا أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب الشجاع البطل، كان أبوه يلقيه في الوقائع ، ويتقي به عظائم الأمور، وهو شديد البأس، ثابت الجنان، قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب، دون الحسن والحسين؟؟ فقال: لأنهما كانا عينيه، وكنت أنا يديه، فكان يتقي عينيه بيديه، وقيل: إن أباه عليَّاً اشترى درعاً فاستطالها أي وجدها طويلة، فأراد أن يقطع منها قطعة، فقال له محمد: يا أبت علِّم موضع القطع ، فعلَّم الإمام علي موضع القطع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدده أبوه الإمام علي.

البطل الشجاع المهلب بن أبي صفرة:

وهذا المهلب بن أبي صفرة، كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودين وأولاده كلهم أنجاد أبطال، إلا أن ولده المغيرة كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد المغيرة معي حرباً إلا ورأيت البشرى في وجهه.

وقال المبرد في الكامل: كان المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه، نكس على قربوس سرجه، وحمل تحتها فبراها بسيفه، وأثر في أصحابها ، وكان أشد ما تكون الحرب أشد ما يكون تبسماً وتفاؤلاً بنصر الله.

من وصايا أبي بكر الصديق:

ويروى أن خليفة رسول الله ﷺ، أبا بكر الصديق كتب يوصي أحد قادة المسلمين قائلاً له: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغسل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون نوراً يوم القيامة.

قال أحد الشعراء:

ومن يخش أظفار المنايا فإننا ... لبسنا لهن السابغات من الصبر
وإن كريه الموت عذب مذاقه ... إذا ما مزجناه بطيب من الذكر

والسابغات جمع سابغة، وهي من الدروع الطويلة التامة، كما يطلق اسم السابغة على الدرع الواسعة، ومما يروى أن النبي ﷺ قال: «**الخير في السيف، والخير مع السيف، والخير بالسيف**»، ولا يحمل السيف بحقه إلا الشجاع البطل.

سيف الله المسلول:

وقال خالد بن الوليد سيف الله المسلول، حين رأى بني حنيفة، قد سلّوا السيوف:

لا يلاعبونا بالسيوف المبرقة ... إن السهام بالردى مفوقة
والحرب ورهاء العقال مطلقة ... وخالد من دينه على ثقة

وقال عقبة بن عامر الجهمي: سمعت رسول الله ﷺ، وهو على المنبر يقول: «**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»، وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة أنفس جنته، صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به، ومنبله، فارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا**».

وهذا عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي بالولاء، وكان والياً للمأمون على طبرستان وكرمان، وخراسان والري، والسواد وما يتصل بتلك الأطراف، فظهرت كفاءته القيادية، وقد أعجب كثير من المؤرخين بأعماله، فأثنوا عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي من أكبر الناس بذلاً للمال، مع علم ومعرفة وتجربة.

وقال ابن خلكان: كان عبد الله بن طاهر سيداً نبيلاً عالي الهمة شهماً، وقال الذهبي في دول الإسلام: كان عبد الله بن طاهر من كبار الملوك ، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه، وهو القائل:

يبيت ضجيعي السيف طوراً وتارة ... تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه في الحرب صاحباً ... وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتى له ... بها كلف ما تستقر ركائبه

استشهاد مصعب بن عمير:

ويحكى في غزوة أُحُد في العام الثالث للهجرة، اندفع المشركون نحو رسول الله ﷺ، فقام مصعب بن عمير يقي رسول الله ﷺ، فقاتل حتى قتل فظن قاتل عمير أنه قَتَلَ رسول الله ﷺ، فأشاع الخبر على أنه قَتَلَ محمداً فسمع المسلمون الخبر وعظمت البلية، وفقد الأمل بعضهم، واندفع آخرون للجهاد في سبيل الله.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

وقدم أنس بن النضر، عم أنس بن مالك على قوم ممن أذهلتهم الشائعة، وألقوا بسلاحهم ، فقال : ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ.

فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه،وقال: اللَّهم! إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء (يعني المسلمين) وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يعني المشركين)،ثم لقي سعد بن معاذ سيد الأوس، فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة،ومازال يقاتل حتى استشهد رحمه الله.

فوجد به بضع وسبعون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم يعرفه إلا أخته ببنانه،وفيه وفي أمثاله نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلاً﴾ [سورة الأحزاب ٢٣].

من أخبار الشباب الشجعان:

ومن أخبار الشجعان، ما حكاه الفضل بن يزيد، قال: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين، وكنت مشغوفاً بأخبار العرب، أن أستمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور في بعض أحياء العرب، إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها،وهي آخذة بيد غلام، قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان وهي تعاتبه بلسان طيب، وكلام عذب تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب،وأكثر ما أسمع منه، أي بني وهو يبتسم في وجهها، وقد غلب عليه الحياء والخجل، فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه، وسلمت عليه فرد علي السلام، فوقفت أنظر إليهما فقالت:

يا حضري ما حاجتك؟، فقلت: الاستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام، فقالت : يا حضري إن شئت سِقْتُ إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت يحمك الله.

فقالت: حملته والرزق عسر والعيش نكد، حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وجل أن أضعه، فوضعته خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فشب كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب فحفظ القرآن الكريم فتلاه،وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخرة قومه وآبائه وأجداده، فوجد من التشجيع ما زاده رغبة.

فلما بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه حملته على عناق الخيل فتفرس وتمرس، ولبس السلاح ومشى بين بييتات الحي الخيلاء، فأخذ في قري الضيف،وإطعام الطعام، وأنا عليه وجِلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه.

فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثار لهم،وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون، إلى أن أدبر الليل، وأسفر الصباح، طلعت علينا غرر الجياد، وطلائع العدو.

وما هي إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسأل عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر إشفاقاً عليه، وضنًّا به، حتى علت الأصوات وبرزت المخدرات أي النساء اللاتي في الخدور، رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لامة حربه، وأخذ رمحه بيده، ولحق حماة القوم للدفاع عن الحرم.

فطعن أدناهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبياً صغيراً، ولا مدد وراءه، فحملوا عليه، فأقبل يؤم البيت، ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم، وشتت جمعهم،وقلل كثرتهم، ومزقهم كل ممزق، وناداهم: خلوا عن المال، فو الله لا رجعت إلا به أو لأهلكن دونه.

فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان، وحملوا عليه، وقد رفعوا إليه الأسنة، وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال، وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فو الله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً، وأحسن رواجاً من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيان الحي هذه الأبيات:

ومن شعر الفارس الشاب الشجاع:

تأملن فعلي هل رأيتن مثله ... إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلاً حقه ونصيبه ... من السمهري اللدن والمرهف العضب

أنا ابن هند بن قيس بن مالك ... سليل المعالي والمكارم والسيب

أبى لي أن أعطي الظلامة مرهف وطرف قوي الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال الرواسي لآنحططن إلى الترب
وعرض نقي أتقي أن أعيبه وبيت شريف في ذرى تغلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمي لكنَّ وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتي مشين إلى أبي يهنينه بالفارس البطل الندب

إنها صفحة خالدة، وموقف نبيل من مواقف الشجاعة، والإقدام والفروسية، فرغم حداثة سنه، وانفراده في الحي استطاع أن يحمي أهله وقومه، فأين شبابنا اليوم من شباب أولئك القوم؟، لقد انقلبت الموازين، وكأن الشاعر الحكيم يعنيهم بقوله:

شباب قنَّع لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

وقال الشاعر:

فوارس، قوالون للخيل: أقدمي وليس على غير الرؤوس مجال
بأيديهم سمر العوالي كأنما تشب على أطرافهن ذبال

وقال آخر:

قوم إذا اقتحموا العجاج رأيتهم شمساً وخِلْتَ وجوههم أقمارا
لا يعدلون برفدهم عن سائل عدل الزمان عليهم أو جارا
وإذا الصريخ دعاهم لملمة بذلوا النفوس وفارقوا الأعمارا

وشهد شاهد من أهلها:

شهادة أحد رجال الروم، على ما كان يتصف به جيش المسلمين ضد جيش الروم، وانتصار جيش الإسلام رغم قلة عدته وضعف عدده وانهزام جيش الروم رغم كثرة عدده، وقوة عدته.

يروى أنه لما انهزم الروم، وقدموا على هرقل وهو بأنطاكية، فدعا رجالاً من عظمائهم فقال: ويحكم أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشراً مثلكم؟

قالوا: بلى، يعني المسلمين، قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم، أضعافاً في كل موطن، قال : ويلكم، فما بالكم تنهز مون كلما لقيتموهم؟ فسكتوا. فقال شيخ منهم، أنا أخبرك أيها الملك من أين تؤتون؟ قال اخبرني: قال : إذا حملنا عليهم صبروا، وإذا حملوا علينا صدقوا، ونحمل عليهم فنكذب، ويحملون علينا فلا نصبر.

قال الملك : ويلكم فما بالكم كما تصفون، وهم كما تزعمون؟ قال الشيخ: ما كنت أراك إلا وقد علمت من أين هذا؟ قال له الملك: من أين هو؟.

قال الشيخ: لأن القوم يصومون بالنهار، ويقومون بالليل، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يظلمون أحداً ويتناصفون بينهم ، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر ونزني، ونركب الحرام وننقض العهد، ونغضب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض.

قال الملك: صدقتني أيها الشيخ، والله لأخرجن من هذه القرية، فما لي في صحبتكم خير، وأنتم هكذا.

تلك هي حقيقة القوم المؤمنين، الصابرين الصادقين، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وبالمقابل تلك هي حال الكافرين المشركين الغادرين الآمرين بالمنكر والناهين عن المعروف، ويقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الروم: ٤٧].

من أشجع الناس؟

ومما لا شك فيه، أن رسول الله ﷺ كان أشجع الناس،وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون: إذا حمي الوطيس يتقون برسول الله ﷺ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة رضي الله عنه عري في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، قال: وجدناه بحراً أو إنه لبحر يعني رسول الله ﷺ.

ويروى أنه أدار المعركة في غزوة حنين، بعشرة من رجاله، التي فرّ فيها إثناعشر ألفاً، ثم كان النصر بعد الهزيمة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾[سورة التوبة ٢٥-٢٦].

وفي غزوة أُحُد كُسرت رباعية الرسول ﷺ اليمنى السفلى، وجُرحت شفته السفلى، وقال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله على من دمى وجه رسول الله**».

وكان أبو عامر الفاسق، وقد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون، فوقع رسول الله في حفرة منها، فأخذه علي بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استو ى قائماً.

وأقبل أبيّ بن خلف، وهو مقنع في الحديد قائلاً: أين محمد لا نجوت إن نجا؟ فقال أصحاب النبي: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوه**».

فلما دنا منه تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم،انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه تدحرج منها عن فرسه، وهو يخور خوار الثور،ومات لعنه الله بسرف، والمشركون راجعون إلى مكة منهزمين.

موقف أمين الأمة في غزوة أُحُد:

وعالج أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح، إخراج حلقتي المغفر من وجه رسول الله ﷺ، وكره تناولها بيده فيؤذي الرسول،فأزمّ على إحدى الحلقتين بفمه، فاستخرجها، وقد سقطت ثنيته معها، ثم أزمّ على الأخرى فاستخرجها فوقعت الثنية الثانية، فكان أبوعبيدة لذلك من أحسن الناس هتماً أي أحسن صوتاً.

ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله ﷺ، ثم ازدرده أي ابتلعه، فقال رسول الله ﷺ: «**من مس دمي دمه لم تصبه النار**».

ولقد كان لثبات رسول الله ﷺ يو م أُحُد موقف بطوليّ فهذا يدل على شجاعته النادرة، ولولا ذلك الموقف لما تجمع أولئك الأبطال، مثل أبي بكر الصديق، وعمر

ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم من الأبطال الشجعان ﷺ أجمعين.

قول الرسول: فداك أبي وأمي

وهذا سعد بن أبي وقاص نثر له الرسول ﷺ كنانته، وهو يقول له: «**ارم فداك أبي وأمي**»، وقد ثبت أن الرسول ﷺ لم يجمع أبويه لأحد فداءً إلا لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وهذا موقف من مواقف أبي طلحة، روى البخاري عن أنس بن مالك، قال: لما كان يوم أُحُد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي مجوب عليه بجحفة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع فكسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه كنانته، فيقول النبي لأبي طلحة: خذ منه وارم.

ويشرف النبي ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف حتى لا يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي الرسول ويقول: إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك، ومرني بما شئت.

الدفاع عن الرسول تعدّى الرجال:

وإن ننسَى فلا ننسى في غزوة أُحُد، تلك المرأة الشجاعة المقدامة، التي كانت تدافع عن الرسول الكريم ﷺ في أحرج المواقف، وهي نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية.

قالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس يوم أُحُد وعندي سقاء فيه ماء، فأنتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه والدولة والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن قوس حتى خلصت الجراح إليّ.

شهادة الرسول لأم عمارة:

وروى الواقدي بسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما التفتُّ يوم أُحُد يميناً وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني**».

وبعد غزوة أُحُد مر الرسول ﷺ بامرأة من بني دينار قد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد، فلما نعوا إليها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ ؟.

قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك يا رسول الله جلل،أي صغيرة لا قيمة لها، إنه موقف عظيم من مواقف شجاعة المرأة المسلمة، فأين نساء اليوم من نساء أولئك القوم؟

دور الشعر في الجهاد:

وقال معاوية بن أبي سفيان: ما شجعني على علي بن أبي طالب إلا قول عمرو ابن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي بعد عن رضي صحيح
أبت لي أن أقضي في فعالي ... وأن أغضي على أمر قبيح

وعمرو بن الإطنابة: هو عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبي الخزرجي شاعر جاهلي، فارس شجاع، وكان من أشراف الخزرج،اشتهر بنسبته إلى أمه: الإطنابة بنت شهاب من بني القين،وبعض الرواة من يعده من ملوك العرب في الجاهلية، كانت إقامته بالمدينة المنورة، وكان على رأس الخزرج في حرب لها مع الأوس.

وقال نصر بن سيار بن رافع بن حري بن ربيعة الكناني:

أرى خلل الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام

فـإن لـم يطـفـهـا عـقـلاء قـوم   يكـون وقـودهـا جـثـث وهـام
فقلت من التعجب بين شعري   أأيـقـاظ أمـيـة أم نـيـام

ونصر بن سيار هذا صاحب الشعر، كان من الدهاة الشجعان، وكان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ، ثم ولِّي إمرة خراسان سنة ١٢٠هجرية، وغزا ما وراء النهر، ففتح حصوناً، وغنم مغانم كثيرة، وأقام بمرو وقويت الدعوة العباسية في أيامه، فكتب إلى بني مروان بالشام يحذرهم وينذرهم فلم يأبهوا للخطر، فصبر يدبر الأمور إلى أن أعيته الحيلة وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج نصر بن سيار من مرو سنة ١٣٠هجرية ورحل إلى نيسابور.

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: كان نصر بن سيار من الخطباء الشعراء، يعد في أصحاب الولايات والحروب، والتدبير والعقل وسداد الرأي، مات بساوة عام ١٣١هجرية.

وعن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يتقون به على عدوهم، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها**».

الباب الثاني

في السلاح

الإعداد والإستعداد:

لقد جعل الله لكل زمان أدواته وأسلحته، ولأمر ما ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، استمر الصراع بين الحق والباطل، ولكل أنصاره،وذووه، يدافعون، فمنهم من يدافع لإحقاق الحق،وأن تسود عدالة السماء بين بني الإنسان، لذلك أرشدنا الله رحمة بنا، إلى الإعداد والإستعداد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠] وقال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [سورة الحج: ٤٠].

عمر يسأل عن أفضل السلاح:

وروي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، أنه سأل عمرو بن معد يكرب، يوماً فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟. قال عمرو: فعن أيها تسأل يا أمير المؤمنين؟، قال: ما تقول في السهام؟ قال عمرو: منها ما يخطىء ومنها ما يصيب.

قال: فما تقول في الرمح؟ قال عمرو: أخوك وربما خانك، قال: فما تقول في الترس؟، قال عمرو: هو الدائرة ، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة.

وقيل: إن عمراً نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إنني عابر على هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر جزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم.

فقال بعضهم لبعض: يا بني زبيد علام تدعون صاحبكم؟ والله ما نظن أنكم تدركونه حيًّا، فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من الفرس، فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم يقدر أن يتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه، وخلى فرسه فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدونني، فقالوا: أين فرسك؟ فقال رمي بنشابة فغار، وشب فصرعني.

ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذي قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية، على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزم الفرس.

تلك هي شجاعة عمرو بن معد يكرب، وإقدامه وهو في حالة الكبر ، فكيف كان إقدامه وشجاعته لما كان شاباً، يتمتع بالفتوة، فقد كان يضرب به المثل في الإقدام حيث قال أبو تمام الطائي:

إقـدام عمرو في سماحة حاتم　　　في حلم أحنف في ذكاء إياس

أشهر سيوف العرب:

ومن أشهر سيوف العرب: صمصامة عمرو بن معد يكرب، والصمصامة السيف القاطع، الحاد الذي لا ينثني، وممن تمثل بصمصامة عمرو بن معد يكرب نهشل بن حري بن صخرة بن جابر الدارمي التميمي، الشاعر المخضرم، أدرك الإسلام فأسلم ولم ير الرسول ﷺ، وكان سيداً في قومه، توفي عام ٤٥هجرية:

أخ ماجد ما خانني يـوم مشهد　　　كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وقد وهب عمرو سيفه لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن فقال:

خليلي لـم أخنـه ولم يخني　　　إذا ما صـاب أوساط العظام
خليلي لـم أهبـه من قـلاه　　　ولكـنّ المواهب للكـرام
حبوت بـه كريمـاً من قريش　　　فسـر به وصين عن اللئـام
وودعت الصفي صفي نفسي　　　على الصمصام أضعاف السلام

فلم يزل في آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال كثير لهشام ابن عبد الملك بن مروان، وكان قد كتب إليه فيه، فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه أبو العباس السفاح، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أول الخلفاء العباسيين، كما طلبه أبو جعفر المنصور، ثاني خلفاء بني العباس، فلم يجداه.

عروة بن الزبير يطلب سيف أخيه عبد الله:

وقَدِمَ عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله بن الزبير، فطلب منه سيف الزبير، وقال له: رده عليَّ فإنه السيف الذين أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين، فقال له عبد الملك: أتعرفه؟. قال: نعم، قال: بما ذا تعرفه؟. قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أبيك، أعرفه بقول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وهذا يدل على الشجاعة والإقدام، وخوض المعارك الجسام وشق الزحام، وحسبه شرفاً أنه حواري رسول الله ﷺ.

وقال الشاعر:

بكى صاحبي لما رأى الموت فوقنا مطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر

فقلت له: لا تبك عينك إنما يكون غداً حسن الثناء لمن صبر

فما أخر الإحجام يوماً معجلاً ولا عجل الإقدام ما أخَّر القدر

فآسي على حال يقلّ بها الأسى وقاتل حتى استبهم الورد والصدر

وكرّ حفاظاً خشية العار بعدما رأى الموت معروضاً على منهج المكر

الهادي يطلب الصمصامة:

فجدَّ في طلبه والبحث عنه موسى الهادي أحد خلفاء بني العباس فظفر به، فجرده ودعا بمكتل من الدنانير، وأمر الشعراء أن يصفوه، ففعلوا فما استطاع أن يصفه إلا الشاعر عامر بن عبد الرحمن المعروف بأبي الهول الحميري حيث يقول:

حاز صمصامة الزبيدي من بين جميع الأنام موسى الأمين

سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أطبقت عليه الجفون

فقال موسى الهادي: السيف لك، والمكتل لك، فأخذهما وفرق الدنانير على الشعراء الحاضرين وقال: دخلتم معي، وأخرجتم من أجلي، ولي في السيف

عوض وهو القائل فيه:

حسام غداة الروع ماض كأنه	من الله في قبض النفوس رسول

وكان مكتوباً على الصمصامة:

ذكر على ذكر يصول بصارم	ذكر يماني في يمين يماني

وكان اسم سيف رسول الله ﷺ: ذو الفقار سمي ذو الفقار لأنه كانت فيه حفر صغار حسان، ويقال للحفرة فقرة، ثم صار إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفيه قيل: (لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار) وكان أولاد الإمام علي يتوارثونه حتى وقع إلى بني العباس.

قال الأصمعي: رأيت هارون متقلداً سيفاً، فقال: يا أصمعي ألا أريك ذا الفقار؟ أسلل سيفي هذا فسللته، فرأيت فيه ثماني عشرة فقرة.

قال المبرد في كتاب الاشتقاق: كانت فيه حزوز مطمئنة شبهت بفقار الظهر، وهو سيف منبه بن الحجاج بن عامر القرشي من بني سهم، كان هو وأخوه نبيه من أشراف قريش، وذوي الرأي والكلمة، قتل يوم بدر، قتله الإمام علي بن أبي طالب كافراً، وقتل أخاه عم النبي حمزة بن عبد المطلب.

وروي أن الرسول ﷺ قال: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله السلامة والعافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**».

ويروى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه،أنه قال : بقية السيف أنمى عدداً، وأكثر ولداً، دليل ذلك في ولد الإمام علي، وولد المهلب بن أبي صفرة: فقد قتل مع الحسين بن علي عامة أهل بيته ، ولم ينج إلا ابنه علي لصغره ،فأخرج الله من صلبه الكثير من الأولاد.

وقتل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وإخوته وذراريهم، ثم مكث من بقي منهم نيفاً وعشرين عاماً لا يولد فيهم أنثى، ولا يموت منهم ذكر.

سيف أبي حية النميري:

ومما يحكى أنه كان لأبي حية النميري سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية ، فحكى جار له قال: أشرفت عليه ذات ليلة وقد أنضاه أي

سلّه، وفي بيته كلب ظنه لصاً، وهو يقول: أيها المغترُّ بنا، والمجترىء علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وشر طويل، وسيف صقيل، لعاب المنية الذي سمعت به، مشهورة ضربته، ألا تخاف اخرج بالعفو عنك، وألا دخلت بالعقوبة عليك، إني والله إن أدع قيساً تملأ الفضاء خيلاً ورجالاً، يا سبحان الله ما أكثرها وأطيبها؟ ثم فتح الباب، فإذا كلب يخرج من الباب فقال: الحمد لله الذي مسخك كلباً وكفانا حرباً.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠]، وبعد مقتل الفارس المقدام ربيعة بن مكدم بفترة كيما يستعد القوم ، للأخذ بالثأر،أغار قومه على بني جشم،قوم الفارس المغوار دريد ابن الصمة، فقتلوا وأسروا وغنموا، ومن الأسارى كان دريد بن الصمة فارس القوم وسيدهم.

فأخفى دريد نسبه، فحبسوه عندهم، فمرت به نسوة من بني مالك بن كنانة قوم ربيعة بن مكدم، وكانت الظعينة التي حماها ربيعة، فرأت الرجل فارس جشم وسيدهم، وتذكرت موقفه من ربيعة حين أعطاه رمحه، فقال له: خذ رمحي فمثلك لا ينبغي أن يقتل وسأرد القوم عنك.

فلما رأته الظعينة صرخت فقالت: هلكتم وأهلكتم، ماذا جرّ علينا قومنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعة بن مكدم رمحه يوم الظعينة،ثم ألقت عليه ثوبها وقالت: يا آل فراس أنا جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي، فسألوه من هو؟. فقال: أنا دريد بن الصمة فمن صاحبي؟. قالوا :ربيعة بن مكدم قال: فما فعل؟. قالوا: قتله بنو سليم، قال : فمن الظعينة التي كانت معه؟. قالت المرأة: ريطة بنت جذل الطعان، وأنا هي امرأته، فتشاور القوم في أمر دريد بن الصمة، وأجمع رأيهم على فكّ أسره وإكرامه ،فالخير بالخير والبادي أكرم، كما أن الشر بالشر والبادي أظلم، وقالوا: لا ينبغي أن تكفر نعمة دريد على صاحبنا، وقال بعضهم: والله لا يخرج من أيدينا إلا برضاء المخارق الذي أسره وانبعثت

المرأة في الليل فقالت:

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمة وكل فتى يجزى بما كان قدما
فإن كان خيراً كان خيراً جزاؤه وإن كان شراً كان شراً مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة بإعطائه الرمح السديد المقوما
فقد أدركت كفاه فينا جزاءه وأهل بأن يجزى الذي كان أنعما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما
فلو كان حياً لم يطق بثوابه ذراعاً غنيًّا كان أو كان معدما
ففكوا دريداً من إسار مخارق ولا تجعلوا البؤسى إلى الشر سلما

فأصبح القوم، فتعاونوا بينهم، فأطلقوه وكسته الظعينة ريطة بنت جذل الطعان وجهزته أحسن تجهيز، فلحق بقومه، وكف عن غزوهم حتى هلك، وقال الشاعر في المعنى:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطال ما استعبد الإنسان إحسان

وقال عبد الله بن جذل الطعان أبو ريطة، واسمه بلقاء يرثي ربيعة بن مكدم:

خلي عليّ ربيعة بن مكدم حزناً يكاد له الفؤاد يؤول
فإذا ذكرت ربيعة بن مكدم ظلت لذكراه الدموع تسيل
نعم الفتى حياً وفارس بهمة يردي بشكته أقب ذؤول
سقت الغوادي بالكديد رمة والناس إما هالك وقتيل
فإذا لقيت ربيعة بن مكدم فعلى ربيعة من يداه قبول
كيف العزاء ولا تزال خريدة تبكي ربيعة غادة عطبول؟!
يأبى لي الله المذلة إنما يعطى المذلة عاجز تنبيل

الباب الثالث

في معرفة الرجال

الرجال ثلاثة:

وقد قسم بعضهم الرجال إلى ثلاثة أقسام: فارس وشجاع وبطل، فالفارس الذي إذا شدوا شد بحزم وعزم، والشجاع هو الداعي إلى المبارزة والمجيب إذا دعي إليها، والبطل الحامي لحمى القوم، والحامي لظهورهم إذا انهزموا.

وقد أمر الله بالإقدام، وحذر من الإحجام، وحث على الثبات والملاقاة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [سورة الأنفال: ١٥-١٦]

وجاء في وصية خليفة رسول الله ﷺ، أبي بكر الصديق ﷺ، لخالد بن الوليد سيف الله المسلول، لما وجهَهُ لقتال المرتدين، قال له: إحرص على الموت توهب لك الحياة.

وهذا أكثم بن صيفي بن رياح بن حارث التميمي، حكيم العرب في الجاهلية وأحد المعمرين المتوفى حوالي عام ٩هجرية، خرج من بلده في مئة من قومه قاصداً المدينة المنورة، يريدون الإسلام، فمات في الطريق، وأسلم قومه، وقيل: إنه المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

كانت وصية أكثم بن صيفي لقومه، إذا أرادوا حرباً قال لهم: اقلوا الخلاف لأمرائكم، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، والمرء يعجز لا محالة، وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل.

الرجال في رأي المهلب:

وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية، وأحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبية مصعب بن الزبير بن العوام الأسدي القريشي أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال، في صدر الإسلام، فكان عضد أخيه عبد الله بن الزبير، ولَّاه أخوه عبد الله البصرة عام ٦٧هـ، فضبط أمورها، وقتل المختار الثقفي، ثم عزله أخوه لمدة سنة عنها، ثم أعاده إليها أواخر سنة٦٨هـ، وأضاف إليه الكوفة، فأحسن

سياستهما، وتجرد عبد الملك بن مروان لقتاله، فسيَّر إليه الجيوش الجرارة، فكان مصعب يفلها واحداً واحداً.

فلما رأى عبد الملك انهزام جيوشه، خرج بنفسه إليه، فلما دخل العراق خذل مصعباً قادةُ جيشه فثبت مصعب فيمن بقي معه، فأرسل إليه عبد الملك أخاه محمد بن مروان فعرض عليه الأمان وولاية العراقين، مادام حياً، ومليوني درهم صلة على أن يرجع عن القتال، فأبى مصعب ذلك، فدفع عليه جيش عبد الملك في وقعة عند دير الجاثليق ـ على شاطىء دجيل ـ وطعنه زائدة بن قيس السعدي فقتله، وحمل رأسه إلى عبد الملك بن مروان، وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى أمراء الشام.

وكان مصعب بن الزبير، أحب أمراء العراق إلى أهل العراق، يعطيهم عطاءين، عطاء للشتاء، وعطاء للصيف،وكان يشتد في موضع الشدة، ويلين في موضع اللين، هذا هو أحد الشجعان الأبطال الثلاثة الذين كان يضرب بهم المثل المهلب بن أبي صفرة، وهو من هو شجاعة وإقداماً.

والثاني : أحمر قريش : عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي، كان سيد بني تيم في عصر الإسلام، ومن كبار القادة الشجعان الأجواد، كان من رجال مصعب بن الزبير أيام ولايته في العراق، وولي له بلاد فارس، وحرب الأزارقة عام ٦٨هـ وكان قبل ذلك على البصرة.

وأرسله عبد الملك بن مروان لقتال أبي فديك سنة ٧٣ هـ فقتل من أصحابه نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة، وعاد بعد ذلك إلى عبد الملك فكان من جلسائه.

فوصفه قطري بن الفجاءة بقوله : بطل يقاتل لدينه وملكه بعزيمة، لم أر مثلها لأحد قط، وما حضر حرباً إلا كان أول فارس يقتل قرنه، هذا هو البطل الشجاع الثاني في رأي المهلب بن أبي صفرة.

والثالث: هو عباد بن الحصين بن يزيد التميمي أبو جهضم ، فارس تميم في عصره، ولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب بن الزبير أيام قتل المختار، وشهد فتح كابل مع عبد الله بن عامر.

إن مواقف الرجال الأبطال الشجعان تحيي النفوس، وتشوق الطموحين للتأسي بهم والاقتداء.

شهادة أبي بكر الصديق لطلحة:

وكان أبو بكر الصديق ﷺ، إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك يوم كله لطلحة بن عبيد الله، وذلك أنه ثبت مع رسول الله ﷺ، حين تفرق عنه أصحابه، فأصيبت يده فشُلَّت، وكان يقي بها وجه رسول الله ﷺ،وأصابته بضع وسبعون من ضربة وطعنة ورمية.

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان التميمي القريشي، أبو محمد، يعتبر من الشجعان الأجواد الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والإقدام والثبات والجود، والسخاء والكرم، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة،وأحد الستة أصحاب الشورى الذين عيَّنهم عمر بن الخطاب لاختيار أمير المؤمنين.

وقال ابن عساكر: كان طلحة بن عبيد الله، من دهاة قريش ومن علمائهم، وكان يقال له ولأبي بكر الصديق: القرينان، وذلك لأن نوفل بن الحارث، وكان أشد قريش رأى طلحة وقد أسلم خارجاً مع أبي بكر من عند النبي ﷺ، فأمسكهما وشدهما في حبل، ويقال له : طلحة الجود وطلحة الخير، وطلحة الفياض، وقد لقبه بذلك كله رسول الله ﷺ في مناسبات مختلفة، ودعاه مرة (الصبيح المليح الفصيح).

وكانت له تجارة وافرة مع العراق، ولم يكن يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته وعياله، ووفَّى دينه، قتل يوم الجمل وهو مع أم المؤمنين عائشة ابنة أبي بكر الصديق ﷺ، ودفن في البصرة عام ٣٦ هجرية وعمره حوالي ٦٤ عاماً، رَحِمَهُ اللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.

ليست الأمور بالمظاهر:

ويروى أن الإسكندر استعرض جنده، فتقدم إليه رجل على فرس أعرج، فأمر بإسقاطه وإبعاده، فضحك الرجل من تصرف الإسكندر، فاستعظم ضحكه في ذلك المقام، فقال له: ما أضحكك وقد أسقطتك ؟.

قال الرجل: تحتك آلة الهرب ، وتحتي آلة الثبات ثم تسقطني ؟ فأعجب الإسكندر بقوله فأثبته:

وقسم معن بن زائدة بن عبد الله الشيباني سلاحاً في جيشه، فدفع إلى رجل منهم سيفاً رديئاً، فقال له الرجل: أصلح الله الأمير أعطني غيره ، قال له معن : خذه فإنه مأمور، فقال الرجل هو مما أمر أن لا يقطع أبداً، فضحك معن وأعطاه سيفاً غيره .

وقال الشاعر:

عشرون ألف فتى ما منهم أحد إلا كألــــف فتى مقدامة بطـل
راحت مزاودهم مملـوءة أمـــلاً ففرغوها وأوكوها من الأجـــل

ملك الفرس بعد يزدجرد:

ويقال ملكت الفرس بعد يزدجرد رجلاً، ليس من آل ساسان، وآل ساسان هم بنو ساسان الأصغر، وهو جد الأسرة الساسانية، وكانوا ملوك الطبقة الرابعة من الفرس، وهم أولاد بابك بن ساسان، وقد ملك الفرس بعد يزدجرد الأثيم هذا الرجل من عقب أردشير بن بابك هو كسرى.

لما رأوا من ظلم يزد جرد وعسفه، ملكوا (فنهد بهرا م جور)، وكان في حجر النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وهو النعمان الثالث بن المنذر الرابع ابن المنذر اللخمي، أبو قابوس و كان من أشهر ملوك الحيرة في الجاهلية، وكان داهية مقداماً شجاعاً، وهو الذي مدحه النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت الأنصاري، وحاتم الطائي.

وهو صاحب إيفاد العرب إلى كسرى، وباني مدينة (النعمانية) على ضفة دجلة، وهو صاحب يومي البؤس والنعيم، وهو قاتل عبيد بن الأبرص الشاعر في يو م بؤسه، وكان مُلْكُ الحيرة إرثاً عن أبيه.

تركه والده في حجر النعمان بن المنذر ليتعلم لغات العرب وأخبارها، وآدابها ولطلب المملكة، وقال أبوه: اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما التاج، فمن أخذه فهو المَلك، ففعلوا ذلك ، فدنا منهما فأهويا نحوه فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعاً، وشدّ على التاج، فأخذه ووضعه على رأسه فملَّكته الفرس عليها.

صراحة رجل من اليمن:

المواقف تظهر جواهر الرجال، قال طاووس بن كيسان التابعي المشهور: ما شفاني أحد من الحجاج بن يوسف الثقفي، مثل ما شفاني يمني، قال له الحجاج وهو يطوف: يا يمني كيف خلفت محمد بن يوسف؟.

قال الرجل اليماني: تركته عظيماً سميناً، قال الحجاج: لست عن السمن أسألك، ولكن عن عدله في رعيته؟.

قال الرجل: خلفته ظلوماً غشوماً، قال الحجاج: كيف ألا تشكوه إلى من هو فوقه؟ قال الرجل: إنك والله شر منه، قال الحجاج: أتعرفني؟ قال الرجل: نعم أنت الحجاج بن يوسف الثقفي، قال الحجاج: تعرف مكانه مني؟ قال الرجل نعم: هو أخوك.

قال الحجاج: فلم لم يمنعك ذلك أن قلت ما قلت؟، قال الرجل : أترى مكان الله أهون عندي من مكانك؟.

قال الحجاج: أي العرب خير؟ قال الرجل: بنو هاشم، قال الحجاج: لم؟ قال الرجل لأن رسول الله ﷺ منهم. قال الحجاج: وأي العرب شر؟ قال الرجل: ثقيف، قال الحجاج: لم؟ قال الرجل: لأن الحجاج منهم.

فدعا الحجاج بعشرة آلاف درهم فأعطاه، ثم قال: يا طاووس هذا رجل لا تأخذه في الله لومة لائم، هكذا تكون الشجاعة ،وذلك موقف الشجعان من الرجال، والشجاعة لا تقدم أجلاً لم يحن وقته، ولا يؤخر الجبن أجلا إذا حان وقته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأعراف: ٣٤].

عمرو بن معديكرب مع رسول الله:

ويروى أن رسول الله ﷺ، عندما أقبل من غزوة تبوك منتصراً، يريد المدينة المنورة، أدركه عمرو بن معد يكرب الزبيدي في رجال من زبيد،فتقدم عمرو ليلحق برسول الله ﷺ، فأمسك حتى أذن به، فلما تقدم رسول الله ﷺ، يسير إلى عمرو قال عمرو: حياك الله إلهك: أبيت اللعن، وهي عبارة كانت العرب تستعملها في الجاهلية في الدعاء والتحية لملوكها، أي مبرأ أن تأتي بشيء تستوجب به اللعنة أو تستوجب به اللعن.

فقال له الرسول ﷺ: «**إن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين على الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فآمن بالله يؤمنك يوم الفزع الأكبر**». فقال عمرو: وما الفزع الأكبر؟.

قال رسـول الله ﷺ: «**إنه فزع ليس كما تحسب وتظن أنه يصاح بالناس صيحة لا يبقى حي إلا مات، إلا ما شاء الله من ذلك، ثم يصاح بالناس صيحة لا يبقى ميت إلا نشر، ثم تلج تلك الأرض بدوي تنهدّ منه الأرض وتخرّ مـنه الجبال، وتتشقّق السماء انشقاق القبطية الجديدة(ثياب مصرية) ما شـاء الله في ذلك، ثم تبرز النار فـينظر إليها حمرا مظلمة قد صار لها لسان في السماء، ترمي بمثل رؤوس الجبال من شرر النار، فلا يبقى ذو روح إلاّ انخلع، وذكـر ذنبه، أين أنت يا عمرو؟**».

قال عـمرو: إني أسمع أمراً عـظيماً، فقال رسـول الله ﷺ: «**يا عـمرو أسلم تسـلم**»، فأسلم عمرو وبايع لقومه على الإسلام، وكان ذلك في سنة تسع للهجرة ا لنبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

كتاب الله يحثّ على الجهاد:

وقـد حـذر الله في كتابه العزيز، من اعتماد القـول دون العـمل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سورة الصف: ٢-٣].

وكـذلك حـثّ الإسلام على الشجاعة والإقدام، بغير تهور، وأوصى القرآن الكريم بذلك في آيات كثيرة، فمنها قوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [سورة الأنفال: ٤٥-٤٦].

فـقـد جمع الله في الآيتين السابقتين، جميع ما يحتاج إليه الإنسان، في الحرب من الشجاعة والتخطيط، وأخذ العيون لمعرفة ما عند العدو من القوة والعدة والعتاد، فتلك هي عماد وطريق النجاح، ومن فَقَدَهَا فَقَدَ الطريق الموصل إلى برّ الأمان.

الرسول يتعوّذ من الجبن:

وبالمقابل فالعرب يمقتون الجبن، ويزدرون الجبناء، وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يستعيذ من الجبن، فقال في دعائه: «**اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**».

نعوذ بالله مما استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال الشاعر في وصف الجبان:

إذا صوت العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائد

ثمن الغرور:

ويحكى عن ملك الحيرة في الجاهلية، عمرو بن هند، قال يوماً لجلسائه: هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟.

قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإن أمه ليلى بنت مهلهل ابن ربيعة، وعمها كليب، وزوجها كلثوم بن مالك بن عتاب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه.

فسكت عمرو بن هند، الذي عرف بنسبته إلى أمه هند، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويأمره أن تزور أمه ليلى بنت مهلهل أمه هند بنت الحارث.

فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب، ومعه أمه ليلى بنت مهلهل، فنزل على شاطىء الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، وصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ـ السرادق ـ هو الفسطاط الذي يمد فوق صحن البيت، وجلس هو وعمرو بن كلثوم، وخواص أصحابه في السرادق.

وليلى أم عمرو بن كلثوم مع هند بنت الحارث، أم الملك عمرو بن هند في قبة نصبت لهما، وقال الملك لأمه هند، إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحي خدمك عنك، واستخدمي ليلى بنت مهلهل ومريها لتناولك الشيء بعد الشيء.

ففعلت أم الملك عمرو بن هند، ما أمرها به ابنها الملك، فلما استدعى الطرف، قالت هند بنت الحارث لليلى: ناوليني ذلك الطبق، قالت ليلى بنت مهلهل: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فألحت عليها هند، فقالت ليلى بنت مهلهل: واذلاه، يا آل تغلب.

فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، والقوم يشربون، فعرف الملك عمرو بن هند الشرّ في وجهه، فثار عمرو بن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق بالسرادق، وليس هناك سيف غيره، فأخذه ثم ضرب به رأس الملك عمرو ابن هند فقتله، وخرج فنادى: يا آل تغلب فانتهبوا ماله وخيله، وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة.

وها هو ذا عمرو بن كلثوم يفتخر ويذكر موقفه، ملبياً دعوة أمه واستغاثتها دفاعاً عن شرفها وشرف مجدها ومجد آبائه وأجداده، وقومه حيث يقول:

بأي مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟!
بأي مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلكم فيها قطينا؟!
تهددنا وتوعدنا رويداً	متى كنا لأمك مقتوينا؟!
فإن قناتنا يا عمرو! أعيت	على الأعداء قبلك أن تلينا
ورثنا مجد علقمة بن سيف	أباح لنا حصون المجد دينا
ورثت مهلهلاً والخير منه	زهير نعم ذخر الذاخرينا
وعتَّاباً وكلثوماً جميعاً	بهم نلنا تراث الأكرمينا
ونحن الحاكمون إذا أطعنا	ونحن العازمون إذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا	ونحن الآخذون إذا غضبنا
وكنا الأيمنين إذا التقينا	وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم	وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا	وأُبنا بالملوك مصفّدينا

إنها ملحمة تدل على الشجاعة والأنفة، والدفاع عن النفس، ولد سمع صوت أمه يدل على الإهانة، فلم يرض بذلك، وممن تهان؟ من أم ملك ظن ولدها الملك أنها أعز أم في العرب في زمانها، أين نحن اليوم من عدم طاعة الوالدين، وقد

حثّ الإسلام على طاعة الوالدين، اقرأ معي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الإسراء: ٢٣-٢٤] .

عاقبة الغدر:

ويروى أن الرسول ﷺ في العام الثامن للهجرة النبوية جهز جيشاً للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى أمير بصرى، داعياً إلى الإسلام.

وقيل: إن الرسول ﷺ، أرسل سرية إلى ذات الطلح على حدود الشام يدعون إلى الإسلام، فكان جزاؤهم القتل، لم ينج منهم إلا رئيسهم بعد أن ظنوا أنه مات.

وأمّر على الجيش زيد بن حارثة، وقال: (إن قتل زيد فجعفر بن أبي طالب، وإن قتل جعفر فعبد الله بن روا حة).

وسار الجيش وقد بلغ عدده ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار، بعد أن ودعهم المسلمون قائلين لهم: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا سالمين غانمين.

وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، ويوصيهم قائلاً: (اغزوا باسم الله، قاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ، ولا شيخاً فانياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء).

ثم مضى الجيش في سبيل الله حتى وصلوا (معانا) من أرض الشام، فبلغهم أن هرقل قد نزل (مآب) في أرض الشام، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من متنصرة العرب.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يتدبرون الأمر، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، أو أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فقال الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم من أجلها، تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما

نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة.

من مواقف الإيمان:

فتشجع الناس وقالوا: صدق ابن رواحة، وسار الجيش الإسلامي تحدوه الرغبة في إعزاز دين الله، وحب الشهادة حتى التقى ثلاثة آلاف مؤمن بمائتي ألف كافر، التقى الجمعان غير متكافئين عدداً وعدة، وقاتل المسلمون قتال الأبطال الشجعان، لم ترهبهم قوة الأعداء، فقاتل زيد بن حارثة حامل لواء المسلمين حتى قتل شهيدا في سبيل الله، فولي القيادة بعده حسب أوامر الرسول ﷺ جعفر بن أبي طالب، وحمل اللواء، وكان على فرس له شقراء، فنزل عنها وعقرها وتقدم يقاتل في سبيل الله، حاملاً اللواء وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعدة أنسابها
عليّ إن لاقيتها ضرا بها

وكان جعفر يحمل اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه، متقدماً صفوف المشركين حتى قتل، فاستشهد رضي الله عنه، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، بعد أن خط في كتاب البطولة والشجاعة الإسلامية سطوراً مشرقة، فكان جزاؤه من ربه أن أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء.

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، تسلم الراية عبد الله بن رواحة، فتقدم بها يخترق صفوف الروم، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد وهو يرتجز:

أقسمت بالله يا نفس لتنزلنه لتنزلنه أو لتكرهنه
إن أقبل الناس وشدوا الرنه ما لي أراكِ تكرهين الجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنه هل أنت إلا نطفة في شنه

ويقول أيضاً:

يـا نفـس إلا تقتلـي تـمـوتـي هـذا حمام المـوت قـد صليت
ومـا تمنيـت لـقـد أعطيـت إن تفعلي فعلهمـا هـديـت

وما زال يتقدم باللواء ويقاتل حتى قتل شهيداً رضي الله عنه.

بزوغ نجم خالد بن الوليد:

ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد المخزومي.

فلما أخذ خالد الراية قاتل قتال الأبطال الشجعان، حتى تكسرت في يده تسعة أسياف ما نفعته إلا صحيفة يمانية، ثم استعمل دهاءه وحنكته الحربية، فانحاز بالجيش جانباً، وأنقذه من الهزيمة، وكان الليل قد أرخى سدوله، فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة، وغير نظام الجيش فجعل المقدمة ساقة والساقة مقدمة، والميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، وصفَّ صفاً طويلاً وراء الجيش.

فلما أصبح الصباح، وتقابل الجيشان أنكر الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئاتهم، وسمعوا من الجلبة وقعقعة السلاح ما جعلهم يظنون أن مدداً وصل المسلمين، فرعبوا وانكشفوا، ومازال خالد يحاورهم ويداورهم والمسلمون يقاتلونهم في أثناء انسحابهم حتى خاف الروم، فتحاجز الفريقان وانقطع الرجال.

وقد أبلى المؤمنون الشجعان بلاء حسناً، في ذلك اليوم، وبفضل شجاعتهم وثباتهم تبدلت هزيمتهم نصراً، وكيف لا يكون نصر وقد صمد جيش المسلمين الثلاثة آلاف أمام جيش تعداده مائتا ألف؟، وانسحابهم وهو موفور العدد والعدة محفوظو الكرامة، وإنه لشيء نادر في تأريخ الحروب أن يقف رجل واحد أمام سبعين من الجنود المدججين بالسلاح، ولكنه الإيمان الذي يجعل الجبان شجاعاً، ولعل مما يثير العجب أن جميع من استشهد من الجيش الإسلامي في معركة مؤتة لا يزيد عن اثني عشر شهيداً.

الرسول ينعى أمراء معركة مؤتة:

ولقد أطلع الله رسوله على ما جرى في معركة مؤتة، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: (أخذ الراية زيد بن ثابت، فأصيب فأخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان الدموع ـ ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)، ومن يومها عرف خالد بن الوليد بسيف الله المسلول.

ولما رجع خالد بن الوليد بالجيش إلى المدينة المنورة، استقبلهم أهل المدينة بقولهم: الفرّارون، ولكن الرسول الكريم ﷺ أعلم بالقوم وما كابدوه من المشقة، فقال: (بل هم الكرّارون إن شاء الله).

الباب الرابع

الشعر ديوان العرب

أشعر الناس:

يحكى أن المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، صاحب المفضليات والأمثال، ومعاني الشعر، سئل عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر؟. قال: أشعرهما الفرزدق، قيل له:ولم؟. قال : لأن الفرزدق قال بيتا هجا فيه قبيلتين، ومدح فيه قبيلتين وأحسن في ذلك حيث قال:

عجبت لعجل إذ تهاجى عبيدها كمـا آل يربوع هجوا آل دارم

فقيل له :لقد قال جرير:

إن الفـرزدق والبعـيث وأمـه وأبـا البعيث لشر مـا استـار

فقال المفضل الضبي : وأي شيء أهون من أن يقول إنسان: فلان وفلان،وفلان، والناس كلهم بنو الفاعلة؟.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثني: كان الشعراء في الجاهلية من قيس،وليس في الإسلام مثل حظ تميم في الشعر، وأشعر تميم جرير والفرزدق ومن بني تغلب الأخطل.

وأبو عبيدة معمر بن المثني التميمي بالولاء، يعدّ من أئمة العلم بالأدب واللغة،ووصفه الجاحظ بقوله: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وكان إباضيّاً من حفاظ الحديث، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من مائتي مؤلف، ومن أشهرها مجاز القرآن في مجلدين، ولد أبو عبيدة معمر بن المثني في البصرة ، وتوفي فيها وله من العمر تسعة وتسعون عاماً.

وقال يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن،وكان إما النحاة في عصره بالبصرة: ما ذكر جرير والفرزدق في مجلس شهدته قط فاتفق المجلس على تقديم أحدهما على الآخر، وكان يونس بن حبيب يميل إلى تفضيل الفرزدق.

ومما يحكى أن الفرزدق همام بن غالب مرَّ بأبي ميادة الرماح بن أبرد الذبياني ينشد، وحوله الناس قائلاً:

لـو آن جميع النـاس كانوا بربوة وجـئت بجدي ظالم وابن ظـالم

لظلت رقـاب الناس خاضعة لنا سـجوداً على أقـدامـنا بالجماجم

فسمعه الفرزدق، فقال له: أما والله، يا ابن الفارسية لتدعنه لي أو لأنبشن أمك من قبرها، فقال له ابن ميادة: خذه لا بارك الله لك فيه، فقال الفرزدق:

لو أنّ جميع الناس كانوا بربوة وجئت بجدي دارم وابن دارم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا سجوداً على أقدامنا بالجماجم

ويروى أن جريراً والفرزدق، دخلا على أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك، وعنده بنية له يشمها، فقال جرير: ما هذه يا أمير المؤمنين عندك؟.

فقال أمير المؤمنين: بنية لي، قال جرير: بارك الله لأمير المؤمنين فيها، فقال الفرزدق: إن يكن دارم يضرب فيها فهي أكرم العرب،أي إذا كان لها نسب يصلها بدارم.

ثم أقبل يزيد بن عبد الملك على جرير، فقال: يا جرير: ما لك والفرزدق؟ قال جرير: إنه يا أمير المؤمنين يظلمني، ويبغي عليّ، فقال الفرزدق: يا أمير المؤمنين وجدت آبائي يظلمون آباءه، فسرت فيه بسيرتهم.

قال جرير: أمَا والله لتردنّ الكبائر على أسافلها سائر اليوم، فقال الفرزدق: أما بك يا حمار بني كلاب فلا، ولكن إن شاء صاحب السرير فلا والله، ما لي كفء غيره، فجعل يزيد بن عبد الملك يضحك معجباً بقول الفرزدق فيه.

أصدق كلمة قالها شاعر:

يقال في الخبر: إن أصدق بيت قالته العرب،هو بيت الشاعرالمخضرم لبيد بن ربيعة بن مالك العامري، حيث قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

والبيت من قصيدة عدد أبياتها أكثر من خمسين بيتاً قالها لبيد في رثاء ملك الحيرة النعما ن بن المنذر، وأولها:

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
حبائله مبثوثة في سبيله ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه قضى عملاً والمرء ما عاش عامل

فقولا لـه إن كان يقسم أمره ... ألمّا يعظك الدهر أمك ها بل
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ... ولا أنت مما تحذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقياً ... ودون معدّ فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... بلى كل ذي رأي إلى الله واسل
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم ... دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الإله الخصائل

وفي صحيحي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد**»: «**ألا كل شيء ما خلا الله باطل**». وفي رواية لهما: «**أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كل شيء ماخلا الله باطل**».

وقد روى أبو إسحاق في مغازيه، أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه، مر بمجلس من مجالس قريش في صدر الإسلام، ولبيد بن ربيعة رضي الله عنه ينشدهم قوله: (ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل). فقال عثمان : كذبت، نعيم الجنة لا يزول أبداً، فقال لبيد: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟.

فقال رجل من قريش: إن هذا سفيه من سفهائنا ، قد فارق ديننا ، فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عثمان، فخضرها ، فقال الوليد بن المغيرة لعثمان :

إن كانت عينك لغنية عما أصابها، لم رددت جواري؟ وكان عثمان في جوار الوليد بن المغيرة، فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة لمثل ما أصاب أختها في الله ، لا حاجة لي في جوارك.

فواصل لبيد قصيدته في رثاء الملك النعمان بن المنذر ملك الحيرة:

ليبك على النعمان شرب وقينة ... ومختبطات كالسعالى أرامل
فأمسى كأحلام النيام نعيمهم ... وأي نعيم خلته لا يزايل

أعجوبة الزمان حماد الراوية:

وحكى حماد الراوية، قال: أنشدني الفرزدق يوماً شعراً له، ثم قال لي: أتيت الكلب (يعني جريراً) قلت: نعم، قال: أفأنا أشعر أم هو؟ قلت: أنت في بعض، وهو في بعض، قال: لم تناصحني، قال: قلت :هو أشعر منك إذا أرخي من خناقه، أي إذا ترك على سجيته، وأعطي حرية الكلام.

وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت، قال: قد قضيت لي والله عليه، وهل الشعر إلا في الخير والشر.

وحماد الراوية من غرائب الزمان،هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، هو أول من لقب بالراوية، وكان من أعلم الناس بأيام العرب،وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، وأصله من الديلم، ومولده في الكوفة، جال في البادية ورحل إلى الشام، وتقدم عند بني أمية، فكانوا يستزيرونه أي يطلبون زيارته، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته.

وهوالذي جمع السبع الطوال المعروفة بالمعلقات، قال له الوليد بن يزيد الأموي: بم استحققت لقب الراوية؟ قال: لأني يا أمير المؤمنين، أروي لكل شاعر تعرفه أو سمعت به، ثم إني لا ينشدني أحد شعراً قديماً أو محدثاً إلا ميزت القديم من الحديث، قال: فكم مقدار ما تحفظ من الشعر؟. قال حماد: كثير ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات. قال الوليد: سأمتحنك في هذا، ثم أمره أمير المؤمنين بالإنشاد: فأنشد حتى ضجر الوليد بن عبد الملك، فوكل به من يثق بصدقه، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة، فأخبر الوليد بذلك، فأمر له بمائة ألف درهم.

وكان يوصف حماد بالراوية بعدم المبالاة في أمر الدين، فوصفه أحد الشعراء بقوله:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه ... أو حين وقت صلاته حماد

ضمت مشا فره الشمول فأنفه ... مثل القدوم يسنها الحداد

وأبيضَّ من شرب المدامة وجهه ... فبياضه يوم الحساب سواد

أمير المؤمنين هشام يطلب حماد الراوية:

وروى أحمد بن عبيد عن حماد أنه قال: كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك، فكان هشام بن عبد الملك يجفوني لذلك، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام جفاني، فخفته ومكثت في بيتي سنة كاملة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سراً، فلمَّا لم أسمع أحداً يذكرني أمنت وخرجت فصليت الجمعة، ثم جلست عند باب الفيل، فإذا شرطيان قد وقفا علي فقالا لي: يا حماد: أجب الأمير يوسف بن عمر،فقلت في نفسي: هذا ما كنت أحذر، فصرت إليه فرمى كتاباً إلي فيه: من عبد الله هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر:

أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسيرعليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق.

فأخذتها وركبته، وسرت حتى وافيت باب هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين، فاستأذنت في الدخول إليه، فأذن لي فدخلت عليه، في دار مفروشة بالرخام، وبين كل رخامتين قضيب ذهب، وحيطانها كذلك، وهشام جالس وعليه ثياب خز حمر، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر، وبين يديه مسك مبثوث في أواني الذهب يقلبه بيده، فتفوح روائحه.

فسلمت عليه، فرد عليّ السلام، واستدناني فدنوت حتى قبَّلت رجله، فإذا جاريتان لم أر مثلهما، في أذن كل واحدة منهما حلقتان فيهما لؤلؤتان توقدان، فقال لي: كيف أنت يا حماد،وكيف حالك؟.

قلت: بخير يا أمير المؤمنين،قال: أتدري فيما بعثت إليك؟. قلت: لا. قال: بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر من قاله؟. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

فدعت بالصبوح يوماً فجاءت ... قينة في يمينها إبريق

قلت: يا أميرالمؤمنين، قائل هذا البيت هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادي التميمي، من قصيدة له. قال هشام: أنشدنيها، فأنشدتها:

بكر العاذلون في فلق الصبح يقولون لي ألا تستفيق

ويلومون فيك يا ابنة عبد الله والقلب عندكم موثوق

لست أدري إذ أكثروا العذل عندي ... أعدو يلومني أم صديق

زانهـا حسنها وفـرع عمـيم وأثيث صلت الجبين أنيق
وثنايا مفلجات عذاب لا قصاراً ترى ولا هن روق
فدعت بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق
فدعته على عقار كعين الدِّيك صفي سلا فها الرووق
ثم كان المزاج ماء غمام غير آجن ولا مطروق

قال: فطرب هشام وقال: أحسنت والله يا حماد، سلني حوائجك، فقلت: يا أمير المؤمنين، كائنة ما كانت؟ قال: نعم. قلت: إحدى الجاريتين. قال: هما معا وبما عليهما، ومالهما لك،فوهبهما لي، وأنزلني في داره، ثم أمر بنقلي من غد إلى منزل أعد لي، فانتقلت إليه، فوجدت فيه الجاريتين،ومالهما، وكل ما يحتاج إليه فأقمت عنده مدة فوصلني منه مائة ألف درهم.

نصيحة شاعر:

يحكى أن لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي - الشاعر الجاهلي - من أهل الحيرة ـ كان يحسن الفارسية، واتصل بكسرى ـ سا بور ـ ذي الأكتاف، فكان من كتَّابه، والمطَّلعين على أسرار دولته، ومن مقدمي تراجمته.

رأى شيئاً من كسرى غير عادي، ورآه يعد العدة لغزو قبيلته، قبيلة إياد، والسبب أن قومه بني إياد، كانوا يغيرون على ما يليهم من أرض السواد، ويغزون ملوك آل نصر، حتى أصابوا امرأة من أشراف العجم، كانت عروساً قد زفت إلى زوجها،فولي ذلك منها سفهاؤهم ، وأحداثهم، فسار إليهم من كان يليهم من الفرس، فانحازت إياد إلى العراق، وجعلوا يعبرون إبلهم في السفن المعروفة لديهم بالقراقير، ويقطعون بها الفرات،وجعل زاجرهم يقول:

بئس مناخ الحلقات الدهم في ساحة القرقور وسط اليم

وعبر الفرات وتبعهم الفرس ، فقالت كاهنة من إياد تسجع لهم:

إن يقتلوا منكم غلاماً دما أو يأخذوا ذلك شيخاً هما
تخضبوا نحورهم دما وترووا منهم سيوفاً ظلما

فخرج منهم غلام يقال له ثواب بن محجن، بإبل لأبيه فلقيه الفرس فقتلوه، وأخذوا الإبل، ولقيتهم إياد في آخر النهار فهزمت الفرس.

ثم إن إياداً بيتت جمع الفرس حين عبروا شاطىء الفرات الغربي، فلم يفلت منهم إلا القليل، وجمعوا به جماجمهم وأجسادهم فصارت كالتل العظيم، وكان إلى جانبهم دير، فتسمّى بعد ذلك بدير الجماجم، تخليداً لتلك الحادثة.

وبلغ الخبر كسرى، فبعث مالك بن حارثة ووجه معه أربعة آلاف من الأساورة، فكتب لقيط بن يعمر الإيادي إلى قومه، قصيدة يخبرهم بذلك، ويحرّضهم على القتال جاء فيها:

يا دار عمرة من محتلها الجزعا — هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم — أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً — على نسائكم كسرى وما جمعا

هو الجلاء الذي تبقى مذلته — إن طار طائركم يوماً وإن وقعا

هو الفناء الذي يجتث أصلكم — فليس مَنْ قد رأى رأياً كمن سمعا

يا لهف نفسيَ إن كانت أموركم — شتّى وأحكم أمر الناس فاجّمعا

ألا تخافون قوماً لا أبا لكم — أمسوا إليكم كأمثال الدبا سرعا

لو أن جمعهم راموا بهدته — شم الشماريخ من ثهلان لانصدعا

في كل يوم يسنون الحراب لكم — لا يهجعون إذا ما غافل هجعا

وتلبسون ثياب الأمن ضاحية — لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا

ما لي أراكم نياماً في بلهنية — وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

صونوا جياد كم وأجلوا سيوفكم — وجددوا للقسي النبل والشرعا

فقلدوا أمركم لله درّكم — رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده — ولا إذا حل مكروه به خشعا

لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه — هم يكاد حشاه يقطع الضلعا

مسهد النوم تعنيه ثغوركم — يروم منها إلى الأعداء مطلعا

ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره — يكون متبعاً طوراً ومتبعا

فليس يشغله مال يثمره — عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

حتى استمرت على شزر مريرته ... مستحكم السن لا قحماً ولا ضرعا
كمالك بن قنان أو كصاحبه ... زيد القنا حين لاقى الحارثين معا
إذ عابه عائب يوماً فقال له ... دمث لجنبك قبل الليل مضطجعا
فساوروه فألفوه أخا علل ... في الحرب يختتل الرئبال والسبعا
عبل الذراع أبيًّا ذا مزابنة ... في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعا
مستنجداً يتحدّى الناس كلهم ... لو صارعوه جميعاً في الورى صرعا
لا يثمر المال للأعداء إنهم ... إن يظهروا يحتووكم والتلاد معا
ماذا يرد عليكم عز دولتكم ... إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
هذا كتابي إليكم والنذير لكم ... لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل ... فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

ولقد محض الشاعر قومه النصح، لما رأى تحرك كسرى لغزو قومه، ورغم ذلك فإن إياداً لم تعر لنصيحة لقيط أذناً صاغية، ظناً منها أن كسرى لا يمكن أن يغزوهم، فلم يستعد قوم إياد لذلك، ورسالة لقيط لقومه واضحة المعالم ، لإيقاظ النائم ، وتنبيه الغافل، حيث يقول:

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد
بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يحبسكم سوق النقاد

فسار مالك بن حارثة التغلبي قائداً لجيش الفرس، فلقي إياداً على غرة منهم وغفلة ، إذ لم يلتفتوا إلى قول لقيط وتحذيره إياهم ثقة بكسرى، لا يمكن أن يقدم لحربهم، فلقيهم بالجزيرة في موضع يقال له مرج الأكم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فظفر بهم وهزمهم، وأنقذ ما كانوا أصابوا من الفرس يوم الفرات، ولحقت إياد بأطراف الشام، فأقاموا بها حتى أمنوا على أنفسهم وأهليهم وأولادهم، ثم تركوا أطراف الشام ولحقوا بقومهم ببلد الروم بناحية أنقرة، وفي ذلك يقول شاعرهم:

حلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطراد

ولقد كان لقيط بن يعمر الإيادي ناصحا لقومه، محبًّا لهم وكانت معرفته بلغة الفرس سبباً لمعرفة ما دبر ضد قومه ، وقد حذر وأنذر مخاطباً قومه:

هذا كتابي إليكم والنذير لكم   لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا

وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل   فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

نصح قومه في اختيار من يقدمونه قائداً عليهم، وأن يكون متصفاً بصفات يحتاج إليها القائد. إرجع إلى القصيدة ففيها الإشارة إلى ذلك.

بديهة الشاعر أبي تمام:

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يمدح الأمير:

إقــدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنـف في ذكاء إياس

فقال له من حضر المجلس، حسداً من عند أنفسهم لبراعته في الشعر: ما زدت أن شبهت الأمير بمن هو أقل وأدنى منه، فالأمير أعظم بمن شبهته بهم، فقال أبو تمام بعد أن سكت برهة من الزمن قصيرة:

لا تنكروا ضربي لــه من دونــه   مثلاً شروداً في النـدى والباس

فالله قــد ضرب الأقـل لنـوره   مــثـلاً من المشكـاة والنبراس

ويشير أبو تمام إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٣٥].

إنها براعة تستحق الثناء والإعجاب، فقضى بذلك على حسد الحاسدين وتفوق على المعاندين والكائدين، ونال من الأمير منزلة المقربين المبجلين، ونال الجائزة السنية لأفضل الحاضرين.

فطنة شاعر وقوته في وقت الشدة:

ومن تلك المواقف التي سجلها التأريخ ، وتناقلها الرواة جيلاً عن جيل موقف الشاعر البارع الفصيح الشجاع ، تميم بن جميل الخارجي،وحكاية ذلك أن تميماً هذا كان قد خرج على أمير المؤمنين محمد بن هارون الرشيد المعروف بالمعتصم بالله، فأسر تميم بن جميل، وأُتي به إلى المعتصم، فلما رآه المعتصم بالله أعجبه ولفت نظره مشيته وهو يُقاد إلى الموت غير مكترث بذلك ، فاستنطقه أمير المؤمنين المعتصم مختبراً عقله وفصاحته وبلاغته في ذلك الموقف الحرج، الذي يذهل قلوب الأبطال، لاسيما إذا كان له أولاد صغار ضعاف.

فقال تميم بن جميل للمعتصم رداً على قول المعتصم إذ قال له: يا تميم إن كان لك عذر فأْت به، فقال تميم: أما إذ أذن أمير المؤمنين، جبر الله به صدع الدين ولمَّ به شعث المسلمين، وأخمد شهاب الباطل، وأنار السبيل للحق المبين، فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة، وتصدع الأفئدة، أيم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا العفو أو الانتقام، وأمير المؤمنين أقرب إلى العفو منه عن الانتقام، وهو أليق شيمه الطاهرة، ثم أنشد هذه الأبيات التي صور فيها حاله، وحالة بناته الضعاف، والتي أبكت المعتصم فرقت قلبه:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرىء مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت فإنني ... لأعلم أن الموت شيء موقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ... أذود الردى عنهم وإن مت موتوا
كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

فما تمالك المعتصم بالله ، بعد أن سمع تلك الأبيات، حتى انفجر بالبكاء، فقال: إن من البيان لسحراً، كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل، وقد وهبتك لله ولصبيتك،

فأطلق سراحه، وأعطاه خمسين ألف درهم، وقال الشاعر الحكيم:

ولرب نـــازلة يضيــق بها الفتى ذرعــاً وعند الله مـنها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتـها فــرجــت وكنت أظنها لا تفرج

ومما قيل في حب الأوطان:

إن تعلق الإنسان بوطنه، سبب لعمارة الأرض واستمرار الحياة، وقد غرس الله محبة البقاع في قلوب أهلها، وقد أشار الله في كتابه العزيز إلى محبة الناس للوطن، حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [سورة النساء: ٦٦].

وقد تضطر الإنسان ظروف قاهرة للخروج من الوطن، فيسافر تحقيقاً لما تصبو إليه نفسه، وقد تختلف مشارب الناس في رغبة ترك الوطن والسفر ، فمنهم من يسافر لطلب العلم ، ومنهم من يسافر في سبيل إعلاء كلمة الله أو للجهاد في سبيله سبحانه وتعالى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة النساء: ١٠٠].

وفيما ينسب في الحثّ على السفر والتغرب عن الأوطان قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حيث قال:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تَفَرُّجُ هَمٍّ واكتساب معيشـــة وعلم وآداب وصحبة ماجـــد
فإن قيل في الأسفار هم وكربــة وتشتيت شمل وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير لـه من حياتـه بــدار هـوان بين واشٍ وحـاسـد

وقال الإمام الشافعي في الحض على السفر مبرزاً بعض فوائد السفر حيث قال:

سـافر تجـد عـوضاً عـمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
ما في المقام لـذي لب وذي أدب معزة فاترك الأوطان واغـــترب
إني رأيت وقوف الماء يفســـده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والبدر لولا أفول منه ما نظـرت إليه في كل حين عين مـرتـقـب

والأسد لولا فراق الغاب ما قنصت ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة ... لملَّها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في معادنه ... والعود في أرضه نوع من الخشب
فإن تغرب هذا عز مطلبه ... وإن أقام فلا يعلو إلى الرتب

وقال إبراهيم الغزي :

ليست بأوطانك اللائي نشأت بها ... لكن ديار الذي تهواه أوطان
خير المواطن ما للنفس فيه هوى ... سم الخياط مع الأحباب ميدان
كل الديار إذا فكرت واحدة ... مع ا لحبيب وكل الناس إخوان
أفدي الذين دنوا والهجر يبعدهم ... والنازحين وهم في القلب سكان
كنا وكانوا بأهنا العيش ثم نأوا ... كأننا قط ما كنا ولا كانوا

وقال الشاعر ابن الرومي، وقد أجاد في حب الوطن:

ولي وطن آليت أن لا أبيعه ... وأن لا أرى غيري له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة ... كنعمة قوم أصبحوا في ظلا لكا
وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنا لكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذا لكا
وقد ألفته النفس حتى كأنه ... لها جسد إن بان غودر هالكا

وقال أبو تمام مرغِّبا في السفر:

وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديبا جتيه فاْغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقال بلال بن ربا ح مؤذن رسول الله ﷺ، وهو يتفكر معاهد صباه،وقد ألم به شيء من المرض بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، في الأيام الأولى في المدينة المنورة متفكراً الوطن:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مجنة ويبدو لعيني شامة وطفيل

وقال آخر مرغباً في السفر:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله في منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر لما أن تضاءل جد في طلب الكمال فحازه متنقلا
سفها لحلمك إن رضيت بمشرب رنق ورزق الله قد ملأ الملا
فارق ترق كالسيف سل فبان في متنيه ما أخفى القراب وأخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ما الموت إلا أن تعيش مذللا

وقال آخر:

بلاد الله واسعة فضاء ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوان إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

ويروى أن أصيل بن سفيان الغفاري، قدم على رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فقال له الرسول: يا أصيل كيف عهدت مكة؟. قال: عهدتها والله قد أخصبت جنباتها، وأغدق إذخرها،وأسلب ثمامها، وأمشر سلمها، فقال له الرسول ﷺ: حسبك يا أصيل، وقد اغرورقت عينا رسول الله ﷺ.

جواب جرير عن أشعر الناس:

وقد اتفق أهل العلم بالشعر، أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها، وقيل لجرير: من أشعر الناس؟. قال: أنا لولا الخنساء، قيل بم فضلتك؟ قال بقولها:

إن الزمان ولا يفنى له عجب أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

ودخلت يوماً على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعليها صدار من شعر، فقالت لها: ما هذا؟ فو الله لقد مات رسول الله ﷺ، فلم ألبس صداراً عليه.

قالت: إن له حديثاً، قالت: وما هو؟. قالت: زوَّجني أبي سيداً من سادا ت قومي، وكان متلافاً معطاء، فأنفد ماله، وقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه فقاسمنا ماله وأعطانا خير النصفين، فأقبل زوجي يعطي ويهب حتى أنفده، ثم قال لي: إلى أين يا خنساء؟. قلت: إلى أخي صخر، فأتيناه وقاسمنا ماله وأعطانا خير النصفين إلى الثالثة.

فقالت له امرأته: أما ترضى أن تقاسمهم مالك، حتى تعطيهم خير النصفين؟ فقال:

والله لا أمنحها شرارها ولو هلكت قددت خمارها

واتخذ من شعر صدارها

وكان أخوها صخر شجاعاً كريماً جواداً، وقد رثته بمراثٍ كثيرة، تسكب في رثائه العبرات، وتقطع قلبها الحسرات،فتظهر نفثات قلبها المكلوم، مشيدة بمناقب أخيها صخر، وفضائله، ومواقفه النبيلة، وفيما يلي بعض الأبيات:

يؤرقني التذكر حين أمسي فأصبح قد بليت بفر ط نكس

على صخر وأي فتى كصخر ليوم كريهة وطعان خلس

فلم أر مثله رزءاً لجن ولم أر مثله رزءاً لإنس

أشد على صروف الدهر أيداً وأفضل في الخطوب بغير لبس

وضيف طارق أو مستجير يروع قلبه من كل جرس

فأكرمه وأمنه فأمسى خلياً باله من كل بؤس

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكين مثل أخي ولكن أعزي النفس عنه بالتأسي

فلا والله لا أنساك حتى أفارق مهجتي ويشق رمسي

فقد ودعت يوم فراق صخر أبي حسان لذاتي وأنسي

فيا لهفي عليه ولهف أمي أيصبح في التراب وفيه يمسي

إنها تبكي تلك المكارم، والأخلاق الفاضلة، التي يعتز بها القوم في الجاهلية تبكي الشجاعة والإقدام، تبكي الجود والكرم والسخاء، تبكي المروءة والوفاء.

صرخة شاعر:

لقد كان حافظ إبراهيم، شاعر النيل، من أنصار اللغة ا لعربية، وكان في عصره من جهابذة اللغة العربية، مجموعة من المتضلعين، قاموا بتحقيق كثير من أمهات الكتب اللغوية والأدبية، فهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم، يقول عن اللغة العربية:

وسعت كتَاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صرخاتي
أرى لرجال الغرب عزًّا ومنعة ... وكم عز أقوام بعز لغات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلين قناتي
أيهجرني قومي عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل بروة

تلك هي صرخة شاعر النيل حافظ إبراهيم، وقد كان في زمنه من أرباب، اللغة العربية وفطاحلها عدد كبير،وقد أخرجت لنا المطابع، تلك أمهات كتب اللغة وقواميسها، الشيء الكثير،والذي كان يخشاه الشاعر حافظ إبراهيم، هو تلك الأبواق التي بدأت تنادي باستخدام اللهجة المحلية،بدلا عن اللغة العربية، لأن ابتعاد المسلمين عن تعلم وتعليم اللغة العربية، معناه القضاء على الإسلام، فأين موقع اللغة العربية اليوم، إذ نبذها أهلها وأبناؤها، بدعوى أنها ليست لغة العلم والرقي والتقدم،وأنها تسبب عرقلة في سبيل التطور،إن التطور نعلمه بالأخلاق والصدق والأمانة، والتعاون والتراحم، والتناصح في الدين، ولما ورد عن رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة... إلخ**».

صرخة شاعر عن تغير الإخوان:

قال أحد الشعراء في المعنى:

وإخوان حسبتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادي
وخلتهم سهاماً صائبات ... فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد سعينا كل سعي ... فقلت نعم ولكن في فسادي
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن عن ودادي

وقال شاعر في المعنى:

وخـلـيـل لـم أخـنـه سـاعـة في دمي كفيه ظلماً قـد غمس
كـان في سري وجهـري ثقتـي لسـت عـنـه في مهم أحـرس
سـتـر البغض بـألفـاظ الهوى وادعـى الـود بغـش و غلس
إن رآني قـال لـي خـيراً وإن غبـت عـنـه قال شرًّا ودحـس
ثـم لـمـا أمكنتـه فـرصـة حمل السيف على نحري النفس
وأراد الـروح لـكـن خـانـه قـدر أيقـظ من كـان نعـس

وقال شاعر الرسول ﷺ،حسان بن ثابت الأنصاري:

أخـلاء الـرخـاء هـم كـثـير ولـكـن في الـبلاء هـم قليل
فـلا تغـررك خلة من تؤاخي فما لك عـنـد نـائبة خلـيل
وكـل أخ يقـول أنـا وفـيٌّ ولـكـن ليـس يفعل مـا يقـول
سـوى خـلٍّ لـه حسب وديـن فـذاك كما يقول هو الفعول

وقال أبو العلاء المعري في المعنى:

فظـن بـسـائر الإخـوان شـرًّا ولا تـأمـن على سر فـؤادا
فـلـو خبرتهم الجوزاء خـبري لما طلعـت مخافـة أن تكـادا
تجنبت الأنـام فـلا أواخـي وغبـت عـن الأنـام فـلا أعـادا
فـأي الناس أجعلـه صـديقـاً وأي الأرض أسـكـنـها ارتيادا

ويقـول ابن الـرومي في تغير الإخـوان:

تخذتكم درعـاً وترسـاً لتدفعـوا سهام العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر على حين خـذلان اليمين شمالها
فـإن كنتم لم تحفظـوا لمـودتي ذمـامـاً فكونـوا لا عليها ولا لهـا
قفـوا مـوقف المعذور عني بمعزل وخـلـوا نبالي والعدى بنبالهـا

وقال ابن سنان الخفاجي في المعنى:

وزهـدني في الناس معرفتي بهم وطول اختباري صاحباً بعد صاحب
فلـم تـرنـي الأيـام خلاًّ تـسرني مبادئه إلا ساءني في العـواقـب
ولا كنـت أرجـوه لـدفـع ملـمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

وقال شاعر آخر في المعنى:

خبرت بني الأيام طـراً فلم أجد صديقاً صدوقاً مسعداً في النوائب
و أصـفيتهـم مني الـوداد فقابلوا صفاء ودادي بالقذى والشوائب
وما اخترت منه صاحباً وارتضيته فأحمدته في فعله والعـواقـب

وصية الخنساء لأولادها الأربعة:

وها هي الخنساء، عندما أكرمها الله ووفقها، للدخول في الإسلام وأيدها الله بروح منه، وحبب إليها الجهاد في سبيل الله، أوصت أولادها الأربعة للجهاد في سبيل الله فنفثت فيهم روح الشجاعة الإيمانية، في حرب القادسية، فقالت لهم أول الليل: (يا بني إنكم أسلمتم طوعاً، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد علمتم ما أعد الله للمسلمين المؤمنين ، من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ٢٠٠].

فإذا أصبحتم غداً ـ إن شاء الله ـ سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، وإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سياقها، وحلت ناراً على أرواقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها،تظفروا الغنم والكرامة في دار الخلد والكرامة،والمثوى والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصيحتها، متزودين بتوجيهاتها، فتقدموا فقاتلوا قتال الأبطال الشجعان المؤمنين، وأبلوا البلاء الحسن، فارتجز الأول قائلا:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
بمقالة ذات بيان واضحة وإنما تلقون عند الصابحة

فقاتل حتى قتل شهيداً.

وأنشد الثاني وهو يقاتل حتى استشهد قائلاً:

إن العجوز ذات حزم وجلد قد أمرتنا بالسداد والرشد
نصيحة منها وبرًّا بالولد فباكروا الحرب حماة في العدد

وأنشد الثالث ، وهو يخوض غمار المعركة حتى استشهد قائلاً:

والله لا نعصي العجوز حرفا نصحاً وبرًّا صادقاً ولطفا
فبادروا الحرب الضروس زحفا حتى تلفوا آل كسرى لفّا

ثم تقدم الرابع والأخير منشداً قائلاً: يقاتل في سبيل الله حتى استشهد:

لست لخنساء ولا للأخزم ولا لعمرو ذي السعاء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جنس الأعجمي ماض على الهول خضم حضرم

فلما بلغها خبر استشهادهم قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيل الله، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته، ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، كان يعطي الخنساء أرزاق أولادها الأربعة،حتى قُبِضَت ﵃ أجمعين.

الباب الخامس

في أخلاق العرب

(الوفـاء):

إن للعرب في الجاهلية أخلاقاً وصفات، يتخلقون بها، ويتفاخرون بها ومنها الوفاء، ولو أدى بهم الحال إلى الهلاك بسبب الوفاء، وقد جاء في المثل العربي قولهم: (أوفى من السموأل بن عاديا)، وقد جاء الإسلام منوِّهاً بها والحثّ عليها،ويروى عن الرسول الكريم ﷺ قوله: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وقد حرض القرآن على الوفاء بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [سورة النحل: ٩١].

وقالوا: أوفى من عوف بن محلم، وأوفى من فكيهة: وهي: فكيهة بنت قتادة بن منشوء، من بني مالك بن ضبيعة، بن قيس بن ثعلبة، جاهلية اشتهرت بخبر لها مع السليك ابن السلكة العداء المعروف والشاعر الموصوف، وكان فتّاكاً من شياطين العرب، دخل بيوت بني بكر بن وائل، وشعر به القوم يطلبونه، فدخل بيت فكيهة مستجيراً، فأجارته ولحقوا به، فحاولت دفعهم عنه فلم تستطع وانتزعوا خمارها، فصاحت وأقبل إخوتها وأبناؤها فأنقذوه منهم، فقال أبياتاً فيها منوِّهاً بشجاعتها ووفائها منها:

فما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف وانتشلوا الخمارا

من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لإخوتها شنارا

وفي رواية أخرى: فكيهة هي امرأة من قيس بن ثعلبة كان من وفائها، أن السليك ابن السلكة غزا بكر بن وائل، فخرج جماعة من بكر فوجدوا أثر قدم على الماء، فقالوا: والله إن هذا لأثر قدم ترد الماء، فقعدوا له، فلما وافى حملوا عليه حتى ولج قبة فكيهة فاستجار بها، فأدخلته تحت ثيابها، فانتزعوا خمارها، فنادت إخوتها فجاؤوا عشرة فمنعوهم عنها، فقال السليك منوِّهاً بموقفها النبيل:

لعمر أبيك والأنباء تُنمى ... لنعم الجار أخت بني عوارا

من الخفرات لم تفضح أخاها ... ولم ترفع لوالدها شنارا

فما ظلمت فكيهة حين قامت ... لنصل السيف وانتزعوا الخمارا

أوفى من السموأل بن عاديا:

هو السموأل بن غريض بن عاديا اليهودي، كان شاعراً حكيماً، من سكان خيبر شمالي المدينة المنورة، وكان ينتقل بينها وبين حصن له سماه الأبلق، وقد جاء ذكره في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

حتى قال:

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره يعزُّ على من رامه ويطول

وكان من وفاء السموأل: أن امرأ القيس بن حجر الكندي، لما أراد الخروج إلى قيصر الروم، استودع السموأل دروعاً له ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموأل في الحصن، فأخذ الملك ابناً للسموأل وكان راجعاً من الصيد، فصاح الملك بالسموأل فأشرف عليه، فقال له: هذا ابنك في يدي وقد علمت أن امرأ القيس ابن عمي ومن عشيرتي، وأنا أحق بميراثه، فإن دفعت إلي الدروع وإلا ذبحت ابنك.

فقال له السموأل: أجلني، فأجله، فجمع السموأل أهل بيته ونساءه وشاورهم، فكل أشار عليه أن يدفع الدروع ويستنقذ ابنه.

فلما أصبح الصباح أشرف السموأل على الملك، وقال له: ليس إلى دفع الدروع من سبيل، فاصنع ما أنت صانع .

فذبح الملك ابن السموأل وهو مشرف ينظر إليه، ثم انصرف الملك بالخيبة، فوافى السموأل بالدروع الموسم فدفعها إلى ورثة امرىء القيس بن حجر الكندي وقال في ذلك:

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت

وقالوا إنه كنز رغيب ولا والله أغدر ما مشيت

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئت استقيت

طمراً تزلق العقبان عنه إذا ما نابني ظلم أبيت

وقد أشاد الشاعر الجاهلي عامر بن الحارث بن رياح الباهلي الهمذاني بموقف السموأل حيث يقول:

شريح لا تتركني بعدما علقت حبالك اليوم بعد القد أظفاري
كن كالسموأل إذا طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجاز غير غدار
إذ سامه خطتي خسف فقال له مهما تقله فإني سامع جاري
فقال غدر وثكل أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له اذبح أسيرك إني مانع جاري
هذا له خلف إن كنت قاتله وإن قتلت كريماً غير خواري
فقال تقدمة إذ قام يقتله أشرف سموأل فانظر للدم الجاري
أأقتل ابنك صبراً أو تجيء به طوعاً فأنكر هذا أي إنكار
فشك أوداجه والصدر في مضض عليه منطوياً كاللذع بالنار
وأختار أدراعه أن لا يسب بها ولم يكن عهده في غير مختار
وقال لا أشتري عاراً بمكرمة فأختار مكرمة الدنيا على العار
والصبر منه قديماً شيمة خلق وزنده في الوفاء الثاقب الواري

ذلك هو موقف السموأل بن غريض بن عاديا في الوفاء، يختار أن يُقْتَل ابنه وفلذة كبده، ولا يخفر ذمته، ولا يخون الأمانة، إنه موقف نبيل عظيم من مواقف الأخلاق العربية، وإن المرء وهو يقرأ تلك الصفحات الخالدة ويقارنها بمواقف عصرنا الحاضر عصر العلم والتقدم الحضاري، والعاقل حسبه أن يقارن - ولا مجال للمقارنة ـ ما فشا بين الناس من عدم الوفاء وتضييع الأمانة.

أوفى من عوف بن محلم:

وفي المثل يقال: (أوفى من عوف بن محلَم)، هو عوف بن محلم بن ذهل بن شيبان من أشراف العرب في الجاهلية، وكان مطاعاً في قومه، قويّاً في عصبيته.

طلب منه الملك عمرو بن هند رجلاً كان قد أجاره، فمنعه فقال الملك: (لا حّر بوادي عوف)، أي لا سيد في وادي عوف يناوئه، فسار مثلاً.

وكان من وفائه، أن مروان القرظ بن زنباع غزا بكر بن وائل، فقفوا أثر جيشه، فأسره رجل منهم، وهو لا يعرفه، فأتى به أمه فلما دخل عليها قالت له أمه: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ، فقال لها مروان: وما ترجين من مروان القرظ؟.

قالت: عظيم فداؤه، قال: كم ترتجين من فدائه؟. قالت: مائة بعير. قال مروان: ذلك لك على أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محلم، وكان السبب في ذلك أن ليث بن مالك المسمى: (بالمنزوف..)، لما مات أخذت بنو عبس فرسه وسلبه، ثم مالوا إلى خبائه، فأخذوا أهله وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم، وكان الذي أصابها عمرو بن قارب، وذؤاب بن أسماء، فسألها مروان القرظ: من أنت؟.

فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعها عمرو وذؤاب، لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطي وجهك، والله لا ينظر إليه عربي، حتى أردَّك إلى أبيك.

ووقع بينه وبين بني عبس شرٌّ بسببها، ويقال: إن مروان القرظ، قال لعمرو وذؤاب: حكماني في خماعة، قال: قد حكمناك يا أبا صهبان، قال: فإني اشتريتها منكما بمائة من الإبل، وضمها إلى أهله، حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وخدمها، وأكرمها وحملها إلى عكاظ، فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان قال فيها: هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك؟.

فقالت: هذه منازل قومي، وهذه قبة أبي، قال: فانطلقي إلى أبيك، فانطلقت فخبرت بصنيع مروان القرظ، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه، في أمر خماعة وردها إلى أبيها:

رددت على عوف خماعة بعدما ... خلاها ذؤاب غير خلوة خاطب
ولو غيرها كانت سبية رمحه ... لجاء بها مقرونة بالذوائب
ولكنه ألقى عليها حجابه ... رجاء الثواب أو حذار العواقب
فدافعت عنها ناشباً وقبيله ... وفارس يعبوب وعمرو بن قارب
ففاديتها لما تبين نصفها ... بكوم المثالي والعشار الضوارب
صهابية حمر العثانين والذرى ... مهاريس أمثال الصخور مصاعب

فكانت تلك يداً لمروان القرظ، عند خماعة، فهذا قال: ذاك لك على أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محلم، فقالت المرأة:

من لي بمائة من الإبل؟ فأخذ عوداً من الأرض فقال: هذا لك بها، فمضت به إلى عوف بن محلم، فبعث إليه الملك عمرو بن هند أن يأتيه به، وكان عمرو وجد على مروان القرظ في أمر، فآلى أن لا يعفو عنه حتى يضع يده في يدي.

قال عوف: يضع يده في يدك على أن تكون يدي بينهما، فأجابه الملك عمرو ابن هند إلى ذلك، فجاء عوف بن محلم بمروان القرظ فأدخله عليه، فوضع يده في يده، ووضع يده بين أيديهما، فعفا عنه، وقال عمرو بن هند حينئذ: لا حرّ بوادي عوف، فأرسلها مثلا، أي لا سيد بوادي عوف يناوئه، وقيل إنما سمي مروان القرظ لأنه كان يغزو اليمن، وهي منابت القرظ.

ولذلك قالوا: أوفى من خماعة، إذ جارت مروان القرظ، ودفع أبوها مائة بعير فداء لمروان القرظ.

تلك أخلاق العرب في الجاهلية، وذلك وفاؤهم، وتلك مواقفهم فهل لنا أن نتخلق بأخلاق الكرام، الذين يحيون النفوس، وإذا كانت أخلاق الصالحين صلاحاً للمقتدي بها؟ ويقول الشاعر:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكِرَامِ فلاح

والإسلام يحثّ على مكارم الأخلاق، والرسول الكريم ﷺ يقول في الحديث الشريف: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

لله درّ الرجلين ما أحكمهما:

ومما يحكى أن النعمان بن المنذر، ملك الحيرة، وهو صاحب يومي البؤس والنعيم، رأى علاقة من أوثق وأمتن وأفضل ما يكون بين حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، وأوس بن حارثة بن ثعلبة، فحسدهما على تلك الأخوة والصداقة، فقال النعما ن بن المنذر يوماً لجلسائه: والله لأفسدنَّ ما بينهما، قالوا: لا تقدر على ذلك لفضل كل منهما، ومعرفة كل بصاحبه.

قال: بلى فقلما جرت الرجال في شيء إلا بلغته، فدخل أوس بن حارثة على النعما ن بن المنذر، فقال يا أوس ما الذي يقول حاتم فيك؟. قال حاتم: وما ذا يقول أوس؟.

قال النعمان: يقول أوس: إنه أفضل منك وأشرف،قال أوس للملك النعمان: أبيت اللعن صدق والله حاتم، لو كنت أنا وأهلي وولدي لحاتم لأنهبنا في مجلس واحد، ثم خرج أوس بن حارثة وهو يقول :

يقول لي النعمان لا من نصيحتي أرى حاتماً في قوله متطاولا
له فوقنا باع كما قال حاتم وما النصح فيما بيننا كان حاولا

ثم دخل حاتم بن عبد الله الطائي، على الملك النعمان بن المنذر، فقال: له مثل مقالته لأوس بن حارثة، قال حاتم : صدق والله أوس بن حارثة أين عسى أن أقع من أوس بن حارثة ، له عشرة ذكور أخسَّهم أفضل مني ثم خرج وهو يقول:

يسا ئلني النعما ن كي يستزلني وهيهات لي أن أستضام فأ صرعا
كفاني نقصا أن أضيم عشيرتي بقول أرى في غيره متوسعا

فقال الملك النعمان بن المنذر: ما سمعت بأكرم من هذين الرجلين، فلم ينل مراده من الوقيعة بينهما، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن، أن يثني خيراً على صاحبه، ويذكر أفضل خصاله، فلعل الذي جاء يريد أن يوقع العداوة والبغضاء حسداً من عند نفسه، غاظه أن يرى صديقين متآلفين.

حكاية ذي اليومين:

إن الملك النعمان بن المنذر، هو صاحب يومي البؤس والنعيم، ويروى أن السبب في ذلك، أن النعمان بن المنذر كان ينادمه رجلان من العرب: هما خالد ابن المضلل، وعمرو بن مسعود الأ سدي، فشرب ليلة معهما، فراجعاه الكلام فأغضباه فأمر بهما فقتلا، وجعلا في تابوتين ، ودفنا بظاهر الكوفة.

فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بذلك، فندم وركب حتى وقف عليهما فأمر ببنيان الغَريَّين، وجعل لنفسه في كل سنة يومين: يو م بؤس،ويو م نعيم.

فكان يضع سريره بينهما، فإذا كان يوم نعيمه فأول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من إبل الملوك، وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان ويأمر به فيذبح ، ويغرّى بدمه الغريان.

الوفاء من شيم الرجال:

فلم يزل ذلك دأبه، ما شاء الله، فبينما هو ذات يوم من أيام بؤسه إذ طلع عليه أعرابي من طيء، فقال: حيا الله الملك إن لي صبية صغاراً جئتك طالباً نوالك، ولم أوص بهم أحداً، فإن يأذن لي الملك في إتيانهم وأعطيه عهد الله وميثاقه أني أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده؟ فرقَّ له الملك النعمان، فقال: لا، إلا أن يضمنك رجل ممن معنا، فإن لم تأت قتلناه، وشريك بن عمرو بن شراحيل نديم الملك النعمان معه ، فقال الطائي:

يا شريك يا ابن عمرو هل من الموت محاله
يا أخا كل مضام يا أخا من لا أخا له
يا أخا النعمان فكّ اليوم عن شيخ غلاله
إن شيبان قبيل أحسن الناس فعاله

فقال شريك: هو عليَّ أصلح الله الملك، فذهب الطائي إلى أهله وأولاده يقطع الفيافي والقفار لكي يوصي بأولاده وأهله، ويودعهم، ويحث الخطى حتى يفي بعهده ووعده.

ثم التفت الملك النعمان إلى شريك قائلاً: إن صدر هذا اليوم قد ولى،لا يرجع ،وشريك يقول : ليس لك سبيل حتى تمسي، فلما أمسى أقبل شخص والنعمان ينظر إلى نديمه شريك، فقال : ليس لك عليَّ سبيل حتى يدنو الشخص.

لا أكون ألأم الثلاثة:

فبينما هم كذلك إذ أقبل الطائي للوفاء، بالعهد والوعد رغم ما ينتظره من مصير، فقال الملك النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدري أيكما أكرم، ولكن

لاغرو، لا أكون والله ألأم الثلاثة، ألا: إني قد رفعت يوم بؤسي، وخلى سبيل الطائي فأنشأ يقول:

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فأبيت عند تجهر الأقوال

إني امرؤ مني الوفاء خليقة وفعال كل مهذب بذال

فقال الملك النعمان للأعرابي الطائي: ما حملك على الوفاء رغم ما ينتظرك من مصير؟ وقد كان بإمكانك النجاة؟ فقال: الأعرابي: ديني، قال الملك: وما دينك؟ قال الأعرابي: النصرانية، قال الملك: اعرضها علي، فعرضها الأعرابي عليه فأعجبته فتنصر، فمن ذلك الوقت والملك النعمان يدين بالنصرانية.

إنه موقف نبيل عظيم، من مواقف الوفاء، وقد كان درساً مؤثراً لإبطال الملك النعمان تلك العادة السيئة، التي ما أنزل الله بها من سلطان، وموقف شريك بن عمرو النبيل لا يقل خطورة، وهو يعلم سلوك الملك النعمان الذي لا يهمه إلا إنفاذ حكمه، ولو كان في أقرب المقربين إليه.

إن الوفاء خلق من أخلاق العرب، التي جاء الإسلام للحثّ عليها، وقد جبلت النفوس الكريمة إلى فعل الخير، والأخلاق الرفيعة،والخلال الحميدة، يعظم صاحبها، ويتبوأ منزلة عالية في قلوب الناس، وتصدق فيه خطرات الظنون الطيبة، وتحتل محبته في شغاف القلوب، فيا طوبى من كان بهذه المنزلة في قلوب الناس.

والوعد من وجوه الوفاء، فإنه مما لاشك فيه فإن انجاز الوعد هو الثمرة المرجوة من الوفاء بالوعد،وقالوا إذا كان الوعد سحاباً فإن انجازه مطر يحيي به الله الأرض بعد موتها، ووعد الكريم دين ، وتحقيقه أمانة، وتعجيل الوفاء به بر وفضل وكرامة.

قوس حاجب بن زرارة:

أتى حاجب بن زرارة التميمي في جدب أصاب قومه بدعاء رسول الله ﷺ كسرى، فسأله أن يأذن لهم في دخول بلاده حتى يمتاروا: (أي يأتوا بالميرة وهي الطعام).

فقال كسرى: إنكم معشر العرب قوم غدر، فقال حاجب: إني ضامن للملك ألا يفعلوا، فقال له كسرى: فمن لي بأن تفي؟. قال حاجب بن زرارة: أرهنك قوسي، فضحك من حوله، فقال كسرى: ما كان ليخالف فقبلها كسرى منه، وقال: يا حاجب إن قوسك هذه لقصيرة معوجة، قال حاجب: أيها الملك، إن وفائي طويل مستقيم.

وفاء الحارث بن ظالم:

وجاء في المثل: (أوفى من الحارث بن ظالم)، وكان من وفائه، أن عياض بن ديهث مر برعاء الحارث وهم يسقون، فسقى فقصر رشاؤه فاستعار من أرشية الحارث فوصل رشاءه، فأروى إبله، فأغار عليه بعض حشم النعمان فاطردوا إبله، فصاح عياض: يا جاراه يا جاراه، فقال له الحارث: متى كنت جارك؟ فقال: وصلت رشائي برشائك فسقيت إبلي فأغير عليها، وذلك الماء في بطونها، قال: جوار ورب الكعبة، فأتى النعمان، فقال: أبيت اللعن أغار حشمك على جاري عياض بن ديهث فأخذوا إبله وماله فأرددها عليه، فقال له النعمان: أفلا تشد ما وهى من أديمك، يريد أن الحارث قتل خالد بن جعفر بن كلاب في جوار الأسود بن المنذر، فقال الحارث: هل تعدون الحلبة إلى نفسي؟ ويروى: هل تعدون الحلبة من الأعداء؟ يعني تركضون،ويروى ـ تعدون ـ من التعدي أي تتعدون أي تتجاوزون، فأرسلها مثلاً، أي إنك لا تهلك إلا نفسي إن قتلتها، فتدبر النعمان كلمته، فرد على عياض أهله وماله.

قال الفرزدق يضرب المثل لسليمان بن عبد الملك بن مروان حين وفى ليزيد بن المهلب:

لعمري لقد أوفى وزاد وفاؤه	على كل جار جار آل المهلب
كما كان أوفى إذ ينادي ابن د يهث	وصرمته كالمغنم المتنهب
فقام أبو ليلى إليه ابن ظالم	وكان متى ما يسلل السيف يضرب

ذرية بعضها من بعض:

فمات حاجب بن زرارة، فطلبها ابنه عطارد بن حاجب فردت عليه، وكساه كسرى حلة ، فلما آستلمها عطارد أهداها إلى رسول الله ﷺ، فلم يقبلها ، فباعها

بأربعة آلاف درهم، فبقيت قوس حاجب بن زرارة فخراً لبني تميم، قال أبو تمام:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها فخاراً على ما وطدت من مناقب

فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

وفاء أبي العاص بن الربيع:

كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس صهر رسول الله ﷺ، زوج ابنته ﷺ زينب، تاجراً تضاربه قريش بأموالها فخرج إلى الشام فلما رجع من الشام عرض له المسلمون فأسروه وقدموا به المدينة المنورة ليلاً، فأرسل أبو العاص ابن الربيع إلى زينب بنت رسول الله ﷺ، طالباً منها أن تأخذ له أماناً من الرسول.

فخرجت زينب فأطلعت رأسها من باب حجرتها، والنبي ﷺيصلي بالناس صلاة الصبح، فقالت : أيها الناس، أنا زينب بنت رسول الله، وإني قد أجرت أبا العاص، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «**أيها الناس: إنه لا علم لي بهذا حتى سمعتموه، ألا وإنه يجير على المسلمين أدناهم**».

فلما أجارته سألت زينب أباها ﷺ أن يرد عليه متاعه، ففعل وأمرها ألا يقربها ما دام مشركاً، فرجع أبو العاص بن الربيع إلى مكة المكرمة، فأدى لكل ذي حق حقه، ثم رجع مسلماً مهاجراً إلى الله ورسوله في شهر محرم سنة سبع للهجرة النبوية، فرد عليه الرسول ﷺ زوجه زينب، قيل بالنكاح الأول. وكان سبب طلب أبي العاص حماية زينب، أنه كان قد خرج إلى الشام في عير لقريش، فانتدب لها زيد في سبعين ومائة راكب من الصحابة، فلقوا العير في سنة ست للهجرة النبوية، فأخذوها، وأسروا أناساً منهم أبو العاص بن الربيع فطلب حمايتها حتى يرجع إلى مكة المكرمة ويؤدي الأمانات إلى أهلها، فلما أدى الأمانات رجع إلى المدينة المنورة معلناً إسلامه، فأكرمه الله أن وفقه للإيمان.

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [سورة المائدة: ١]. إن الإسلام يسعى لإقامة ضوابط لحياة الناس، يقيمها ويحددها بدقة، ووضوح، ويربطها كلها بالله سبحانه وتعالى، ويكفل لها الاحترام الواجب، فلا تنتهك، ولا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات، ولا تخضع للمصالح العارضة

التي يراها بعض أفراد المجتمع أو تراها مجموعة أو تراها أمة فيحطمون في سبيلها تلك الضوابط التي وضعها الله سبحانه وتعالى للمصلحة العامة لجميع البشر فهذه الضوابط التي أقامها الله وحددها هي: المصلحة، ومادام أن الله هو الذي أقامها للناس،فالخير كل الخير في ذلك، فالله يعلم والناس لا يعلمون، وما يقرره الله خير لهم مما يقرره الناس.

أفضل الوفاء:

ويقال أكرم الوفاء ما كان عند الشدّة، وألأم الغدر ما كان عند الثقة، ذكر أعرابي رجلاً، فقال: أوله طمع وآخره يأس، وما هو إلا كالسراب يخلف من رجاه، ويغم من رآه، فهذا هو الغدر بعينه.

كان مرداس بن حدير بن عامر التميمي من الشجعان الأبطال والزهاد العباد، سجنه عبيد الله بن زياد، وأحبه لما رأى منه من الأخلاق الفاضلة، فأراد السجان أن يقدم له معروفاً، فقال له السجّان: أنا أحب أن أوليك حسنى، فإن أذنت لك في الانصراف إلى دارك، أتدلج عليَّ؟.

الباب السادس

موقف القرآن من الوفاء

القرآن يحثّ على الوفاء:

إن الوفاء بالعهود ، من الإيمان، ومن لا عهد له لا إيمان له،وقد حثّنا الله في كتابه العزيز على الوفاء بالعهد حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٩١﴾ [سورة النحل: ٩١].

إذاً فمن الأشياء التي حث عليها الدين الحنيف، خُلُق الوفاء،ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الوفاء في مواطن كثيرة، ولعل أشرف مكانة للوفاء هي، أن يصف الله تبارك وتعالى ذاته القدسية بالوفاء حيث يقول جل قائلاً عليماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [سورة التوبة: ١١١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾، أنه لا أحد أوفى بعهده، ولا أصدق في انجاز وعده من الله جل جلاله، فهو القادر المتمكن من الوفاء، وهو أصدق الواعدين وأوفى المعاهدين.

الوفاء من الإيمان:

قال هو كما قال الله تعالى في كتابه فيه وفي أمثاله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [سورة النساء: ١٢٠].

سأل المنصور الخليفة العباسي يوماً بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال المسؤول: كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يفعل كذا وكذا.

فقال له المنصور: عليك لعنة الله، وتطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟.

فقال المسؤول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي، فقال له المنصور: ارجع يا شيخ فإني أشهد أنك لوفيّ حافظ للخير،ثم أمر له بمال فأخذه، ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين، إمضاء طاعته، ما لبست لأحد بعد هشام نعمة، فقال له المنصور: لله درك فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً.

عواقب الغدر وخيمة:

ولما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد ، غدراً بعدما صالحه وكتب إليه أمانا وأشهد شهوداً، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر:

ما رأيك في الذي كان مني؟، قال له المستشار: أمر قد فات دركه، قال له عبد الملك: أقسمت عليك لتقولن، فقال له المستشار: لو قتلته يا أمير المؤمنين وأنت حي كان جميلاً.

فقال عبد الملك بن مروان: أو ما تراني حيًّا؟ فقال المستشار: ليس بحي من أقام نفسه مقاما لا يوثق به في عقد ولا عهد، والله لا يخرج عليك بعدها خارجي إلا وبلغ الغاية في معاداتك، وإن بذلت له كل أمان، فقال عبد الملك بن مروان: كلام لو سبق سماعه فعلي لم أصنع ما صنعت، ولقد صدق من قال: نصف عقلك مع صاحبك.

وكان العرب في الجاهلية يشهّرون بأهل الغدر والخيانة،ويهجون من عرف عنه خلف الوعد والمماطلة في الأمور، وقال: من بذل لك خلق مقاله ، ومر نواله فهو العدو بعينه، وقيل لأبي العيناء : كيف تركت فلاناً مع قومه؟.

تصرف الحاسد:

وكانت العرب تضرب المثل فيمن أحسن وأجاد، ثم كوفىء غدراً وخيانة: فقالوا: جُوزِيَ جزاء سنمار، وأصل المثل أن أحد الملوك لما خاف على ولده، وكان قبله لا يعيش له ولد.

سأل عن منزل صحيح، فدل على ظهر الجزيرة، فدفع ابنه إلى النعما ن عامله على أرض العرب، وأمره أن يبني له قصراً، فأمر النعمان رجلاً يسمى سنمار، فبناه كأحسن ما يكون البناء، فلما فرغ من بنائه عجبوا من حسنه وجماله.

فقال: لو علمت أنكم توفونني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس، حيث دارت، فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى القصر فتقطع ، فقالت العرب: جزائي جزاء سنمار.

والغدر والخلف ليس من أخلاق الرجال ولا من صفات الكرام، لأن الغدر مكر والمكر كفر، ومن عامل الناس بالمكر كافوه بالغدر، والغادر معرض للهلاك والخزي الذي يطوقه والعار الذي يلاحقه، ورُبَّ حيلة أهلكت المحتال.

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ثلاث هنَّ راجعات إلى أهلها، المكر،والنكث، والبغي، ثم تلا قوله تبارك وتعالى:﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [سورة الفتح: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [سورة يونس: ٢٣]. وكانت العرب في الجاهلية، إذا غدر منهم غادر يوقدون له بالموسم ناراً وينادون عليه ويقولون: ألا إن فلاناً غَدَرَ.

الباب السابع

في الجود والسخاء

كـرم خليـل الرحمـن:

وهـذا أبونا إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، وقصـة كرمه مع الملائكة، ومما يحكى أن النبي إبراهيم عليه السلام، ما كان يحب أن يأكل طعاماً منفرداً، فإذا حضر طعامه بحث عن ضيف يأكل معـه، وقد جاء القرآن الكريم منوِّهاً بكرم النبي إبراهيم عليه السلام.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [سورة الحجر: ٥١-٥٣].

وجاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [سـورة هـود: ٦٩-٧٠].

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام يعيش في أرض الكلدا نيين مسقط رأسه، ووطن أهله ـ العراق ـ فهاجر من العراق إلى أرض كنعان في البادية مارًّا بالأردن، وكان عادة البدو في إكرام الضيف ، فما إن وصل إليه الأضياف حتى أسرع إلى إحضار الطعام، وقد كان يظن أنهم ضيوف من البشر، فما لبث أن جاء بعجل سمين مشوي على حجارة الرضيف المحماة.

وبما أن الملائكة لا يأكلون الطعام، لم تمتد إلى الطعام أيديهم، والنبي إبراهيم ينظر إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام أنكر موقفهم ذلك والمعروف عن الضيف أنه إذا كان ينوي شرًّا لا يأكل مما يقدم إليه من الطعام، لذلك خاف النبي إبراهيم من الضيوف.

فالذي لا يأكل الطعام يريب المضيف،ويشعر بأنه ينوي خيانة أو شرًّا أوغدراً بحسب تقاليد أهل البادية، فلما أدرك الملائكة خوف إبراهيم من امتناعهم عن الأكل طمأنوه بعدم الخوف منهم، وأنهم رسل الله أرسلهم إلى النبي لوط عليه السلام، وأنهم مأمورون بإهلاك قوم لوط المجرمين.

وزادوه اطمئناناً بالبشرى التي حملوها إليه، إذ بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فلما اطمأنّ النبي إبراهيم عليه السلام إلى رسل الله، وسكن قلبه بالبشرى بالغلام العليم، ولكن هذا لم ينسِه لوطاً وقومه، وهو ابن أخيه النازح إليه معه، من مسقط رأسه والساكن قريباً منه.

وفي سورة الذاريات، يبدو كرم النبي إبراهيم عليه السلام، وسخاؤه وإرخاصه المال واضحاً، فما يكاد ضيفه يدخل عليه ويقول: سلاماً ويرد إبراهيم السلام على الضيف حتى يذهب إلى أهله مسرعاً ليهيء للضيف الطعام ويجيء به طعاماً وفيراً يكفي لأكثر ممن حضر من الناس.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾ [سورة الذاريات: ٢٦]، وهم كانوا ثلاثة فيما يقال: كان يكفيهم كتف من هذا العجل السمين، فقربه إليهم، فلما رآهم لا تمتد أيديهم إلى الطعام، قال: ألا تأكلون؟ وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه.

كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم:

روي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما أشرقت شمس إلا وبجنبتيها ملكان يناديان، وإنهما ليعرفان الخلائق، إلا الثقلين الجن والإنس: اللّهم عجِّل لمنفق خلفاً، اللّهم عجِّل لممسك تلفاً، وملكان يناديان: أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى).

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: أتى رسول الله ﷺ رجل، فسأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع الرجل إلى قومه، فقال: اسلموا فإن محمدا يعطي عطاء رجل لا يخاف الفاقة. (الفاقة الفقر والحاجة)، يقال من الفاقة إنه لمفتاق ذو فاقة، وإفتاق الرجل أي إفتقر، ولا يقال: فاق لأن فاق من التفوق لا من الفاقة، والمفتاق المحتاج.

وجاء في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي قال: إعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام وهو أصل من أصول النجاة، وعنه عبر الرسول الكريم ﷺ، حيث قال: «**السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة**».

وقال جابر بن عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «**قال جبرائيل عليه السلام: قال الله تعالى: إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولا يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق فأكرموه بهما ما استطعتم، وفي رواية: (فأكرموه بهما ما صحبتموه)**».

وقال أبو سعيد الخدري، قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي، تعيشوا في أكنافهم، فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإني جعلت فيهم سخطي**».

وروي عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى، وقال الشاعر:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية بن أبي سفيان، الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن المروءة، والنجدة والكرم. فقال: أما المروءة فحفظ المنازعة والإقدام في الكراهية. وأما النجدة فالذبّ عن الجار والصبر في المواطن. وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال، والإطعام في المحل، والرأفة بالسائل مع بذل النائل.

ورفع رجل إلى الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رقعة، فقال له الحسن: حاجتك مقضية، فقيل له: يا ابن بنت رسول الله، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عز وجل من ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته.

وقال ابن السماك عبد الله بن أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة ٤٣٥هـ: قال: عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه. سئل أعرابي من سيدك؟ فقال : من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا وأغضى عن جاهلينا.

وقال علي بن الحسين ابن الإمام علي كرم الله وجهه: من وصف ببذل ماله لطلابه لم يكن سخيًّا، وإنما السخي من يبدأ بحقوق الله تعالى في أهل طاعته، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يقينه بثواب الله تعالى تامًّا.

و مما يروى عن جعفر الصادق أنه قال: لا عون أعظم من العقل، ولا معصية أعظم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشاورة، ألا وإن الله عز وجل يقول: إني جواد

كريم لا يجاورني لئيم، واللؤم من الكفر، وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان، وأهل الإيمان في الجنة.

و مما يحكى أن الإمام علياً كرم الله وجهه قال: من كانت له حاجة إليّ فليرفعها إليَّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة، فجاءه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، وإن الحياء يمنعني أن أذكرها، فقال له الإمام علي: خطها في الأرض، فكتب: إني فقير؟.

فقال الإمام علي لخادمه قنبر: اكسه حلتي : فقال الأعرابي:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن نلت حسن الثنا قد نلت مكرمة ولست تبغي بما قدمته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به كل امرىء سوف يجزى بالذي فعلا

فلما سمع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ما قال الأعرابي، قال: يا قنبر: زده مائة دينار، فقال قنبر ، يا أمير ا لمؤمنين لو فرقتها في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم، فقال كرم الله وجهه، صه (اسكت)، يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: أشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وقال بعض العرب لولده : يابني لا تزهدن في معروف ، فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوباً إليه، وطالب كان مطلوباً لديه، وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للخير طالب
ولا تمنعن ذا حاجة جاء سائلاً فإنك لا تدري متى أنت راغب

وقال أحد العلماء واصفاً الجود والسخاء والإيثار، فقال: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.

من سخاء سيف الدولة الحمداني:

ومما يحكى عن سخاء أمير المؤمنين سيف الدولة أبي الحسن علي بن عبد الله الحمداني، قال أبو القاسم بن معروف، قال: دخلت حلب فقصدت أبا محمد الحسن بن محمد الصليحي الكاتب، فوجدت معه أبا الحسن علي بن الحسين المغربي الكاتب أسلم عليهما، وكانا في خدمة سيف الدولة، وقد خصص لهما داراً واحدة لضيق الدور، وكان لكل واحد منهما وكيل يتعاقبان في خدمتهما لكل وكيل يوم.

ولما استقر بي المقام معهما دخل عليهما رجل ضرير، فسلم وجلس ثم قال: إن لي بالأمير سيف الدولة حرمة قديمة، وجواراً واختصاصاً، وذلك أيام مقامه بالموصل، وقد قصدته، ومعي رقعة، فإن رأيتما أن توصلاها إليه، ولكما مني جزيل الشكر، وأخرج الرقعة ، فوجداها رقعة عظيمة هائلة مطولة ، فلما رأياها قالا له: هذه ورقة عظيمة وطويلة ، ولا نظن أن الأمير سيف الدولة يتمكن من قراءتها، ونقترح عليك أن تغيرها وتختصرها ، وآرجع بها إلينا بعد اختصارها فإنا سنوصلها إليه.

فقال الرجل الضرير: الذي أحب أن تتفضلا بعرض هذه الرقعة كما هي بدون تغيير أو تبديل أو اختصار،فلما سمعا رأيه اعتذرا أن يستلما منه الرقعة، بدعوى أنها لا تليق أن تقدم للأمير سيف الدولة.

فقال أبو القاسم بن معروف: لما رأيت الرجل الضرير، آيساً منهما يجر رجله خائباً منكسر القلب، فلما رأيته على تلك الحالة أشفقت عليه، فداخلتني عليه رقة ورحمة، فدفعني حاله إلى أخذ الورقة، فذهبت إلى قصر سيف الدولة، وطلبت الإذن بالدخول عليه، وكان رسمه أن لا يدخل عليه أحد إلا برقعة يكتبها الحاجب باسم من حضر سواء الحاضر واحداً أو جماعة، فإذا وصلت الرقعة إلى سيف الدولة قرأ اسم من حضر، فإن شاء دعا به ، وإن شاء أمر بصرفه.

فقام الحاجب بما يجب، وعرض الرقعة على سيف الدولة،وفيها، من فلان بن فلان الفلاني الموصلي الضرير، فلما قرأها أمير المؤمنين سيف الدولة قال: وهذا لا زال يعيش؟ أين هو؟، فقال الحاجب : هو بالباب واقف ينتظر الإذن.

فقال أمير المؤمنين سيف الدولة : دعه يدخل ، فما أظنه ـ مع ما أعرفه من زهد في الطلب ـ قصدنا إلا لجهد لحق به ، فدخل الشيخ على الأمير سيف الدولة فسلم

واستدناه وقربه، وبش به وقال له: يا هذا ما سمعت بأنا في الدنيا؟ أما علمت مكاننا على وجه الأرض؟ أما كان من ا لواجب أن تزورنا ، مع ما بيننا من الحرمة الأكيدة، والسبب الوكيد؟، لقد أسأت إلى نفسك ، وأسأت الظن بنا.

فجعل الرجل الضرير يدعو لأمير المؤمنين سيف الدولة ويشكره، ويعتذر إليه لعدم زيارته، فقربه وأجلسه بجانبه، وأخذ سيف الدولة يدعو رجاله واحداً بعد واحدويسر إليه بكلام لا يسمعه الضرير، ولا يعلم بشيء مما يدور من حديث بين الأمير سيف الدولة ورجاله، ولا يرى الحضور إلا الأشياء يوضع بعضها فوق بعض، وبعضها بجوار بعض، وسكت سيف الدولة عن الكلام مع الرجل الضرير، وظن الضرير أن أمير المؤمنين سيف الدولة قد تغافل عنه وأهمل طلبته.

وأحضرت صرر الدراهم والدنانير، والأثواب المتنوعة ، والفرش، وجاء رجل ومعه بغلة ،تساوي ثلاثة آلاف درهم، وجاء خادم بثياب جديدة ،وسلمت البغلة إليه ، فأمسكها في الميدان أسفل الدكة التي عليها أمير المؤمنين سيف الدولة، ثم قال للخادم: كم جرايتك؟.

فقال الخادم: عشرون ديناراً في الشهر، قال الأمير سيف الدولة: قد جعلتها لك ثلاثين ديناراً، وخدمتك لهذا الشيخ خدمة لنا، فلا تقصر فيها، ولاينكسر قلبك، وأحسن خدمته، وقد أمرت بأن يدفع جرايتك لسنة كاملة مقدماً، فدفعت في الحال إليه.

ثم قال الأمير سيف الدولة: فرغوا الدار الفلانية للرجل الضرير ففرغت، وزودت بما يحتاج إليه كل ذلك من أجل الشيخ الضرير، وهو لايعلم ما يقوم به أمير المؤمنين سيف الدولة من أجله.

ثم أمر أبا إسحاق بن شرام المعروف بابن ظلوم المغنية، وكان يكتب له، ويترسل في الكتابة إلى ملك الروم، ويبعثه في صغير أموره وكبيرها، أن يأخذ الرجل الضرير إلى الدار، وجعل يخاطبه عن لسان الأمير سيف الدولة، فقال: إن الأمير سيف الدولة، يعتذر إليك، ويقول إنك جئتنا في وقت هو آخر السنة، وقد تقسمت أموالنا الحقوق الكثيرة، والزواروالجيوش، وببابنا رجال كثيرون من الرؤساء وغيرهم، ونحتاج إلى مواساتهم، وتآلفهم بالإحسان إليهم، ولولا ذلك لحققنا لك أملك، فاعذر وسامح،

والعذر عند كرام الناس مأمول، وقد أمرنا لك بكذا وكذا، وقرأ عليه أبو إسحاق بن شهرام ما أمر به الأمير سيف الدولة للرجل، وقائمة المحمول إلى أهله بالموصل، فلم يملك الرجل الضرير بكاءه، ودموعه بعدما سمع قائمة ما تفضَّل به عليه أمير المؤمنين سيف الدولة.

ثم قال الرجل الضرير للأمير سيف الدولة: أيها الأمير قد والله زدت على أملي أضعافاً مضاعفة، ورفعت ذلك درجات، وأوفيت على غناي طبقات، وقضيت حقي وما هو أعظم من حقي، ولقد أعطيت على قدرك العالي العظيم، ولو أعطيتني على قدري لكان عشر معشار ما أمرت به، ولكان كافياً ولمنزلتي وافياً، وليس بإمكاني أن أقدم شكر ما أوليتني من نعيم، ولكنني أسال الله الذي لا تخفى عليه خافية أن يتولى عني شكرك، ويزدك من واسع فضله فإنه قال وقوله الحق: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

وإنني أرجو أيها الأمير أن تتفضل علي السماح لتقبيل يدك الكريمة، فإن تقبيل يدك أفضل عندي من كل عطية، فأذن له في ذلك، فدنا الرجل من الأمير فقبل يده دفعات والدموع تسيل على خديه بدون انقطاع، فخاف الأمير سيف الدولة على الرجل شفقة عليه، فأخذه سيف الدولة إليه، وسارّه بشيء فضحك الرجل الضرير، وقال: أي والله، أي والله أيها الأمير، أمازلت تذكر ذلك أيام كنتم في الموصل؟.

ثم أخذ الرجل إلى الدار التي أعدت له، وقبل انصراف الرجل قال له الأمير سيف الدولة: أقم فيها إلى أن أنظر في أمرك، وتخرج إلى أهلك وعيالك.

وقال أبو إسحاق بن شهرام: والله أيها الأمير،ما سمع بهذا الفعل عن البرامكة ولا غيرها، وقد خشيت على الرجل أن تنشق مرارته بما تفضلتم عليه بعد اليأس وخيبة الأمل فقد كنت عند أبي محمد الصلحي وأبي الحسن المغربي، فجرى كذا وكذا، وقصصت عليه القصة، وخرج الرجل أخزى مخرج، لذلك خفت عليه.

فقال الأمير سيف الدولة: عليّ بالرجلين، فجاء أحدهما قبل الآخر، فسلم وجلس ولم يتكلم بشيء، ولا خاطبه في أمر حتى حضر صاحبه، ثم أقبل عليهما فقال: ويحكما أخبراني ألم أحسن إليكما؟ ألم أكرمكما؟ إذ اصطنعتكما ونوَّهت بكما، وأوفرت أرزاقكما، ورفعت منزلتكما، وخففت الخدمة عليكما، وأسعى بجهدي في قضاء حقوقكما؟.

فأخذا يشكرانه، ويثنيان خيراً، فقال الأمير سيف الدولة: ما أريد هذا إما أن تقولا: نعم أي حصل ذلك أم لم يحصل، فقالا: بلى والله وزيادة.

قال سيف الدولة: أفمن حقي عليكما، ومكافأة ذلك وشكره أن تقطعا عني رجاء الناس فيّ، وتصدانهم عن الأمل، وتؤيسانهم من بري، وتنسباني عندهم إلى التضجر برقاع المؤملين بالخير والإحسان، وتصفاني بالبخل على المستحقين.

أما كان عليكما النصح في الله؟ ولمن أجرى نعمه وإحسانه على من أجرى ذلك على يديه، فماذا عليكما من حرج لو أخذتما رقعة الرجل الضرير الذي توسّم فيكما خيراً مساعدته، فإن أجرى الله له على يدي خيراً كنتما فيَّ شريكين، وإن ضجرت كان الضجر إليّ منسوباً وأنتما بريئان من ذلك،وقد قضيتما حق قصد الرجل لكما، فلا حقه قضيتما، ولا حق الله أديتما، ولا قمتما بحقي في النصح عليكما.

فأقبل الرجلان يعتذران، ويحلفان أنهما ما أرادا إلا خيراً، والتخفيف عن الأمير، وإن له العتبى حتى يرضى، وقد أرادا من الرجل اختصار الرقعة، وما علما أن الرجل خرج آيساً مغموماً، ولوعلما بذلك لقاداه فأخذا الرقعة ليوصلاها إلى الأمير.

ثم أقبل الحاضرون بالثناء على الأمير سيف الدولة، وهم يطلبون العفو عن الرجلين، وإنه لا يوجد على وجه الأرض في زمانك من يعمل مثل عملك في الإحسان والجود والسخاء والكرم، فبارك الله فيك، وأمد في أنفاسك. آمين يا رب العالمين.

من مشاهير الجود والسخاء:

إن الأخلاق الفاضلة والمزايا الكاملة ، من الأخلاق العربية التي خلدت أسماء بعض الذين ضرب بهم المثل، في الجود والكرم، ومن أخلاق الكريم أنه يحب الإيثار على النفس، ويأنف الذل، ويتجافى عن أراذل الأمور وسفاسفها، فتجده عزيز الجانب، ومحبوباً لدي الصغير والكبير، له منزلة رفيعة عالية لدى الخاص والعام.

وفي هذا المجال لمعت أسماء رجال في الجاهلية والإسلام،على مر الشهور والأيام، فصاروا مضرب الأمثال، ففي الجاهلية اشتهر مشاهير من ضرب بهم المثل في الجود والكرم:

حاتم الطائي وهرم بن سنان المري، وكعب بن مامة الإيادي، وعبد الله بن حبيب العنبري، و أوس بن حارثة الطائي، وقتادة بن مسلمة الحنفي،وهاشم بن عبد مناف القرشي، وعبد الله بن جدعان.

وجاء الإسلام مكملاً مكارم الأخلاق، فحثّ المسلمين على أخلاق الجود والكرم، وكان أكرم الناس في الإسلام على الإطلاق، هو رسول الله ﷺ، وكان قدوة عظيمة في الجود والكرم، لأولئك الرجال الذين أثنى عليهم الله في كتابه العزيز، وكان الرسول الكريم ﷺ، أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان المبارك، حين يلقاه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة.

أثر الجود والكرم في النفوس:

لقد ولع العرب بالسخاء والجود والكرم، وكانوا يتفاخرون بنحر الجمال، للقرى والضيف، وصارت تلك الصفات من الأشياء المألوفة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، وكانوا يعدون كثرة النحر دليلاً على السخاء والكرم، فكان الرجلان في الجاهلية يتباريان في الجود والسخاء، فيعقر هذا من إبله، وهذا من غنمه حتى يعجز صاحبه ،وقد ظهر هذا واضحاً في أشعارهم، فمن ذلك قول زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي الحكيم:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لأولهم يوماً إذا قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... ممردون بهاليل إذا اجتهدوا
لو يعدلون بوزن أو مكايلة ... مالوا برضوى ولم يعل بهم أحد
محسدون على ما كان من نعم ... لا ينزع الله منهم ما به حسدوا

وقال زهير بن أبي سلمى، يمدح حصن بن حذيفة بن بدر، على كرمه وجوده:

وأبيض فياض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيته ... قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدينه طوراً وطوراً يلمنه ... وأعيا فما يدرين أين مخا ئله
فأقصرن منه عن كريم مرزءٍ ... عزوم على الأمر الذي هو فاعله

أخي ثــقــة لا تتلف الخمر مالــه ولكـنـه قــد يـهـلـك المـال نائـلـه
تــراه إذا مــا جئتـــه متهلـــلا كأنك تعطيه الـذي أنـت سـائلـه
حذيــفــة ينميه وبــدر كـلاهـما إلى باذخ يـعـلـو عـلى من يطاوله
ومن مثل حصن في الحروب ومثله لإنكــار ضيــم أو لأمــر يحاولــه
بــالضيم والنعمان يحترق نــابـه عـليه فأفضى والسيوف معاقلـه
عـزيـز إذا حــل الحليفان حـولـه بــذي لجـب لجــا تـه وصـواهـلـه

ذلك قـول زهـير بن أبي سـلمى في وصفـه لحصن بن حـذيفة بن بـدر، وقـد وَفَى وصفه ،والمشهـور عـن زهير أنه لا يصف من وصـف من الرجال إلا بما يتصف به من الصفات، ولا يعارض في الكلام، لـذلك قدمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عـلى سائر شعـراء الجاهلية.

وهـذا صناجة العرب، الشاعـر الجاهلي الـذي أدرك الإسلام ولم يسلم، إذا أغراه زعماء قريش بالمال، وصدوه عن سبيل الإسلام، بدعـوى أن الإسلام يحرم الخمر،وكان قد أعد قصيدة في مدح الرسول ﷺ وكرمه وإليك بعض الأبيات من القصيدة التي مدح بها الرسول:

ومــا زلت أبغي المال مذ أنا يافع وليداً وكهلاً حين شبت وأمردا
وأبتذل العيس المرا قيـل تغتـلي مسافة ما بين النجير فصـرخـدا
فإن تسألي عني فيـا رب سـائل حفي عن الأعشى به حيث أصعدا
ألا أيّهـذا السائلي أيــن يممت فإن لها في أهـل يثرب مـوعـــدا
فآليت لا أرثي لها من كــلالــة ولا من حفى حتى تزور محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تريحي وتلقي من فواضله يــدا
نــبي يـرى مــا لا تــرون وذكـره أغــار لعمري في البلاد وانجـدا
لـه صـدقات ما تغـب ونــائـل وليس عطاء اليوم مـانعـه غـدا
أجـدك لـم تسمع وصـاة محمد نبي الإله حين أوصى وأشهـدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
نـدمت عـلى أن لا يكـون كمثلـه وأنك لم ترصـد لمـا كان أرصدا

فإيـاك والـميتات لا تـأكـلنهـا ... ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبـد الأوثـان والله فاعبـدا
وصلي على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمـدا
ولا السائل المحروم لا تتـركنـه ... لعاقـبـة ولا الأسيـر المقيـدا
ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة ... ولا تحسبن المرء يـومـاً مخلـدا
ولا تـقـربن جـارة إن سـرهـا ... عليك حـرام فانكحن أو تـأبـدا

إن من يطالع قصيدة صناجة العرب، هذه أعشى بني قيس ميمون بن قيس بن جندل، يظهر له أن الشاعر كان يعلم ما يدعو إليه الإسلام، من مكارم الأخلاق، إذ ذكر بعض ما يحثّ عليه الإسلام من التزود بزاد التقوى، يندم يوم لا ينفع الندم، وذكر ما يدعو إليه الإسلام، من أن أكل لحم الميتة حرام، وأكل الدم حرام، وما نحر على النصب حرام، وعبادة الأوثان حرام، وحثّ على الصلوات وحذر من عبادة الشيطان، ورد السائل المحروم حرام، واحتقار الضعيف حرام، والزنا حرام وشرب الخمر حرام، كل ذلك ذكره الشاعر في القصيدة التي ذكرنا منها بعض الأبيات، ورغم ذلك مات كافراً.

أزواد الركب:

وكان بعض الرجال يسمون أزواد الركب، فإذا سافر أحدهم حمل زاده وزاد من يرافقه، أو ألم به وهو مسافر لا يرضى أن يأخذ من يصحبه أو يرافقه زاداً، فهو مكفول الزاد، منذ خروجه من بلده حتى يرجع إليها.

ومن هؤلاء أزواد الركب: مسا فر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس، واسمه: ذكوان، وهو شاعر من سادات قريش، وأجوادهم في الجاهلية، مات قبل الهجرة النبوية بعشر سنوات، ومنهم زمعة بن الأسود، ومنهم أبو أمية بن المغيرة، وكلهم من قريش.

كرم قيس بن عاصم المنقري:

ويحكى عن كرم قيس بن عاصم المنقري التميمي، أنه تزوج منفوسة بنت زيد الفوارس الضبي ، فأتته في الليلة الثانية من بنائه بها بطعام، فقال لها: فأين أكيلي؟ فلم تعلم ولم تفهم ما يريد، فأنشأ يقول:

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً أو جار بيت فإنني أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وإني لعبد الضيف من غير ذلة وما بي إلا تلك من شيم العبد

قال: فأرسلت جارية لها مليحة، فطلبت له أكيلاً، وأنشأت تقول:

أبى المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيل إنه لكريم
فبوركت حقاً يا أخا الجود والندى وبوركت ميتاً قد حوتك رجوم

ويروى أن رجلاً من بني القين من قضاعة،جاور قيس بن عاصم المنقري التميمي، فأحسن جواره، ولم ير منه إلا خيراً حتى فارقه، ثم نزل عند جوين الطائي أبي عامر بن جوين ، فوثب عليه رجال من طي فقتلوه وأخذوا ماله ، فقال العباس بن مرداس السلمي يهجوهم ، ويمدح قيس بن عاصم :

لعمري لقد أوفى الجواد ابن عاصم وأحصن جاراً يوم يحدج بكره
أقام عزيزاً منتدى القوم عنده فلم ير سوءات ولم يخش غدره
أقام بسعد يشرب الماء آمنا ويأكل وسطاها ويربض حجره
فإنك إذ بادلت قيس بن عاصم جوينا لمختار المنازل شره
فأصبح يحدو رحله بمفازة وماذا عدا جاراً كريماً وأسره
يظل بأرض الغدر يأكل عهده جوين وشمخ خار بين بوجره
يذمان بالأزواد والزاد محرم سروقان من عرق شروراً وفجره

والشاعر العباس بن مرداس السلمي، شاعر فارس من سادات قومه، وأمه تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد (الخنساء) الشاعرة، أدرك الجاهلية والإسلام،

فهو من المخضرمين، أسلم قبيل فتح مكة المكرمة، وكان من المؤلَّفة قلوبهم، يدعى فارس العبيد ـ بالتصغير ـ فرسه، توفي في العام الثامن عشر من الهجرة النبوية.

كرم الشاعر لبيد العامري:

لبيد بن ربيعة بن مالك العامري أبو عقيل، أحد الشعراء البارزين الفرسان الشجعان، الأشراف الأجواد في الجاهلية والإسلام ، أدرك الإسلام، فوفد على النبي ﷺ في العام التاسع للهجرة النبوية، فأسلم وحسن إسلامه، وكان من المؤلفة قلوبهم، ولما أسلم ترك الشعر، ويقال إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قال ابن قتيبة: لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو قوله:

ألحمد لله إذ لم يأتني أجلي ... حتى كساني من الإسلام سربالا

وقال غيره بل هو قوله:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، إلى عامله المغيرة بن شعبة بالكوفة: أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه في الإسلام، فأرسل المغيرة إلى الأغلب بن عمرو بن عبيدة العجلي، وهو كذلك من الشعراء المخضرمين، أسلم فحسن إسلامه، وكان ممن جاهد مع سعد بن أبي وقاص فنزل الكوفة واستشهد في وقعة نهاوند، فقال له المغيرة أنشدني:

فقال له الأغلب العجلي:

لقد طلبت هيّناً موجودا ... أرجزاً تريد أم قصيدا؟!

ثم أرسل المغيرة بن شعبة إلى لبيد بن ربيعة العامري، فقال له المغيرة: أنشدني، فقال لبيد : إن شئت ما عفي عنه (يعني شعره الذي قاله في الجاهلية) قال له المغيرة: لا، بل ما قلته في الإسلام.

فانطلق لبيد إلى بيته، فكتب سورة البقرة في صحيفة، ثم أتى بها إلى المغيرة ابن شعبة، فقال لبيد: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر.

فكتب المغيرة بن شعبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ يخبره بخبر لبيد ابن ربيعة، فأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁، بأن ينقص من عطاء الأغلب العجلي خمسمائة درهم، وتعطى لبيداً، فيكون عطاء لبيد ألفين وخمسمائة، وعطاء الأغلب ألفاً وخمسمائة.

فكتب الأغلب العجلي إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: أينقص عطائي إن أطعتك؟ فرد عليه الخمسمائة وأقرَّ لبيداً على الألفين والخمسمائة.

معاوية ينقص من عطاء لبيد:

فلما كان زمن معاوية بن أبي سفيان، وأراد أن يجعل عطايا الناس ألفين قال معاوية للبيد: هذان الفودان (يعني الألفين) فما هذه العلاوة؟.

فقال لبيد لمعاوية: أموت ويبقى الفودان والعلاوة، وإنما أنا هامة اليوم أو غد، فرق له معاوية وترك عطاءه على ما كان عليه أيام عمر بن الخطاب، فمات لبيد، قبل أن يستلم عطاءه، بعد زمن يسير ولم يقبضها.

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد وغيره: أن لبيداً كان شريفاً جواداً شجاعاً في الجاهلية والإسلام، وكان نذر أن لا تهب الصَّبَا إلا نحر وأطعم،وأن الصَّبَا هبّت يوماً، وهو بالكوفة مقتر مملق فقير لا يملك شيئاً.

موقف الوليد من لبيد:

فعلم بذلك الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان أميراً عليها لعثمان بن عفان، فخطب الناس، فقال: إنكم قد عرفتم نذر أبي عقيل، يقصد لبيد بن ربيعة، وما أخذ به نفسه من النذر، فأعينوا أخاكم لبيداً ثم نزل، فبعث إليه بمائة ناقة وأسرع الناس فبعثوا إليه بما تيسر فقضى نذره، وفي خبر آخر فاجتمعت عنده ألف راحلة، وكتب إليه الوليد بن عقبة بالأبيات التالية:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه	إذا هبت رياح أبي عقيل
أغرّ الوجه أبيض عامري	طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفري بحلفتيه	على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه	ذيول صبا تجاوب بالأصيل

فقال لبيد بن ربيعة لابنته: أجيبيه، فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر، فأنشدت ابنته تقول فأحسنت القول وأجادت:

إذا هبت رياح أبي عقيل ... دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشمياً ... أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركباً ... عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيراً ... نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد ... وظني بابن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها لبيد بن ربيعة: لقد أحسنت لولا أنك استزدته، فقالت : والله ما استزدته إلا لأنه ملك ، ولو كان سوقة لم أفعل.

وقالت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: رحم الله لبيداً حيث يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

ولبيد بن ربيعة العامري، يعد من الصحابة رضي الله عنه، ويعد من المعمِّرين قيل إنه عاش عشرين ومائة عام نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام ، مثل شاعر الرسول حسان بن ثابت الأنصاري.

كل نعيم زائل إلا نعيم الجنة :

لقد كان من نِعَمِ الله على لبيد بن ربيعة العامري، لمَّا أكرمه الله بنور الإيمان، وجه همه إلى كتابِ الله فقال:

ألحمد لله إذ لم يأتني أجلى ... حتى كساني من الإسلام سربالا

ولما حضرت الوفاة لبيد بن ربيعة قال لابنه : أي بني إن أباك لم يمت، ولكن توفي (أي إن أباك قبضت روحه ، ولم يمت ذكره).

فإذا قبض أبوك فأغمضه ، واستقبل له القبلة، وسجّه بثوبه، ولا تصح عليّ صائحة ولا تبك عليَّ باكية، وانظر جفنتي التي كنت أصنعها فأجد صنعتها ثم احملها إلى

مسجدك لمن كان يغشاني عليها، فإذا سلم الإمام من الصلاة فقدمها للمصلين، فإذا فرغوا من الطعام فقل لهم: احضروا جنازة أخيكم لبيد ثم أنشأ يقول:

فـإذا دفـنـت أبـاك فـاْجعل فـوقـه خشبـاً وطـينـا
وصفـائحـاً صمّـاً رواسـبـهـا يسـددن الغضونـا
ليقين حـرّ الوجه سفسـاف الـتـراب ولـن يقـينـا

ومن شعر زهير في المدح:

وقال الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى، الذي مدح هرم بن سنان، والحارث بن عوف:

وأبيـض فيـاض يـداه غمامة على معتفيه مـا تغبّ نوافلـه
يُـفَـدِّيـنَـهُ طـوراً وطوراً يلمنه وأعيا فمـا يـدرين أين مخاتله
أخي ثقة لا تهلك الخمر مالـه ولكـنه قـد يهلك المـال نائـلـه
تـراه إذا مـا جئتـه متهلـلاً كأنـك تعطيه الذي أنت نائله
ترى الجند والأعراب يغشون بابه كما وردت ماء الكُلاب هواملـه
إذا مـا أتوا أبوابـه قـال مرحبـاً لجُوا الباب حتى يأتيَ الجوع قاتله
ولو لـم يكن في كفه غير نفسه لجـاد بهـا فليتقِ الله سائلـه

وضرب المثل بكرم حاتم الطائي:

وهذا حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني أبو عدي وأبو سفانة، الذي يضرب به المثل في الجود والكرم، قيل توفي في السنة الثامنة بعد مولد الرسول محمد ﷺ، وقد أدركت سفانة وعدي الإسلام فأسلما، وكانت سفانة أوتي بها الرسول ﷺ ضمن أسارى طيء، فمنّ عليها الرسول وأنعم وشجعت سفانة أخاها عديًّا للإسلام، لما رأت من نبل أخلاق الرسول وكرمه.

وعن كميل بن زياد النخعي، عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا سبحان الله: ما أزهد كثيراً من الناس في الخير، عجبت لرجل يجيئه أخوه في حاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كنا لا نرجو جنة، ولا نخاف ناراً، ولا ننتظر ثواباً، ولا نخشى عقاباً، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاة**».

ومن جـود وكـرم حاتم :

فقام رجـل فقال: فـداك أبي وأمي يا أمـير المؤمنين:أَسَمِعْتُهُ من رسـول الله ﷺ، قال: نعـم، وما هـو خير منه، لما أتينا بسبايا طيء كانت في النساء سفانة بنت حاتم الطائي، فلما تكلمت أعـجبت بفصاحتها فقالت:

يا محمد هـلك الـوالـد، وغـاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عـني فلا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومه، وفي رواية، فإني بنت سيد قـومي، كان أبي يفـك العاني، ويحمي الـذمار، ويقري الضيف، ويشبع الجائع، ويفـرج عن المكروب، ويطعـم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا بنت حاتم الطائي.

فقال لها الرسـول ﷺ: «**يا جارية هـذه صفة المـؤمن، لو كان أبوك إسـلاميّاً لتـرحمنا عـليه، خـلّوا عـنها، فإن أباها كان يحبّ مـكارم الأخـلاق، والله يحبّ مـكارم الأخـلاق**».

ولما بلغ حاتماً قولُ المتلمس حيث يقول:

وأعـلم عـلم حـق غـيـر ظـن ... وتقـوى الله مـن خـيـر العتاد
لحفـظ المـال خـير من بـغـاه ... وطـوفي في الـبـلاد بغـير زاد
قليـل المـال تصلحـه فيبقى ... ولا يبـقى الكثير عـلى الفساد

قال حاتم : مال قطع الله لسانه، حرض الناس على البخل، أفلا قال:

فلا الجود يفني المال قبل فنائه ... ولا البخل في مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقاً بعيش مقـتـرٍ ... لكل غد رزق يعـود جـديد
ألـم تـر أن الـرزق غـاد ورائـح ... وأن الـذي يعطيك ليس بعيـد

إن لسان حاتم الطائي ينطق بما يجيش في نفسه، من محاسن الأخلاق، ونفس الكريم كريمة، وحسبه ثناء قول رسول الله ﷺ: (**يا جارية هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك إسـلاميًّا لترحمنا عليه، إرحموا عـزيـز قـوم ذل، خلّـوا عـنها فإن أباها كان يحب مـكارم الأخـلاق، والله يحـب مـكارم الأخـلاق**).

جود وسخاء أم حاتم :

لقد جاء عن جود وسخاء أم حاتم الطائي، ما أخبر به ابن دريد محمد بن الحسن ، قال: اخبرنا الحرمازي عن العباس بن هشام عن أبيه ، قال:

كانت عتبة بنت عفيف، وهي أم حاتم الطائي ذات يسار، وكانت من أسخى الناس وأقراهم للضيف، وكانت لا تطيق شيئا تملكه، فلما رأى إخوتها إتلافها لمالها حجروا عليها، ومنعوها مالها، فمكثت دهراً لا يدفع إليها شيء من مالها حتى ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم ذلك، فأعطوها صر مة من إبلها الصرمة: القطعة من الإبل ما بين العشرة إلى الثلاثين أو إلى الأربعين، وقيل ما بين العشرة إلى الخمسين) لسان العرب الجزء الثاني عشر صفحة ٣٣٤ .

فجاءتها امرأة من هوازن، كانت تأتيها في كل سنة تسألها، فقالت لها: دونك هذه الصرمة فخذيها، فو الله لقد عضني الجوع ما لا أمنع معه سائلاً أبداً ثم أنشأت تقول :

لعمري لقدما عضني الجوع عضة ... فآليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا اللائمي اليو م أعفني ... فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

فماذا عسا كم أن تقولوا لأختكم ... سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا

وماذا ترون اليو م إلا طبيعة ... فكيف بتركي يا ابن أم الطبا ئعا

جود سفانة وكرمها :

وقال ابن الكلبي: وحدثني أبو مسكين قال: كانت سفانة بنت حاتم الطائي من أجود نساء زمانها ، وكان أبوها حاتم يعطيها الصرمة بعد الصرمة من إبله، فتعطيها الناس، فقال لها أبوها يوماً من الأيام: يا بنية، إن القرنين إذا اجتمعا في المال أتلفاه ، فإما أن أعطي وتمسكين، أو أمسك وتعطين أنت، فإنه لا يبقى على هذا شيء.

ومما يروى عن حاتم الطائي أنه كان إذا أهلَّ الشهر الأصم : شهر رجب (وهو من الأشهر الحرم)، قال الخليل بن أحمد الفراهيدي، إنما سمي شهر رجب بالشهر الأصم، لأنه كان لا يسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال، ولا قعقعة سلاح ، لأنه من الأشهر الحرم.

من مواقف جود حاتم وسخائه:

كان حاتم الطائي إذا أهلَّ الشهر الأصم، الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية، ينحر كل يوم عشراً من الإبل، فأطعم الناس واجتمعوا إليه، فكان ممن يأتيه من الشعراء: الحطيئة وبشر بن أبي حازم.

ويقال إن حاتماً كان منذ نعومة أظفاره يحبّ الجود والكرم، وكان يخرج طعامه، فإن وجد من يأكل معه أكل، وإن لم يجد حزن وطرحه، فلما رأى أبوه أنه يهلك طعامه قال له: الحق بالإبل، فخرج إليها ووهب له جارية وفرساً وفلوها، فلما أتى الإبل طفق يبغي الناس فلا يجدهم، ويأتي الطريق فلا يجد عليه أحداً.

فبينما هو كذلك إذ أبصر بركب على الطريق، فأتاهم فقالوا: يا فتى هل من قرى؟،فقال حاتم: تسألونني عن القرى وقد ترون الإبل؟. وكان الذي أبصر بهم عبيد ابن الأبرص المتوفى حوالي عام ٢٥ قبل الهجرة النبوية، وبشر بن أبي حازم المتوفى حوالي عام ٢٢قبل الهجرة النبوية، والنابغة الذبياني زياد بن معاوية المتوفى حوالي عام ١٨ قبل الهجرة النبوية، وكانوا يريدون الملك النعمان فنحر لهم ثلاثاً من الإبل.

فقال عبيد بن الأبرص: إنما أردنا القرى اللبن، وكانت تكفينا بكرة واحدة إذا كنت متكلفاً لنا شيئاً، فقال حاتم: قد عرفت، ولكني رأيت وجوها مختلفة، وألوانا متفرقة، فظننت أن البلدان غير واحدة، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه.

فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها، وذكروا فضله، فقال حاتم: أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل عليّ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقتسموها، ففعلوا فأصاب كل رجل منهم تسعة وتسعين بعيراً، وواصلوا سفرهم إلى الملك النعمان.

وإن أبا حاتم سمع بما فعل حاتم، فأتاه فقال له: أين الإبل؟ فقال حاتم: يا أبتِ طوقتك طوق الحمامة مجد الدهر، وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثنى به علينا عوضاً من إبلك.

فلما سمع أبوه ذلك قال: أبإبلي فعلت ذلك؟. قال حاتم: نعم، قال أبوه: والله لا أساكنك أبداً، فخرج أبوه بأهله، وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوها، فقال

يذكر تحول أبيه :

وإني لعف الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوا فقه شكلي

وشكليَ شكل لا يقوم لمثله من الناس إلا كل ذي نيقة مثلي

وأجعل مالي دون عرضيَ جنة لنفسي واستغني بما كان من فضلي

وما ضرني أن سار سعد بأهله وأفرد ني في الدار ليس معي أهلي

سيكفي ابتنائي المجد سعد بن حشرج وأحمل عنكم كل ما ضاع من ثقل

ولي عند بذل المال في المجد صولة إذا الحرب أبدت عن نواجذها العضل

وغزت فزارة طيئاً وعليهم حصين بن حذيفة، وخرجت طيء في طلب القوم، فلحق حاتم رجلاً من بدر، فطعنه، ثم قال له: إن مر بك أحد فقل له: أنا أسير حاتم، فمر به أبو حنبل فقال: من أنت؟ قال: أنا أسير حاتم، فقال له: إنه يقتلك، فإن زعمت لحاتم، أو لمن سألك أني أسيرك، صرت في يدي خليت سبيلك، فلما رجعوا قال حاتم: يا أبا حنبل: خل أسيري، فقال أبو حنبل: أنا أسرته، فقال حاتم: قد رضيت بقوله، فقال : أسرني أبو حنبل فقال حاتم:

إن أبا الجون لم يك غادراً ألا من بني بدر أتتك الغوائل

ومما يروى من أخبار حاتم الطائي، أن ماوية بنت عفزر كانت ملكة، وكانت لا تتزوج إلا من أرادت، فبعثت غلماناً لها وأمرتهم أن يأتوها بأجمل وأوسم من يجدونه بالحيرة،فجاؤوها بحاتم، فوجد عندها النابغة، ورجلاً من الأنصار من النبيت، فقالت لهم: انقلبوا إلى رحالكم، وليقل كل واحد منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه، فإني أتزوج أكرمكم وأشعركم.

أكرم وأسخى الثلاثة :

فانصرفوا، ونحر كل واحد منهم جزوراً، ولبست ماوية بنت عفزر ثياباً لأمة لها وتبعتهم، فأتت النبيتي فاستطعمته من جزوره، فأطعمها ثيل جمله،أي أردأ شيء في الجمل، فأخذته ، ثم أتت النابغة فاستطعمته، فأطعمها ذنب جزوره، فأخذته،

ثـم أتت حاتماً،وقد نصب قدره فاستطعمته، فقال لها:

قفي حتى أعطيك ما تنتفعين به إذا صار إليك، فانتظرت فأطعمها قطعاً من العجز والسنام، ومثلها من المخدش، أي من كاهل البعير، وهو عند الحارك، والحارك أعلى الظهر ثم انصرفت.

وأرسل كل واحد منهم إليها ظهر جمله،وأهدى حاتم إلى جاراتها مثل ما أرسل إليها، ولم يكن يترك جاراته إلا بهدية، وصبحوها فاستنشدتهم فأنشدها النبيتي فقال:

هـلّا سـألت النبيتيين ما حسبي ... عند الشتاء إذا ما هبت الريـح
ورد جـازرهم حرفاً مصرمـة ... في الرأس منها وفي الأضلاع تمليح
وقـال رائدهم سـيان ما لهـم ... مثلان مثل لمن يرعى وتسـريح
إذا اللقاح غـدت ملقى أصرتها ... ولا كريم من الولـدان مصبوح

فقالت له: لقد ذكرت مجهدة، ثم استنشدت النابغة فأنشدها يقول:

هـلا سألت بني ذبيا ن ما حسبي ... إذا الدخان تغشى الأشمط البر ما
وهـبت الـريح من تلقاء ذي أرل ... تزجي مع الليل من صرادها الصرما
إني أتمـم أيساري وأمنحـهـم ... مثنى الأيادي وأكسو الجفنة الأدما

فلما أنشدها قالت: ما ينفك الناس بخير ما ائتدموا، ثم التفتت إلى حاتم، فقالت: يا أخا طيء أنشدني فأنشدها قوله:

أماوي قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتني في طلابكم العذر
أماوي إن المال غـاد ورائـح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إنـي لا أقـول لسـائل ... إذا جاء يوماً: حلّ في مالنا النذر
أمـاوي إما مـانـع فمـبين ... وإمـا عطـاء لا ينهنهه الـزجـر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
إذا أنا دلاني الـذين أحبهـم ... بملحودة زلـج جوانبها غـبـر
وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم ... يقولون قـد دمّى أنا ملنا الحفـر
أماوي إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

ترى أن ما أنفقت لم يك ضرني ... وإن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إني رب واحد أمه ... أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوام لو أن حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وفر
فإنيَ لا آلو بما لي صنيعة ... فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العاني ويؤكل طيباً ... وما إن تعرته القداح و لا الخمر
ولا أظلم ابن العم إن كان أخوتي ... شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... وكلاً سقيناه بكأسهما العصر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي ... يجاورني إلا يكون له ستر
بعينيَ عن جارات قوميَ غفلة ... وفي السمع مني عن حديثهم وقر

فلما فرغ حاتم الطائي من إنشاده، دعت بالغداء، وكانت قد أمرت إماءها أن يقدمن منه إليهم، فنكس النبيتي رأسه والنابغة، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمى بالذي قدم إليهما، وأطعمهما مما قدم إليه، فتسلل النابغة وصاحبه لِواذا، وقالت: إن حاتماً أكرمكم وأشعركم.
فلما خرج النابغة وصاحبه طلبت ماوية من حاتم أن يخلِّي سبيل امرأته فأبى، فزودته وردته، ولما ماتت زوجته خطبها فتزوجها فولدت له عدياً، فأسلم عدي وَحَسُنَ إسلامه، وكان من الأجواد العقلاء، وكان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، وقد أبلى في حروب الردة بلاء حسناً.

هذا الشبل من ذاك الأسد:

وقال ابن الأثير في شأنه: إنه، أي عدي بن حاتم خير مولود في أرض طيء وأعظم بركة عليهم ، وكان إسلامه في العام التاسع للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.
وشهد عدي بن حاتم فتح العراق، وسكن الكوفة ، وشهد الجمل وصفين والنهروان مع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفقئت عينه يوم صفين ومات بالكوفة عام ٦٨هـ، وعاش أكثر من مائة عام، وروى عنه المحدثون ٦٦ حديثاً.

ويروى أن ركباً من بني أسد بن قيس أقبل يريد النعمان بن المنذر، فلقوا حاتماً، فقالوا له: إنا تركنا قومنا يثنون عليك خيرا،وقد أرسلوا إليك رسولاً برسالة، قال: وما هي؟.

فأنشده الأسديون شعراً لعبيد، ولبشر يمدحانه، وأنشد القيسيون شعراً للنابغة، فلما أنشدوه قالوا: إنا نستحيي أن نسألك شيئاً، وإن لنا لحاجة، قال حاتم: وما هي؟.

حاتم يقدم أعز ما يملك:

قالوا صاحب لنا قد أرجل، فقال حاتم: خذوا فرسي هذه فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها وربطت الجارية فلو الفرس بثوبها، فأفلت فاتبعته الجارية، فقال حاتم: ما تبعكم من شيء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والجارية والفلو.

وإن الركب مرّ في سيره، فورد على أبي حاتم فعرف الفرس والفلو، فقال: ما هذا معكم؟ فقالوا مررنا بغلام كريم فسألناه فأعطى الجسيم، ذلك موقف حاتم الجواد الكريم.

لقد عمل كل ذلك ولا زال حاتم غلاماً، لأن الجود والكرم والسخاء كلها صفات أخلاق عظيمة تجري في جسم حاتم الطائي جريان الدم في العروق.

الطبع يغلب التطبع:

ومما يروى من كرم حاتم وسخائه، أن ماوية كانت عند حاتم زماناً، وإن ابن عم لحاتم كان يقال له مالك قال لها: ما تصنعين بحاتم؟ فو الله لئن وجد شيئا ليتلفنَّه، وإن لم يجد ليتكلفن، وإن مات ليتركن ولده عيالاً على قومك، فقالت ماوية زوجة حاتم: صدقت إنه لكذلك.

وكان النساء ـ أو بعضهن ـ يطلّقن الرجال في الجاهلية ،وكان طلاقهن، إن كنّ في بيت من شعر حوّلن الخباء، فإن كان بابه قبل المشرق حوّلنه قبل المغرب، وإن كان بابه من قبل اليمن حوّلنه قبل الشام، فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلّقته فلم يأتها.

وإن ابن عم حاتم قال لماوية وكانت أجمل نساء زمانها: طلّقي حاتماً وأنا أتزوّجك، وأنا خير لك منه، وأكثر مالاً وأنا أمسك عليك وعلى ولدك، فلم يزل بها حتى طلّقت حاتماً، فأتاها حاتم وقد حوّلت باب الخباء، فلما رآها

حاتم حوّلت باب خبائها قال لولده عدي: يا عدي أما ترى أمك عدى عليها، ودفعت إلى ذلك، فقال عدي بن حاتم: لا أدري غير أنها قد غيرت باب الخباء، وكأنه لم يلحن أي لم يفطن لما قال، فدعاه فهبط به بطن واد، وجاء قوم فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون من قبل، فتوافوا خمسين رجلاً، فضاقت بهم ماوية ذرعاً، وقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك فقولي له: إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا خمسين رجلاً فأرسل بناب، الناب الناقة المسنة، نقرهم، ولبن نغبطهم، وهو ما يشرب بالعشي، لأن ما يشرب بالصباح يسمى الصبوح، وقالت لجاريتها: انظري جنبه وفمه، فإن شافهك بالمعروف فاْقبلي منه، وإن ضرب بليته على زوره وأدخل يده في رأسه فاْقفلي ودعيه، والزور أعلى وسط الصدر.

فلما أتت الجارية مالكاً وجدته متوسداً وطباً (الوطب سقاء اللبن) وجمعه أوطب، ووطاب وأوطاب، وجدته متوسدا وطباً من لبن،وتحت بطنه آخر، فأيقظته فأدخل يده في رأسه وضرب بلحيته على زوره، فأبلغته ما أرسلتها به ماوية، وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم.

فقال لها: إقرئي عليها السلام، وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً فيه، فما عندي من كبيرة قد تركت العمل، وما كنت لأنحر صفية غزيرة بشحم كلاها، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم، (الصفية الناقة الصغيرة).

فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت منه، وما قال، فقالت: ائْتِ حاتماً فقولي له: إن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا، ولم يعلموا بمكانك فأرسل إلينا بناب ننحرها ونقرهم، وبلبن نسقيهم، فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك، فأتت الجارية حاتماً فصرخت به فقال حاتم: لبيك قريب دعوت، فقالت : إن ماوية تقرأ عليك السلام، وتقول لك:إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، فأرسل إليهم بناب ننحرها، ولبن نسقيهم، فقال: نعم وأبي.

ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنتين من عقالهما، ثم صاح بها حتى أتى الخباء فضرب عراقيبهما، فطفقت ماوية تصيح وتقول: هذا الذي طلقتك فيه، تترك ولدك وليس لهم شيء، فقال حاتم:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذاك الزمان بيننا يتردد

يرد علينا ليلة بعد يومها فلا نحن ما نبقى ولا الدهر ينفد

لنا أجل إما تناهى أمامه فنحن على آثارها نتورد

بنو ثعل قومي فما أنا مدع سواهم إلى قوم وما أنا مسند

بدرئهم أغشى دروء معاشر ويحنف عني الأبلخ المتعمد

فمهلاً فداك اليوم أمي وخالتي فلا يأمرني بالدنية أسود

على حين أن ذكيت واشتد جانبي أسام التي أعيت إذا أنا أمرد

فهل تركت قبلي حضور مكانها وهل من أتى ضيماً وخسفاً مخلد

ومعتسف بالرمح دون صحابه تعسفته بالسيف والقوم شهد

فخر على حر الجبين وذاده إلى الموت مطرور الوقيعة مذود

فما رمه حتى أزحت عويصه وحتى علاه حالك اللون أسود

فأقسمت لا أمشي على سر جارتي يد الدهر ما دام الحمام يغرد

ولا أشتري مالاً بغدر علمته ألا كل مال خالط الغدر أنكد

إذا كان بعض المال رباً لأهله فإني بحمد الله مالي معبد

يفك به العاني ويؤكل طيباً ويعطى إذا ضن البخيل المصرد

إذا ما البخيل الخب أخمد ناره أقول لمن يصلى بناريَ أوقدوا

توسع قليلاً أو يكن ثم حسبنا وموقدها البادي أعف وأحمد

كذاك أمور الناس راض دنية وسام إلى فر العلا متورد

فمنهم جواد قد تلفت حوله ومنهم لئيم دائم الطرف أقود

وداع دعاني دعوة فأجبته وهل يدع الداعين إلا اليلندد

الإيثار على النفس:

ويروي ملحان ابن أخي ماوية، امرأة حاتم الطائي، قال: قلت لعمتي ماوية: حدثيني ببعض عجائب حاتم، فقالت: كل أمره عجب، فعن أية تسأل؟ قلت: حدثيني ما شئت. قالت: أصابت الناس سنة، فأذهبت الخف والظلف، فإني وإياه ليلة قد أسهرنا الجوع، قالت فأخذ عدياً وأخذت سفانة، وجعلنا نعلّلهما حتى ناما.

ثم أقبل إليَّ يحدثني ويعلّلني بالحديث كي أنام، فرققت له لما به من الجهد، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي أنمت؟ مراراً، فلم أجب، فسكت فنظر في فتق الخباء، فإذا شيء قد أقبل فرفع رأسه، فإذا امرأة فقال: ما هذا؟.

فقالت: يا أبا سفانة، أتيتك من عند صبية يتعاورون كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضريني صبيانك، فو الله لأشبعنهم، قالت ماوية: وقمت مسرعة فقلت: بماذا يا حاتم؟ فو الله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعن صبيانك مع صبيانها هذه الليلة.

فلما جاءت المرأة بصبيانها قام حاتم إلى فرسه فذبحها، ثم قدح ناراً، ثم أجَّجها، ثم دفع إليها شفرة فقال: اشتوي وكلي، ثم قال: أيقظي صبيانك، قالت: فأيقظتهم، ثم قال: والله إن هذا اليوم تأكلون وأهل الصرم حالهم مثل حالكم، فجعل يأتي الصرم بيتاً بيتاً فيقول: انهضوا عليكم بالنار، قالت: فاجتمعوا حول تلك الفرس وتقنع بكسائه فجلس ناحية، فما أصبحوا ومن الفرس على الأرض قليل ولا كثير، إلا عظم أو حافر، وإنه لأشد جوعاً منهم، وما ذاقه، إنه الإيثار على النفس.

تلك كانت أخلاقه، وتلك كانت صفاته وسجاياه، وذلك كان سخاؤه وكرمه، وبذلك استحق أن يكون مضرب الأمثال.

جود هرم بن سنان وكرمه:

هو هرم بن سنان أبي حارثة المري، من مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وهو من أجواد العرب في الجاهلية، وهو ممدوح الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، اشتهر هو وابن عمه: الحارث بن عوف بن أبي حارثة بدخولهما في الإصلاح بين عبس وذبيان.

السخاء والإيثار:

وجاء في أمثال العرب قولهم: أجود من كعب بن مامة، هو كعب بن مامة ابن عمرو بن ثعلبة الإيادي، وكان مامة أحد الثلاثة الذين يضرب بهم المثل في الجاهلية، ومن حديث كعب بن مامة هذا:

أنه خرج في ركب فيهم رجل من النمر بن قاسط، فضلوا الطريق فتصافنوا ماءهم، وهو أن توضع حصاة في الإناء الذي يشربون به الماء ثم يصب فيه من الماء ما يغمر الحصاة، وتلك الحصاة هي المقلة فيشرب كل إنسان بقدر واحد.

والمقلة: حصاة القسم، توضع في الإناء إذا قل الماء في السفر، ثم يصب عليه الماء حتى يغمر الحصاة، فيعطى كل سهمه، ويقال تصا فن القوم الماء بالمقلة.

فقعد القوم للشرب، فلما دار الإناء الذي فيه الماء، فانتهى إلى كعب بن مامة فأبصر النمري يحدد النظر، ولسان حاله يريد قسم كعب بن ما مة، فآثره بنصيبه من الماء، وقال كعب للساقي: اسق أخاك النمري.

فشرب النمري نصيبه ونصيب كعب بن مامة اليوم الأول من الماء، ثم نزلوا من غدهم المنزل الآخر، فتصا فنوا بقية مائهم، فنظر إليه النمري كنظره بالأمس، فقال كعب بن مامة كقوله بالأمس للساقي: اسق أخاك النمري، فشرب النمري نصيب كعب بن مامة ونصيبه.

ولما أراد القوم أن يرحلوا، قالوا لكعب بن مامة ارتحل، فلم يكن به قوة للنهوض من شدة العطش، وكانوا قد اقتربوا من الماء، فلم يستطع كعب الرد لما به من الضعف، فلما يئسوا منه تركوه وحيداً في الصحراء، فخيلوا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله وتركوه مكانه فمات عطشاً، فقال أبوه مامة يرثيه:

ما كان من سوقة أسقي على ظمإ ... خمراً بماء إذا ناجودها بـرد
من ابن مامة كعب حين عيا بـه ... ذوو المنية إلا حـرة وقـد
أوفى على الماء كعب ثم قيل لـه ... رد كعب إنك وارد فما ورد

إنها الكرامة والأخلاق الحميدة والإيثار على النفس، إنه السخاء الذي خلد ذكر صاحبه في سجل الخالدين، وأين نحن من تلك الأخلاق، والإسلام يحثّنا عليها

ولنا فيها من الأجر والثواب العظيم الله عالم به؟ والله يقول في كتابه العزيز: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سورة سبأ: ٣٩].

ولقد فهم أخلاق الإيثار أولئك الأنصار، وطبقوه بفضل كرم الله عليهم وتوفيقه ، في الواقع العملي، بفضل الله وتوفيقه أن أكرمهم بنور الإيمان، وجعلهم إخوة ، ألف بين قلوبهم بفضله وعونه وتوفيقه، والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ بها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

ولم يعرف تأريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث الأنصار، واستقبالهم للمهاجرين المؤمنين بهذا الحبّ الكريم،وبهذا البذل السخي وبهذه المشاركة الرضية، وقد خلد الله تلك الخصال العظيمة في كتابه العزيز، حيث يقول في شأن الأنصار: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحشر: ٩].

فكانوا رضي الله عنهم يتسابقون إلى الإيواء، واحتمال الأعباء حتى ليروى أنه من كثرة ما يتزاحمون رغبة في رضاء الله سبحانه وتعالى، لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، أي بالاقتراع ،لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين من الأنصار أكثر من المهاجرين.

وكانوا رضوان الله عليهم، لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، مما ناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال يختصون به من فيء، فلا يجدون في صدورهم شيئاً، لا حسداً ولا ضيقاً، وإنما كانت أنفسهم مطمئنة، وقلوبهم مملوءة إيماناً وطهارة.

تلك هي الصورة الوضيئة الصادقة، التي تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، ولقد تفرَّدت تلك المجموعة من البشر بتلك الخصال والصفات التي جعلتهم نماذج للاقتداء، إذ غيّر الإيمان سلوكياتهم وطبعهم بطابع السمو البشري، فأحبوا الإسلام وأحبوا رسول الإسلام، وأحبوا المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم الذين

هاجروا إليهم فراراً بدينهم، وأنسوهم بمعاملتهم النموذجية، ما فقدوا من المال والأهل والولد، بسبب طغيان أهل مكة المكرمة.

إن معاملة الأنصار للمهاجرين تعتبر قمة في سبيل الترابط الإيماني، الذي يمثل التلاحم والترابط المبني على أساس إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، وإنه لا يصلح آخر هذه الأمة التي جعلها الله أمة وسطاً إلا بما صلح به أولها.

فأين نحن اليوم وقد تهيأت جميع الوسائل، وتمهدت لنا جميع السبل، وقد واكب ذلك كثير من الاكتشافات والاختراعات، والرقي الحضاري، وكان من المنطق أن يصاحب تقارب الأشباح بتآلف الأرواح، وكأني بلسان حالنا يقول: تحسبنا جميعاً وقلوبنا شتّى.

ومما يحكى من إيثار المهاجرين، ما روي في الصحيح، أن النبي ﷺ دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

السخاء والكرم:

ما هذا السخاء والكرم، الذي أبداه يزيد بن عبد المدان، إنه الشرف والسؤدد الذي بقيت تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، وقد حبّذ الإسلام تلك الأخلاق النبيلة، وحث عليها، فقال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

إنه نداء عام للذين آمنوا، في كل وقت وفي كل جيل،يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيديهم تشمل ما كسبته أيديهم من الحلال الطيب، ومما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغيره، ومما يخرج من الأرض ويشمل جميع المعادن مثل الذهب والفضة والحديد والنحاس والألماس، والزئبق والبترول والغاز، ومن ثم فالنص يستوعب جميع أنواع المال، ما كان معهوداً على عهد النبي ﷺ، أو ما ٱستجد بعد ذلك ،فالنص شامل جامع لا يندّ منه مال مستحدث في أي زمان.

وقد وردت الروايات بسبب النزول لهذه الآية ابتداء، نذكره لاستجلاء الأمر واستحضار حقيقة الحياة التي كان القرآن يواجهها،وحقيقة الجهد الذي بذله لتهذيب النفوس ورفع مستواها إلى مستوى سموه وعلوه.

أخرج ابن جرير الطبري بإسناده ،عن البراء بن عازب ﷺ، قال: نزلت الآية الآنفة الذكر في الأنصار،كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخيل: (أي قطع ثماره)، أخرجت من حيطانها وبساتينها البسرفعلقوه بحبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل منه فقراء المهاجرين، فيعمد الرجل منه إلى الحشف (أي أردأ التمر) فيدخله مع قناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك تنبيهاً وتهذيباً وإرشاداً: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧].

وأخرج ابن أبي حاتم بإسناده عن طريق آخر عن البراء بن عازب ﷺ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفّة ليس لهم طعام.

فكان أحدهم إذا جاع جاء فضرب بعصاه فيسقط منه البسر والتمر فيأكل، وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير ، يأتي بالقنو الحشف (أردأ التمر)، فيأتي بالقنو قد انكسر لم تستقم حاله إذ يتحول أكثره إلى حشف فيعلقه، ومنه المثل العربي الذي يقول: (أحشف وسوء الكيل).

فنزلت الآية:﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٧]، ما هذه الأخلاق الرفيعة التي جاء بها القرآن الكريم، ليأخذ الناس للتي هي أقوم، يأخذ بأيديهم إلى ما فيه تطهير قلوبهم من البخل، ونفوسهم من الشح، وأيديهم من الإمساك والغل، قال الله تبارك وتعالى:﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[سورة الإسراء: ٢٩].

وليتصور الإنسان حين يتيمم الخبيث منه ينفق، أنه هو الذي أهدي له مثل ذلك، أي مثل ما أعطى من الخبيث أيرضى به ، فإذا قبله فإنما يقبله على مضض،وحياء إنه الأدب العالي الرفيع ، قال البراء فبعد نزول الآية، تغيرت حالة القوم، فإذا بالرجل بعد ذلك يأتي بأفضل ما عنده.

والأنصار نماذج في الجود والسخاء، والإيثار على النفس، وقد أثنى الله عليهم في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

جود الصحابة وكرمهم:

لقد جاء الإسلام والناس تعصف بهم العواصف أشتاتاً وفرادى، القوي يأكل الضعيف، فازداد الغني غنى، والفقير فقراً، وبينما الناس في تلك الظلمات من الجهل والحيرة، إذا بنور الإيمان يضيء الطريق لمن أراد أن يكون على بصيرة من الأمر، فجاء الإسلام ليخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلم المخلوق للمخلوق، إلى عدل الخالق،فجعل أكرمهم عند الله أتقاهم.

كرم الأنصار:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩].

بيوت زوجات رسول الله:

ومن إيثار الواحد منهم على غيره منهم ما **رواه البخاري** عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، يسأل إن كان عندهن شيء من الطعام، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: «**ألا رجل يضيف هذا الليلة** رحمه الله»؟.

ضيف الرسول:

فقام رجل من الأنصار، قيل هو أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود النجاري الأنصاري، الصحابي الجليل الشجاع البطل، أحد الرماة المشهورين في الجاهلية والإسلام، ولما ظهر الإسلام كان من كبار أنصاره، فشهد العقبة وبدراً وأُحُداً وسائر المشاهد، وكان جهير الصوت.

وفي الحديث: (**لصوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**)، وكان رديف رسول الله ﷺ يوم خيبر، فكان ذلك تقديراً من رسول الله ﷺ لأبي طلحة، وتشريفاً له رضي الله عنه.

أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني جهد، فأرسل الرسول إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال النبي ﷺ: (**ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله**)، فقام أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله، فذهب أبو طلحة إلى أهله، فقال:

هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، فقال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، حتى يرى الضيف بأنك تصلحينه فأطفئيه، وأريه أنّا نأكل فقعدوا يأكل الضيف، وباتوا على الطوى.

ما هذه الأخلاق العظيمة، التي جاءت تأكيداً، وتهذيباً لتلك الأخلاق، التي كان عليها عرب الجاهلية، فأكدها الإسلام، وهذبها ودعا إلى إفراد الله بها، لا يريدون مما يأتون أو يذرون إلا وجه الله وتبعاً لأوامره سبحانه وتعالى، فوفقهم وأعانهم على ذلك، وأخلف عليهم خيراً مما أنفقوا.

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر الأنصار في المدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه (بير حاء)، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس: فلما نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٢]. قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليَّ (بير حاء)، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

لقد فقه المسلمون الأوائل وقتها معنى هذا التوجيه الإلهي ،وحرصوا على أن ينالوا البر، وهو جماع الخير، بالنزول عما يحبون، وببذل الطيب من المال سخية به نفوسهم ، في انتظار ما هو أكبر وأفضل عند الله.

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب ﵁ قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: إحبس الأصل وسبّل الثمرة.

وعلى هذا الدرب سار الكثير منهم يلبون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البرّ كله، وإلى جماع الخير ومقاليده، يوم هداهم الله إلى الإسلام، ونوّر قلوبهم بنور الإيمان، وقد تحرروا بهذه التلبية من استرقاق المال ومن شح النفس، وحبّ الذات، ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاء.

من أكرم الثلاثة ؟

يحكى أن ثلاثة نفر تماروا في الأجود، فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال الثاني: أسخى الناس قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، فقال الثالث: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي والذي يقول فيه الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد   تلقَّاها عرابة باليمين

فتنازعوا بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه ، يسأله حتى ننظر بما يعود به، فنحكم على العيان.

فقام صاحب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فوافاه وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له، فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ ابن سبيل منقطع ، قال: فأخرج عبد الله بن جعفر رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة، وخذ ما في الحقيبة، وكان فيها مطارف خز ،وأربعة آلاف دينار.

ومضى صاحب قيس بن سعد بن عبادة، فوجده نائما ، فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟. قال ابن سبيل ومنقطع به، فقالت له الجارية: أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وٱمض إلى معاطن الإبل (مكان تجمعها)، فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها، وعبداً واَمض لشأنك، قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فأعتقها سروراً بفعلها، فقد اقتبست هذا الخلق النبيل منه.

ومضى صاحب عرابة الأوسي، فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة، فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومنقطع به، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسر ى، وقال: أواه والله ما أصبح ولا أمسى الليلة عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالا، ولكن خذ هذين العبدين، فقال الرجل : والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك، فقال عرابة: إن أخذتهما وإلَّا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ وإن شئت فأعتق، فأخذ الرجل العبدين ومضى، ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد من الثلاثة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقيس بن سعد بن عبادة، وعرابة الأوسي، فحكموا بأن عرابة الأوسي أسخى الثلاثة، لأنه أعطى على جهده، وأفضل الصدقة جهد المقلّ.

ويحكى أن رجلاً من قريش، قدم من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضرّ به المرض، فقال القرشي لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصبَّ في حجره أربعة آلاف درهم، فهمَّ أن يقوم فلم يقدر من الضعف، فبكى، فقال له القرشي: ما يبكيك لعلك احتقرت واستقللت ما دفعناه إليك؟.

فقال الأعرابي: لا والله ما احتقرت ولا استقللت، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

جذور السخاء:

إن أخلاق السخاء والكرم، لها جذور موغلة في الزمن، يتوارثها الأبناء عن الآباء، ويتناقلها الأجيال على مر الزمن ، وكانت تسير مع الفطرة من غير تكلف، وكان الكريم يكرم ضيفه بأعز ما يملك، ففي الزمن الجاهلي كان العربي يكرم الضيف، مكسبة للحمد والثناء، ودفعاً للبلاء ، أما في الإسلام فيكرم المؤمن الضيف ابتغاء وجه الله لا رغبة في الجزاء والشكر، قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإنسان: ٨-٩].

كرم قيس بن سعد بن عبادة:

ومما يحكى أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي سئل : هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم، نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها، وقال: شأنكم، فقلنا ما أكلنا من التي نحرت بالبارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت.

فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، كل يوم، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته،وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه ومضينا، فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا قائلاً: قفوا أيها الركب اللئام، أعطيتمونا ثمن قرانا إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعنتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا، فهذا أسخى مني وأكرم.

وروي أن الأشعث بن قيس بن معد يكرب الكندي أمير كندة في الجاهلية والإسلام، أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً، وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة.

وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب، فخرج إليه وسأله عن حاجته، فقال عليّ دين كذا وكذا، فدخل الصديق الدار، وأخرج إليه ما كان عليه من الدين، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلّا تعلّلت حيث شقت عليك الإجابة؟ فقال: أنا أبكي لأني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

كرم عبد الله بن أبي بكر:

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريقه، فاستسقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب، وقالت: تنحوا جانباً عن الباب، وليأخذه بعض غلمانكم، فإني امرأة عــزب مات زوجي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال : يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أمست حتى كثر خطابها.

وقيل كان ينفق على أربعين داراً من جيرانه، عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه، وأربعين خلفه، ويبعث إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، وقيل كان يعتق في كل عيد مائة مملوك، والله أعلم.

ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة، استبطأ إخوانه وأصدقاءه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له : يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع عني الإخوان والأصدقاء من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان ليس عنده مال فهو منه في حِلّ، فتزاحم الناس على باب داره بالعشي، لكثرة الزائرين له.

وكان عبد الله بن العباس رضي الله عنهما من الأجواد، والكرماء الأسخياء أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه، وقال: يا ابن عباس،إن لي عندك يداً، وقد احتجت إليها، فصعد فيه بصره فلم يعرفه.

فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفا بفناء زمزم، وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك فضللتك بفضل كسائي حتى شربت.

فقال: أجل إني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال الغلام: عندي مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم، فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده.

المتح استخراج الماء من البئر، والماتح هو الذي يستخرج الدلو من البئر، متى امتلأ بالماء، والماتح هو الذي يمضي عليه وقت طويل حتى ينتهي، والمتاح من الخيل هو الذي يقطع المسافات الطويلة في سيره.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميته باسمك تبركاً بك، وإن أمه ماتت، فقال له عبد الله بن العباس: بارك الله لك في الهبة وآجرك الله على المصيبة.

ثم دعا بوكيله، وقال له: انطلق الساعة، فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار لينفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة.

فقال الأنصاري: جعلت فداءك لو سبقت حاتماً بيوم ما ذكرته العرب، فأنت أكرم وأسخى من حاتم.

وحبس معاوية بن أبي سفيان عن الحسين بن علي بن أبي طالب صلاته، فقيل للحسين، لو وجهت إلى ابن عمك عبد الله بن العباس، فإنه قدم بنحو ألف ألف درهم.

فقال الحسين بن علي: وأين تقع ألف ألف درهم من عبد الله بن العباس، فوالله لهو أجود من الريح إذا عصفت ،وأسخى من البحر إذا زخر، ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية بن أبي سفيان صلاته عنه، وضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة الف درهم، فلما قرأ عبد الله الكتاب انهملت عيناه بالدموع ، وقال: ويلك يا معاوية، أصبحت لين المهاد، رفيع العماد، والحسين بن علي يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال،ثم قال لوكيله:

احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب وفضة، ودواب وأخبره أني شاطرته ما أملك، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني، فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثقلت والله على ابن عمي، وما أحسب أنه يسمح لنا بهذا كله، تلك مواقف الرجال العظماء، الأجواد الأسخياء،الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوقّ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون، قال الشاعر:

يقيناً ما نخاف وإن ظننا ... به خيراً أراناه يقينا

نميل على جوانحه كأنا ... إذا ملنا نميل على أبينا

نقلبه لنخبر حالتيه ... فنخبر من هما كرماً ولينا

الباب الثامن

في الإنفاق في سبيل اللّه

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌۗ وَٱلۡكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٥٤]. وقال أيضا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

رحمة الله للبشرية :

جاء الإسلام نظاماً عاماً متكاملاً، للعدل والإنصاف، مؤاخياً بين بني البشر، فوجد لدى العرب مجموعة من الأخلاق الفاضلة، والمزايا الكاملة، فأقرها الإسلام، وحثّ عليها ورغّب الاستمرار للعمل بها لأنها لا تتعارض مع ما يدعو إليه الإسلام،ومن ذلك أخلاق الكرم وصفاته وطرقه.

وإن كان قد ذكر لنا التاريخ الجاهلي بعض الذين سار ذكرهم مضرب المثل، وهم يعدون على الأصابع لقلتهم، وندرتهم، فإن ذلك يعود إلى حبّ المحمدة العاجلة،من البشر والتفاخر بذلك.

جاء الإسلام بنظامه العادل، جاء بنظام يشمل الأولين والآخرين إلى يوم الدين، وفي الوقت نفسه يشمل العاجلة والآجلة، أي إذا كان الكريم قبل الإسلام يهدف ويرجو بما يقوم به الفخر والمحمدة، وعدم وصفه بالبخل والشح والأنانية، وقصر ذلك على الدنيا الفانية.

فإن الإسلام جاء ليجمع فضل الدنيا والآخرة، للكريم المؤمن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [سورة التوبة: ١١١].

وقد يكون ما أنفقه الكريم، في الكرم آل إليه بطريق الغزو والغلبة، على قوم آخرين، أي بوجه غير شرعي، فينال به الذكر لشخصه ولقبيلته.

لكن الأمر في الإسلام، يختلف عنه في الجاهلية، ففي الإسلام يجب أن يكون الإنفاق خالصاً مخلصاً لوجه الله، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [سورة الإنسان: ٩].

والإسلام بنظامه وتشريعاته ، لا يبدأ بالفرض والتكليف، وإنما يبدأ بالحضّ والحثّ والتأليف، إنه يستجيش المشاعر والانفعالات الحية في الكيان الإنساني كله، إنه يعرض صورة من صور الحياة النابضة النامية المعطية الواهبة فيضرب لنا المثل بالزرع والأرض المخلوقة لله التي تعطي بدل الحبة سبعمائة حبة، فالزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، ويهب غلاته أضعافاً مضاعفة بالقياس إلى بذوره، يعرض هذه الصورة الموحية، إلفاتاً لنظر الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

إن المعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية، تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة، أما المشهد الحي العظيم، الذي يعرضه التعبير القرآني ، فهو أوسع من هذا وأجمل، وأكثر استجاشة للمشاعر المؤمنة، وتأثيره للضمائر، إنه مشهد الحياة النامية، مشهد الطبيعة الحية، مشهد الزراعة الواهبة، ثم المشهد العظيم العجيب في عالم النبات، الحبة التي ينمو منها سبعة أعواد، يحمل كل عود سنبلة، في كل سنبلة مائة حبة، إنه مشهد من مشاهد العالم المحسوس،وهو كفيل لأن ينقل الإنسان من عالم المحسوس إلى عالم الروحيات، ومن عالم الفناء إلى عالم البقاء، ومن عالم الجمود إلى عالم الحركة والتفاعل.

والله سبحانه وتعالى يريد بحكمته أن يتجه الإنسان بما يضربه الله من الأمثال في موكب الحياة النامية، الواهبة ليتجه بالضمير البشري إلى البذل والعطاء، من أجل أن يأخذ أكثر مما يعطي، فإن أنفق حبة في سبيل الله فهي تعود إلى المنفق سبعمائة حبة.

وتمضي موهبة العطاء والنماء في طريقها مع استحضار كرم الله سبحانه وتعالى،بأن يضاعف لمن يشاء ، يضاعف بلا عدة ولا حساب، يضاعف من رزقه الذي لا يعلم أحد حدوده، تكرماً منه ونعمة، ومن رحمته التي لا يعرف أحد مداها.

والله واسع عليم، لا يضيق عطاؤه، ولا ينفد ما عنده، ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [سورة النحل: ٩٦]، وهو عالِم بنوايا المنفقين إن كانوا يريدون بما أنفقوا وجه الله أو غير وجه الله، فهو لا تخفى عليه خافية، ولكن أي إنفاق هذا الذي ينمو ويربو؟ وأي عطاء هذا الذي يضاعفه الله في الدنيا والآخرة لمن يشاء؟.

إنه الإنفاق الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يشوبها، إنه الإنفاق الذي لا يؤذي كرامة الإنسان، ولا يخرج شعوراً ولا يأسر قلوباً، ولا يستعبد إنساناً قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطال ما استعبد الإنسان إحسان

إنه الإنفاق الذي ينبعث من داخل القلب، وبأريحية ونقاء،غير مشبوب بشيء من أمور المصالح الدنيوية الفانية، الإنفاق الذي يتجه إلى الله وحده ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، وكما قال الشاعرزهير بن أبي سلمى:

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت نائله

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتقِ الله سائله

ومما يروى أن هرم بن سنان آلى على نفسه أنه لا يسلم عليه زهير بن أبي سلمى إلا أعطاه، فقلَّ مال هرم، فكان زهير يمر بالنادي وفيه هرم بن سنان فيقول: أنعموا صباحاً ما خلا هرماً، وخير القوم تركت.

ويقال: أشرف ملابس الدنيا، وأفضل حللها وأجلبها للحمد، وأدفعها للذم وأسترها للعيب، كرم وسخاء يتحلى به الرجل السمح الكريم، وكفى بالبخل عاراً أن اسمه لم يقع في حمد أبداً، وكفى بالجود فخراً أن اسمه لم يقع في ذم أبداً، وما ادخّر الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

والكرم خلق كان معروفا عند العرب في الجاهلية، وقد امتازوا عن غيرهم من سائر الأمم به، وقد يعجب المرء لعطايا الكرماء ومنح الأسخياء لكثرتها وتعددها، وظن من لا يعرف الرجال ومواقف الرجال، أن ذلك من نسج الخيال والأساطير، ولولا أنها حق وصدق ما تفاخر بها القوم، وعدُّوها من أخلاقهم، وصفاتهم الحميدة.

قال عبد الله بن العباس رضي الله عنهما: ثلاثة لا أكافئهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسّع لي في المجلس، ورجل اغبرت قدماه في المشيء إليّ إرادة التسليم عليّ، أما الرابع، فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل، قيل: من هو؟ قال: رجل نزل به أمر فبات ليلته يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي.

ولما لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تبارك وتعالى، تسمى بها فهو الكريم عز وجل ، لكان خليقاً بالناس أن يتخلقوا بهذا الخلق ويتصفوا بهذه الصفة، ومن جاد ساد، ومن بخل رذ ل، ومنع الجود، سوء الظن بالمعبود.

قيل لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: إنك قد أسرفت في بذل المال، فقال: إن الله عز وجل قد عودني بعادة أن يتفضل عليّ وعوّدته أن أتفضّل على عباده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني الله عادته.

قيل لحكيم: هل شيء خير من الدراهم والدنانير؟، قال: نعم معطيهما، والكرماء هم سادة الناس، وشموس الدنيا، وكم من رجل أطلق بالخير يده، فخلّد ذكره بعدما انتهى رسمه،وعظم صيته بعد موته، لما بذل من معروف، وبما صنع من خير، ومن بذل دراهمه أحبّه الناس طوعاً أو كرهاً، ومن غزر عوارفه كثر معارفه. وقد جبل الناس على محبة من أحسن إليهم، قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطال ما استعبد الإنسان إحسان

الباب التاسع

في الذكاء والفطنة

ذكاء البنت الصغرى:

للعرب من فنون الذكاء والفصاحة، ما يجعلهم يفهمون مقاصد الكلام ومتعلّقه، فإذا أضيف إليه ما يكمّله ويتمّمه ظهر المعنى ووضح الحق الذي يوصل إلى ما كان يقصده صاحب الرسالة، فتنكشف الأمور ويظهر أن حامل الرسالة يحمل دليل خيانته ، وحجة إدانته، وفيما يلي دليل على ذلك:

ويحكى أن رجلاً غنياً حمل عنده مالاً كثيراً، وصحب معه في سفره عبدين، فلما علما بكثرة ماله، وقد توسّطا الطريق همّا بقتله والاستحواذ على ما عنده من المال، فلما تيقن من صحّة ما عزما عليه قال لهما : أقسم عليكما إذا كان لا بدّ لكما من قتلي أن تمضيا إلى داري وتنشدا هذا البيت، قالا: نعم، وما هو؟ قال:

من مبلغ بِنْتَيَّ أن أباهما ... لله دركما ودر أبيكما

فقال أحدهما للآخر ما نرى بأسا من تبليغ البيت إلى البنتين، فقتلا الرجل وأقبلا إلى دار المقتول، فلما وصلا وجدا الإبنة الكبرى، فقالا: إن أباك قد لحقه ما يلحق الناس، وآل علينا أن نخبركما بهذا البيت،فلما سمعت الكبرى البيت قالت: ما أدري ما فيه شيئاً تخبران به ولكن اصبرا حتى استدعي أختي الصغرى.

فلما حضرت الأخت الصغرى، أنشدتها البيت فخرجت حاسرة كاشفة ذراعيها، وحسرت خمارها تصيح بأعلى صوتها: يا معشرالعرب أمسكوا هذين العبدين فقد تأكد عندي قتلهما لأبي، ألستم فصحاء؟.

قالوا: ما دليلك على قولك؟ قالت: إن المصراع الأول يحتاج إلى مصراع ثانٍ، والبيت هما صدرا بيتين، لأن المصراعين يحتاجان إلى تكملة، وليس بين المصراعين في البيت تكامل، وأبي أفصح من أن يقول شعراً بغير هدف يرمي إليه، أو بغير معنى يقصده، والقول الفصل والذي يقصده أبونا هو قوله:

من مخبر بِنْتَيَّ أن أباهما ... أمسى قتيلاً بالفلاة مجندلا

لله دركما ودر أبيكما ... لن يبرح العبدان حتى يقتلا

فضيق الخناق على العبدين، فاعترفا بالقتل، وظهر الأمر كما عرفت الإبنة الصغرى، وهكذا حمل العبدان الرسالة التي أدانتهما، فحكم عليهما بالقتل فَقُتِلَا.

ذكاء كاتب أبي جعفر المنصور:

يحكى أن أبا جعفر المنصور، قال يوماً من الأيام للمهدي: قد عزمت على أن أوليك هذا الأمر الذي أنا فيه، وأردّه إليك فقد كبرت،وعجزت عن مباشرة الأعمال والنظر فيها،وأحببت الراحة والدعة،وأنت أولى بها وأجدر من يقوم بالأمر. فخرج المهدي إلى أبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار كاتب أبي جعفر المنصور، مستبشراً مسروراً، وأخبره بما عرضه عليه أبو جعفر المنصور، فقال له أبو عبيد الله: اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولاً لما ذاكرك به، وإذا راجعك في ذلك فقل له: لا والله ، ولا أعرف لهذا الأمر ما أبقى الله أمير المؤمنين، ونتمنى له طول العمر، ونفدي أمير المؤمنين بأرواحنا، وإنما ما عرض ذلك عليك إلا ليختبرك، وليعلم ما ترمي إليه.

فلما دخل المهدي على أبي جعفر المنصور،قال له: يا أبا عبد الله، هل فكرت فيما قلته لك، أو شاورت فيه أحداً؟ فقال المهدي: ما بي من قوة على ذلك ويبقي الله أمير المؤمنين، ويمدّ في أنفاسه، ويمتّعنا الله بحياته.

فقال له : سبحان الله من صدّك عن ذلك، ومن ناظرت فيه؟ فقال المهدي: لقد شاورت أبا عبيد الله، فقال أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور: فأي شيء قال لك؟ فعرَّفه ما قال له، فأطرق أبو جعفر المنصور هنيهة ثم قال :علي بأبي عبيد الله.

فلما دخل عليه أبو عبيد الله كاتبه، قال له : ما هذا الذي ناظرك فيه أبو عبد الله ، وكيف رأيت ألا يقبل؟ قال أبو عبيد الله : أأصدقك وأنا آمن؟ فقال له: هات ما عندك وأنت آمن، ولم لا تصدقني وأنت كاتبي؟.

فقال أبو عبد الله: إنه والله ما عرضت عليه ما عرضته وأنت تريد أن توليه، وإنما أردت أن تختبرعقله، ومدى حرصه على ذلك، وما كنت لتطيب نفساً بترك ما أنت فيه.

فقال أبو جعفر المنصور لكاتبه: وكيف توهّمت ذلك؟. قال لأني سمعتك تقول: إني أستيقظ بالليل فأدعو بالكتب فأضعها بين يدي، وأدعو بخادم فآمره أن يدهن ظهري بالدهن، فيفعل ذلك وأنا مقبل على ركبتي وتدبيري، والنظر في أموري، فعلمت أنك لا تدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع وتؤثر به غيرك بهذه البساطة.

فقال أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين لكاتبه أبي عبيد الله :ما كنت أرى أن أحداً يتفقد ما تفقدته، وقد أصبت الرأي وأحسنت بارك الله عليك، تلك هي فطنة كاتب أمير المؤمنين، وهكذا يجب على من ابتلي بالقرب من الملوك.

ثمرة الذكاء:

يروى من حدة الذكاء، أن امرأة جاءت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺتشكو زوجها، لتقصيره في حقها، فقالت: يا أمير المؤمنين إن زوجي يصوم النهار،ويقوم الليل.

فقال لها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم الرجل زوجك، ثم أعادت إليه القول، فقالت: يا أمير المؤمنين: أشكو إليك خير أهل الدنيا إلا رجلاً سبقه أو عمل بمثل عمله، يقوم الليل حتى يصبح، ويصوم النهار حتى يمسي، ثم تجلاها الحياء، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقلني، فقال لها: جزاك الله خيراً قد أحسنت الثناء قد أقلتك.

فلما ولّت المرأة، وكان كعب بن سور بن بكر بن عد بن ثعلبة الأزدي العماني حاضراً، فقال: يا أمر المؤمنين، لقد أبلغت إليك في الشكوى، فقال أمير المؤمنين ما اشتكت؟ أي بمن اشتكت؟. فقال كعب: اشتكت زوجها في هجرها في الفراش.

فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لكعب بن سورالأزدي : كما فهمت كلامها فاّحكم بينهما. فقال كعب بن سور: عليّ بها وبزوجها، فأحضرا، فلما حضرا قال له كعب: إن هذه المرأة تشكوك، قال الزوج : أفي أمر طعام أم شراب؟.

قال كعب: بل في أمر مباعدتك إياها عن الفراش،وحرمانها حقَّها، فصم ثلاثة أيام وأفطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال وبت عندها ليلة، فتلك ثلاثة أيام بلياليها، ولها يوم بليله.

كعب بن سور قاضي البصرة:

فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، لا أدري من أيكم أعجب، أمن، شكواها زوجها، أم من فهمك لمقصد كلامها،أم من حكمك بينهما، فعلى أي شيء استندت في حكمك؟

فقال كعب : يا أمير المؤمنين، يقول الله، وهو أصدق القائلين في كتابه العزيز: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [سورة النساء: ٣] . فلا أقل من أن تكون الرابعة. حينئذ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب بن سور: إذهب يا كعب فقد وليتك قضاء البصرة.

كعب يعتزل الفتنة :

وعن الأحنف بن قيس، واسمه : الضحاك بن قيس بن معاوية التميمي ، ولدته أمه أحنف، فقالت وهي تقصه :

والله لولا حنف في رجله ما كان في الحي غلام مثله

ويكنى الأحنف أبا بحر، قال الأحنف: لما التقى الجمعان يوم الجمل خرج كعب ابن سور الأزدي ناشراً مصحفه، يذكر هؤلاء، ويذكر هؤلاء حتى أتاه سهم فقتله، وقال بعض أهل العلم: إن كعب بن سور،لما قدم طلحة والزبير وعائشة البصرة دخل في بيت وطين عليه، وجعل فيه كوة يناول منها طعامه وشرابه اعتزالاً للفتنة وابتعاداً عن الشبهة.

فقيل للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن كعب بن سور الأزدي، إن خرج معك لم يتخلّف من الأزدي أحد، فركبت إليه،فنادته وكلمته فلم يجبها، فقالت: يا كعب ألست أمك، ولي حق عليك؟. فكلمها كعب فقالت: إنما أريد أن أصلح بين الناس، فذلك سبب خروجه حين خرج، وأخذ المصحف، فنشره ومشى بين الصفين، يدعوهم إلى ما فيه، أي إلى ما في **كتابِ الله**، فجاءه سهم غرب فقتله، وكان كعب معروفاً بالخير والصلاح.

ذكاء يُنْجِي صاحبه :

حكى الأصمعي عن أبيه قال: أتي عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين برجل كان مع بعض من خرج عليه، فقال : عبد الملك : اضربوا عنقه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين : ما كان هذا جزائي منك، قال عبد الملك : وما جزاؤك؟.

قال: والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم، وقد بان لك صحة ما ادعيت وكنت لك خيراً من مائة ألف معك، فضحك عبد الملك بن مروان، وخلّى سبيله.

وروى أبو الحسن بن هلال الصبابي، أن الحجاج بن يوسف انفرد يوماً من عسكره، فمر ببستاني يسقي بستانه، فقال له الحجاج: كيف حالكم مع أميركم الحجاج ابن يوسف؟. فقال البستاني: لعنه الله المبيد الحقوق، عجل الله الانتقام منه، فقال له الحجاج: أتعرفني؟. قال البستاني: لا. قال الحجاج: أنا الحجاج بن يوسف، فرأى البستاني أنه وقع في مأزق، وأن دمه قد طاح ،فرفع البستاني عصا كانت معه، فقال للحجاج :أتعرفني. قال الحجاج : لا. قال البستاني: أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي، وأرغَى وأزبَد وهَاج، وأراد أن يضرب رأس الحجاج بالعصا، فضحك الحجاج منه وانصرف، ونجىّ البستاني نفسه من الحجاج بذكائه، وحيلته، ولا يعرف الذكي إلا وقت الحرج والضيق.

ذكاء هارون الرشيد:

ودخلت امرأة على أمير المؤمنين هارون الرشيد، وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرّ الله عينيك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت.

فقال لها أمير المؤمنين هارون الرشيد: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال لها: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله،ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك.

ثم التفت أمير المؤمنين إلى الحاضرين، فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟. فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، مدحت وأثنت، وفصّلت، قال: ما أظنكم فهمتم قصدها ومرماها، وقد أبعدت المرمى.

أما قولها: أقرّ الله عينيك، أي أسكنهما عن الحركة، وإذا سكنت العينان عن الحركة عميت. وأما قولها: وفرّحك بما آتاك، فهي تشير إلى معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤]. وأما قولها : وأتم الله سعدك، فأخذته من قول

الشاعر:

إذا تـــم شـيء بـــدا نقصـه ترقــب زوالاً إذا قـيـل تـم

وإما قولها : لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [سورة الجن: ١٥].

فتعجب الحاضرون من ذكائها ومقصدها، ومن حدة ذكاء وفهم أمير المؤمنين هارون الرشيد لمرماها والاستناد على ما فهم من قولها بالأمثلة والأدلة القاطعة.

ذكاء أبي جعفر المنصور:

يحكى من ذكاء أبي جعفرعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أمير المؤمنين، الملقب بالمنصور، أنه جلس يوماً من الأيام في إحدى قباب مدينة المنصور، فرأى رجلا يجول في الطرقات مضطرباً ملهوفاً، فأرسل إليه من أتاه به، فسأله عن حاله وسبب اضطرابه، فأخبره أنه خرج في تجارة فربح فيها مالاً كثيراً، فعلمت به زوجتي ودفعته إليها لتحفظه، وبعد فترة سألتها عن المال فقالت: لقد خرجت من المنزل لزيارة أهلي، ولما رجعت إلى المنزل فوجئت بأن المال سرق، فلما أخبرتني بذلك بحثت في المنزل فلم أر ما يدلّ على أن أحداً دخل المنزل ليسرق فتحيرّت في الأمر، فهذا الذي جعلني قلقاً مضطرب الحال.

فقال له المنصور: منذ كم تزوجتها؟ فقال الرجل التاجر: منذ سنة تقريباً، قال المنصور: تزوجتها بكراً أم ثيباً؟، قال الرجل: تزوجتها ثيباً، قال المنصور: تزوجتها شابة أم مسنة؟، قال:تزوجتها شابة، فدعا أمير المؤمنين المنصور بقارورة طيب، وقال له: تطيب بهذا الطيب فإنه يذهب هم المهمومين، ولعل إن شممته يزيل همك.

فاخذ الرجل التاجر قارورة الطيب من أمير المؤمنين المنصور وشكره على ذلك، وٱنقلب به الرجل إلى أهله، فقال لزوجته هذا طيب أهداه إليّ أمير المؤمنين فٱحتفظي به، فلما شمته أعجبها غاية الاعجاب.

وقال أمير المؤمنين المنصور لبعض نقبائه،اقعدوا على أبواب المدينة ، فمن مر بكم وشممتم منه روائح هذا الطيب فأتوني به، فإن له قصة.

فلما شمت زوجة التاجرعطر أمير المؤمنين ،قالت:إن هذا الطيب لا يصلح إلا لفلان، رجل كانت تحبه، وقد تفرّس أمير المؤمنين المنصور، بأن المال لم يسرق وإنما أعطت المرأة زوجة التاجر المال لمن تحبه من الرجال،وهي كذلك لن تبخل عليه بقارورة الطيب التي قدمها أمير المؤمنين للرجل التاجر.

وفعلاً لقد تحقّق ظنّ أمير المؤمنين المنصور في ذلك، فقدّمت زوجة الرجل التاجر قارورة الطيب إلى الرجل الذي تحبه،وأوصته بأن يتطيّب به ، فتطيّب الرجل بذلك الطيب، ومرّ مجتازاً ببعض الأبواب، ففاحت منه رائحة الطيب ، فقبض على الرجل، فأخذ إلى أمير المؤمنين المنصور.

فسأل الأمير الرجل قائلاً له: من أين حصلت على هذا الطيب؟ فتلجلج الرجل في كلامه، ولم يستطع أن يخبر أمير المؤمنين بحقيقة مصدر الطيب، فسلمه الأمير إلى صاحب شرطته، وقال له: إن أحضر مبلغ كذا وكذا من الدنانير فخذ منه المبلغ ، وإلا فاّضربه ألف ضربة.

فما هو إلا أن جرّد من ثيابه وهدد بالضرب حتى أذعن بردّ الدنانير، وأسرع بإحضارها خوفاً من الضرب، فأحضرها كاملة، وقال معترفاً: إن الذي قدّم إليّ الطيب هو الذي أعطاني الدنانير.

ثم أخبر أمير المؤمنين المنصور بذلك، فطلب الأمير حضور التاجر،فحضر فقال له أمير المؤمنين :أرأيت إن رددت إليك الدنانير أترضى بحكمي في امرأتك؟. فقال التاجر: نعم يا أمير المؤمنين، قال أمير المؤمنين :ها هي دنانيرك، وقد طلقت زوجتك فهي لا تصلح لك، فأمضى التاجر الطلاق ورضي بحكم أمير المؤمنين.

إن العاقل ينبغي له أن يأخذ العبر من حوادث الزمن،ففيه من العبر ما تغني صاحب العقل السليم، الذي يتدبّر صروف الليالي والأيام، ومن هذا المنطلق على العاقل أن لا يغتر بالمناظر الخلاّبة، فهي مخالب للقلب، فكم من منظر يراه الرائي فيعجب به، ثم يفاجأ بأنه سراب ببقيعة.

وكم من أناس خدعوا بالفاتنات المغنيات الفتانات، الصائدات المصطادات في الماء العكر، يفرشن الحرير لمن يردن إصطياده ،ثم إذا دخل في شبكهن ، قلب ظهر المجن، وبدأ الاعصار الناري في الاحراق، فيجتاح الأخضر واليابس، فيذهب المال

والحال، فإذا أفاق من سكرته، وجد نفسه في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، نتيجة الهموم والغموم، وحيداً ملقى على قارعة الطريق، والسبب الاغترار بالمظاهر البراقة.

وقصة صاحبنا الآنفة الذكر من هذا القبيل، خدع بالمظهر ولم يبحث عن المخبر، ولم يحكم العقل فيما أقدم عليه، ولم يتذكر قوله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١].

دور المرأة في الإصلاح:

قال الحارث بن عوف يوماً لخارجة بن سنان: أتراني أخطب إلى أحد فيّردني؟ فقال له: نعم. قال: من ذاك؟ قال: أوس بن حارثة الطائي، فقال الحارث لغلامه: إرحل بنا ففعل، وركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحبا بك يا حارث، قال: جئتك خاطباً، قال: لست هناك.

فانصرف ولم يكلّمه، ودخل أوس على امرأته مغضباً ـ وكانت من عبس ـ فقالت: من رجل واقف عليك فلم يطل، ولم تكلّمه؟ قال أوس: ذلك سيد العرب الحارث ابن عوف، قالت : فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق، قالت: وكيف؟ قال: جاءني خاطباً، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا؟ قالت: تلحقه فتردّه، قال: وكيف وقد فرط مني ما فرط إليه، قالت: تقول له لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت، فعد ولك عندي كل ما أحببت، فإنه سيعمل، فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فو الله إني لأسير مع الحارث إذ حانت مني التفاتة ، فرأيت أوساً، فأقبلت على الحارث ـ وما يكلمني غماً ـ فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا، قال: وما أصنع به؟ إمض. فلما رآنا لا نقف عليه صاح: يا حارث اربع عليّ ساعة، فكلّمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً.

ودخل أوس منزله، وقال لزوجته: ادعي لي فلانة لأكبر بناته، فأتته، فقال: يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه، فما تقولين؟. قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأني امرأة في وجهي ردة ، أي شيء من القبح، وفي خلقي بعض العهدة، أي العيب، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحيي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون علي في ذلك ما فيه.

قال: قومي، بارك الله عليك، ادعي لي فلانة لابنته الوسطى، فدعتها، ثم قال لها مثل قوله لأختها، فأجابته بمثل جوابها، وقالت: إني خرقاء أي امرأة غير صناع، وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره، فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم، وليس بابن عمي فيرعى حقّي، ولا جارك في بلدك فيستحييك، قال: قومي، بارك الله عليك، ادعي لي بهيسة ـ صغرى بناته ـ فأُتي بها، فقال لها كما قال لهما، فقالت : أنت وذاك، فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه، فقالت: (ولم يذكر لها مقالتهما) لكني والله الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الرفيعة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير، فقال : بارك الله عليك.

ثم خرج إلى الحارث، فقال : زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس، قال الحارث: قبلت، فأمر أمها أن تهيئها، وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له،وأنزله إياه، فلما هيئت بعث بها إليه.

قال خارجة بن سنان: فلما أدخلت إليه لبث هنيهة ثم خرج إليّ، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله ، فقلت : وكيف ذاك؟ قال : لما دخلت إليها قالت: مه، أعند أبي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون.

قال خارجة: ثم أمر بالرحلة، فارتحلنا ورحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدّم ، فتقدّمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحق بي، فقلت: أفرغت؟ فقال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: قالت لي: أكما يفعل بالأمة الجليبة السبية الأخيذة لا والله، حتى تنحر الجزور، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يفعل لمثلي، قلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله.

قال خارجة : فرحلنا حتى جئنا بلادنا، فأحضر الإبل والغنم، ثم دخل عليها، وخرج إلي، فقلت: أفرغت، قال: لا، قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها، وقلت لها: قد أحضرنا من المال ما قد ترين، فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك، قلت: وكيف؟ قالت: أتفرغ للنساء والعرب تقتل بعضها بعضاً، قلت: فيكون ماذا؟.

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً، ولقد قالت قولاً.

قال خارجة: ثم قال الحارث: اخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم، فمشينا فيما بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى، فيؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الدِّيات، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر، فمدح لذلك زهير بن أبي سلمى وحين قال قصيدته فيهم :

أَمِنْ أمّ أوفى دمنةٌ لمْ تكلّمِ بحومانة الدراج فالمتثلمِ

ثم قال :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذ بيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما إن ندرك القوم واسعاً بمال ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأتم

عظيمين في عليا معدّ هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

وأصبحُ يُحْدَى فيهمْ من تلادكم مغانم شتى من إفال مزنم

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمنجم

ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

فلا تكتمن الله ما في صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

إنها صفحة خالدة لذلك الموقف النبيل ، والخلق العظيم، كيف لا وقد أوقفت نزيف دماء تهرق بغير حق، وقد قام بحقنها من لم يشارك فيها ، ولو بكلام يثير الحفيظة، وقد تحمل عبئاً ثقيلاً، ومع ذلك فهو يرى ما يمكن أن يدفع بالمال يهون أمره لمقاصد نبيلة.

فمات المادح والممدوح، وبقي الذكر الحسن ، تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل، إعجاباً بمواقف الرجال، مات هرم بن سنان حوالي سنة (١٥) قبل الهجرة النبوية، في أرض لبني أسد يقال لها: (زوراء) وهو متوجه في طريقه إلى الملك النعمان.

ووفدت بنت هرم بن سنان على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته، فقال لها: ما الذي أعطى أبوك زهير بن أبي سلمى حتى قابله من المديح بما قد سار فيه؟ فقالت : ما أعطى هرم زهيراً قد نسي، قال: ولكن ما أعطاكم زهير لا ينسى.

ومما قاله زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان وأهل بيته:

إليك أعملتها فتلاً مرافقها	شهرين يجهض من أرحامها العلق
حتى دفعن إلى حلو شمائله	كالغيث ينبت في آثاره الورق
من أهل بيت يرى ذو العرش فضلهم	يبنى لهم في جنان الخلد مرتفق
المطعمون إذا ما أزمة أزمت	والطيبون ثياباً كلما عرقوا
كأن آخرهم في الجود أولهم	إن الشمائل والأخلاق تتفق
إن قامروا قمروا أو فاخروا فخروا	أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا
تنافس الأرض موتاهم إذا دفنوا	كما تنافس عند الباعة الورق

وفي الحديث النبوي الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**» ، **وقال** : «**الخلق عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله**»، وقال أيضاً: «**اصطناع المعروف يقي مصارع السوء**» وقال ﷺ: «**إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق، ويبغض سفاسفها**»، اللّهم حبب إلينا الجود ومكارم الأخلاق، وكرّه إلينا البخل وسوء الأخلاق.

روى أبو الفرج الأصفهاني، قال: أخبرني أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، وأبو بكر الأنباري هذا، كان من أعلم الناس في زمانه بالنحو والأدب صنف كتباً كثيرة في علوم القرآن، وغريب الحديث، توفي عام ٣٢٩هـ.

قال أبو بكر الأنباري، قال حدثني أحمد بن عبيد عن الهيثم بن عدي ، عن عبد الملك بن عمير، قال : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة، فأرسل إلى عشرة أنا عاشرهم من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده.

ثم قال : يحدثني كل رجل منكم أحدوثة، وابدأ أنت يا أبا عمرو، فقلت: أصلح الله الأمير، أحديث الحق تريد أن أحدثك، أم حديث الباطل؟.

قال: حدثني بحديث الحق، ولا حاجة لنا بحديث الباطل، فقلت: إن امرأ القيس ابن حجر الكندي أمير شعراء الجاهلية، أقسم أن لا يتزوج بامرأة حتى يسألها عن ثمانية أشياء، وعن أربعة أشياء وعن شيئين، فجعل يطوف أحياء العرب، ويخطب النساء، فإذا سألهن عن ثمانية، وعن أربعة وعن اثنين قلن له:إنها أربعة عشر.

فبينما هو يسير في الليل، وإذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة، كأنها القمر ليلة البدر، فأعجبته.

فقال لها امرؤ القيس : يا جارية أريد أن أسألك عن أشياء، إن كان عندك لها جواب، قالت : اسأل، فقال امرؤ القيس، أسألك عن ثمانية أشياء، وعن أربعة أشياء، وعن شيئين؟.

فقالت الجارية: بلسان فصيح: أما الجواب عن سؤالك ما الثمانية فهي أطباء الكلبة، والأطباء مفردها طبي، بضم الطاء، حلمات الضرع في ذوات الخف والظلف والحافر والسباع.

والجواب عن الأربعة الأشياء: فهي أخلاف الناقة ، أخلاف مفردها خلف بكسر الخاء، ضرع الناقة، والجواب عن شيئين فهما ثديا المرأة.

فخطبها من أبيها فزوجه إياها، فهي المرأة التي كان يبحث عنها ، ولكنها اشترطت هي عليه شروطاً أن تسأله ليلة زفافها إليه عن ثلاث خصال، فإن أجابها رضيت به، وإن لم يجبها فلا سبيل له عليها، فجعل لها ذلك، وعلى أن يسوق لها مائة من الإبل، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس ففعل ذلك.

ثم إنه بعث عبداً له إلى المرأة، وأهدى إليها نحياً من سمن: (النحي الزق يوضع فيه السمن أو العسل)، ونحياً من العسل، وحلة من قصب (الحلة بالضم، وجمعها حلل) الثوب الساتر لجميع البدن، والحلة لا تكون إلا ثوبين مزيّنين بشرائط الذهب المطروق.

نزل العبد ببعض المياه ، فنشر الحلة ولبسها فتعلقت بشجرة فانشقت، وفتح النحيين ، وأطعم أهل الماء منهما.

ثم قدم على حي المرأة وهم خلوف، الحي الخلوف: أي رجالهم غُيّب، فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع إليها هديتها.

فقالت : أعلم مولاك أن أبي ذهب يقرب بعيداً، ويبعد قريباً، وأن أمي ذهبت تشق النفس نفسين، وأن أخي يراعي الشمس، وأن سماءكم انشقت، وأن وعائكما نضبا (تقصد أن النحيين نقصا، وأن الحلة انشقت).

فقدم الغلام على مولاه، وأخبره بما قالت، فقال: أما قولها : ذهب أبي (يقرب بعيدا ويبعد قريباً)، فإن أباها ذهب يحالف قوماً على قومه.

وأما قولها إن أمي ذهبت: (تشق النفس نفسين)، فإنها ذهبت تقبل امرأة للولادة.

وأما قولها: إن أخي يراعي الشمس، فإن أخاها في سرح له يرعاها، فهو ينتظر وجوب الشمس (أي غروبها) ليرجع بماشيته.

وأما قولها :إن سماءكم انشقت، فإن الحلة التي بعثت بها معك انشقت.

وأما قولها : إن وعايكما نضبا، فإن النحيين اللّذين بعثت بهما معك نقصا، فأصدقني ما الذي حصل لك في طريقك إليها.

فقال العبد: يا مولاي، إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرت الحلة فلبستها، وتجملت بها فعلقت بشجرة فانشقت، وفتحت النحيين اللّذين حملتهما فأطعمت منهما أهل الماء.

فقال له امرؤ القيس أولى لك كلمة تقال للوعيد أو التهديد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة القيامة: ٣٣- ٣٥].

ثم ساق مائة من الإبل وخرج نحوها، ومعه الغلام فنزل منزلاً، فقام الغلام ليسقي، فعجز فأعانه امرؤ القيس، فرمى به الغلام في البئر، وانصرف حتى أتى المرأة بالإبل فأخبرهم بأنه زوجها.

فقيل لها: قد جاء زوجك، فقالت: والله لا أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً: (الجزور ما أعدّ للنحر أو الذبح من النوق أو الغنم) وأطعموه من كرشها وذنبها، فأطعموه، ففعلوا فأكل ما أطعموه.

فقالت: اسقوه لبنا حازراً (أي حامضاً)، فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، ففرشوا له فنام.

فلما أصبحت، أرسلت إليه: إني أريد أن أسألك، فقال لها: سلي عما بدا لك، فقالت: مم تختلج شفتاك؟، فقال: من تقبيلي فاك. فقالت: مم تختلج كشحاك؟ قال: لالتزامي إياك، قالت: م تختلج فخذاك؟ فقال: لتوركي إياك.

فقالت: عليكم بالعبد، شدوا أيديكم به، ففعلوا، ومر قوم بالبئر الذي فيه امرؤ القيس فاستخرجوه منه، فرجع امرؤ القيس إلى حيِّه واستاق مائة من الإبل، وأقبل إلى حي المرأة، فلما وصل قيل للمرأة: قد جاء زوجك.

فقالت: والله ما أدري أهو زوجي أم لا، ولكن انحروا له جزوراً، وأطعموه من كرشها وذنبها، ففعلوا فلما أتوه بذلك قال: أين الكبد والسنام والملحة؟ وأبى أن يأكل. السنام الحدبة في ظهر الجمل، وهي أطيب ما فيه، قال النابغة الذبياني:

فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والبلد الحرام
ونمسك بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

فقالت: اسقوه لبنا حازراً فأبى أن يشرب، وقال أين الضرب والزبد؟ فقالت: افرشوا له عند الفرث والدم، فأبى أن ينام، فقال: افرشوا لي فوق التلعة الحمراء، واضربوا لي عليها خباء.

ثم أرسلت إليه تقول: هات شرطي عليك في المسائل الثلاث، فأرسل إليها سلي عما شئت.

فقالت: م تختلج شفتاك؟ قال: لشربي المشعشعات، قالت: م تختلج كشحاك؟. قال: للبسي الحبرات. قالت: م تختلج فخذاك؟ قال لركوبي السابقات.

فقالت: المرأة هذا هو زوجي، فعليكم بالعبد فاقتلوه، فقتلوه، وأقبل امرؤ القيس إلى زوجته مسروراً للظفر بمطلوبه.

ثم قال ابن هبيرة: لا خير في سائر الحديث الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو، ولن يأتينا أحد بأعجب منه، فقام الجميع وانصرفوا وأمر لأبي عمرو بجائزة سنية.

الباب العاشر

في مواقف الكرم

استعطاف:

وهذا موقف من مواقف الكرام، يروى أن أمير المؤمنين المعتصم بالله غضب على الحسين بن الضحاك، في شيء جرى منه،وقال المعتصم: أُأَدبنه، وحجبني، وكتب إليه يقول:

غضب الإمام أشد من أدبه   وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصماً بمعتصم   أثنى عليه الله في كتبه
لا والذي لم يبق لي سبباً   أرجو النجاة به سوى سببه
مالي شفيع غير رحمته   ولكل من أشفى على عطبه
إلا كريم طباعه وبه   أرجو الذي أرجوه في نسبه

فلما قرئت عليه، التفت إلى الواثق، وقال: بمثل هذا الكلام يستعطف الكرام، ما هو إلا أن سمعت أبيات الحسين بن الضحاك هذه حتى زال ما في نفسي عليه، وتأكدت من إخلاصه.

فقال الواثق: هو حقيق أن يهب له أمير المؤمنين ذنبه ويتجاوز عنه، فرضي عني وأمر بإحضاري، وقربني، وأنعم عليّ بسابغ نعمه.

قال الصولي: فحدثني الحسين بن يحيى، أن هذه الأبيات إنما كتب بها إلى المعتصم، لأنه بلغه عنه أنه مدح العباس بن المأمون، وتمنى له الخلافة، فطلب فأستتر، وكتب بهذه الأبيات إلى المعتصم على يدي الواثق، فأوصلها وشفع له، فرضِي عنه وأمنه فظهر ثم استدعاه، فدخل عليه وهجا العباس بن المأمون فقال:

خل اللعين وما كسب   لازال منقطع السبب
يا عرة الثقلين لا   دينار وعيت ولا حسب
حسد الإمام مكانه   جهلاً هداك على العطب
وأبوك قدمه لها   لما تخير وانتخب
ما تستطيع سوى التنفس والتجرع للكرب
لا زلت عند أبيك منتقص المروءة والأدب

من مواقف النبل:

فيحكى أن الفضل بن يحيي بن خالد البرمكي، كان جواداً مشهوراً، فلامه البعض ، فقالوا له : قد أفسدت جودك ببرك، فقال:

والله ما لي حيلة في النزع عنه، وما كان سبب حصوله إلا أنني حملت نفسي عليه ، لما رأيت من عمارة بن حمزة بن ميمون، وعمارة هذا يعد من كبار العمال في الدولة العباسية، وكان كاتباً شاعراً جواداً داهية،وكان وافر الحرمة عند السفاح والمنصور والمهدي، جمعت له ولاية البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين، وأخباره في الكرم عجيبة، وأخباره في التيه أعجب توفي سنة ١٩٩هجرية.

قال الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، لما رأيت من عمارة بن حمزة بن ميمون من الكرم والتكبر،تشبهت به، فصار طبعاً لي ولا أقدر على الإقلاع عنه.

وذلك أن أبي كان يضمن فارس من المهدي، فحملت عليه ألف ألف درهم أي عشرة ملايين درهم، وكان المهدي قد ساء رأيه فيه، فحرك ذلك ما كان في نفسه، وأمر أبا عون،(عبد الملك بن يزيد الخراساني) وهو من كبار الدعاة، وقدمائهم للعباسيين، وكان من قادة أبي مسلم الخراساني، واشترك في الحروب التي رافقت تأسيس الدولة العباسية، ولما استقر الأمر للعباسيين ولّاه السفاح مصر، ثم بعثه المنصور إلى خراسان، وسيره المهدي لحرب المقنع ، ثم استعمله على خراسان، ثم عزله، توفي حوالي سنة ١٦٩هـ.

وأمر المهدي أبا عون أن يأخذ أبي فيطالبه بالمال، فإن غربت الشمس في يومه ذاك ولم يصحح جميعه، أو بقي درهم منه أتاه برأسه من غير أن يستأذنه أو يراجعه.

قال: فأخذه أبو عون فٱستدعاني وقال: يا بنيّ، قد ترى ما نحن فيه فلا تدعوا في منازلكم شيئاً إلا أحضرتموه.

قال: فجمعنا كل ما في منازلنا، من صامت وناطق، فلم يبلغ عشر المال ، فقال: يا بنيّ إن كانت لنا حيلة في الحياة فمن قبل عمارة بن حمزة،وإلا فأنا مقتول العشية، فٱذهب إليه وأخبره بالأمر.

فمضيت إلى بابه فٱستؤذن لي عليه، فأذن فدخلت، وهو مضطجع قد غاص في فراش له، ما كاد يبين إلا وجهه، فو الله ما تحرك ولا غير من حاله، وسلمت عليه،

فأومأ إليّ بالجلوس فجلست بعيداً منه، فلم يعرني أي اهتمام، ولا التفت إليّ، فساءني ذلك فٱنكَسَرَت نفسي.

وقلت: أي خير عند من هذا لقاؤه، وهذا عنوان أمره، فأمسكت لا أتكلم بشيء مطرقاً منكساً رأسي إلى الأرض، مفكراً أأتكلم بحاجتي أم أقوم منصرفاً، ثم تشجعت فٱندفعت في الكلام.

فقصصت عليه القصة، فو الله ما أجابني بحرف، أكثر من قوله: إمض فإن الله يكفيك وهو السميع العليم.

فقمت متحيراً أجر رجلي، لا أشك في اليأس وسوء الخيبة إذ تصرفه، وكلامه زادني يأساً، وقلت: إن عدت إلى أبي بهذا الجواب مات غمًّا وكمداً قبل أن تضرب عنقه.

فتوقفت ساعة لا أدري ما أفعل، والوقت يمر، ثم قلت: على كل حال ليس لي حيلة إلا المضي إليه فأونسه، فإن كانت له حيلة أخرى شرعنا فيها قبل انصرام النهار، والإبطاء ليس في صالحنا.

فرجعت إلى أبي لأخبره بالأمر وما حصل لي من عمارة بن حمزة، فلما وصلت الدار وجدت على الباب بغالاً كثيرة محملة ، فقلت لمن معها: من أنتم وما قصة وجودكم وهذه البغال؟.

قالوا: أنفذنا عمارة بن حمزة إليكم بمال هذه البغال، فدخلت على أبي مسرعاً مبشّراً، فعرّفت أبي بما جرى لي عند عمارة بن حمزة والمفاجأة التي حصلت لدى وصولي إلى المنزل من وجود البغال الكثيرة. فأخذنا المال فصححناه وما صلينا صلاة العصر حتى عرف المهدي الصورة، وأفرج عن أبي، وكان ذلك سبب رضاه عنه، وصلاح نيته له.

فلما كان بعد شهر ، ورد لنا من فارس مال عظيم كثير،فقال لي أبي: يا بنيّ خذ هذا المال، وامض به إلى عمارة بن حمزة، فسلمه إياه وأشكره على موقفه العظيم وكريمه العميم.

فحملت المال على البغال ومضيت إلى دار عمارة بن حمزة، فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت عليه وهو على فراشه ، فما زادني على ما عاملني به سابقاً، ولا

نقصني، فشكرته عن أبي، ودعوت له بخير، وعرفته إحضاري المال، وسألته أن يأمر بقبضه مني.

فلما سمع كلامي غضب، وقال: أكنت صيرفيًّا لأبيك، أقرضته وأسترجع منه، فقلت: لا وحاشا لمثلك أن يفعل ذلك، ولكنك أحييته وحقنت دمه بموقفك العظيم،وطوقته ببحر جودك، وما أحبّ أن يتغنمك، فلما حصل له المال أنفذه إليك.

فقال: أما إذ رده أبوك، فقد وهبته لك، خذه وٱنصرف فقمت، وقد أعطاني ما لم يعطِ أحد أحداً.

فرجعت إلى أبي فعرفته ما جرى، فقال: لا والله - يا بني - ما تطيب لك به نفسي كله،ولكن خذ منه مائتي ألف درهم، فاستلمتها منه، هي أول مال جاءني كثيراً مجتمعاً، وهي أصل نعمتي التي أنا الآن فيها، فتعلّمت من عمارة بن حمزة الجود والكبر معاً، فصاراً لي طبعاً، فلذلك صعب عليَّ النزوع عنه.

تلك لعمري مواقف الرجال العظماء، الذين خلّد التأريخ مآثرهم ومواقفهم فتعرف الرجال بأفعالها ومواقفها، فعمارة بن حمزة وأمثاله، رجال المواقف لحل الأزمات.

أخرج الترمذي عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وتعلم العلم لغير الدين، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صديقه، وأقصى أباه، وظهرت الأصوات في المساجد، وساد القبيلة فاسقهم، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره، وظهرت القينات (المغنيات)، والمعازف، وشربت الخمر، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرقبوا عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً، ومسخاً وقذفاً، وآيات تتابع كنظام بالٍ قطع سلكه فتسابع**».

الباب الحادي عشر

في الرأي والمشورة

المستشار مؤتمن:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

إنه لا يحط من قدر الرجل استشارته لغيره، وإن كان يحتاج إلى استشارة من هم دونه، فقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم عليه الصلاة وأتم التسليم بمشاورة من هم دونه، والنبي ﷺ، ليس بحاجة إلى رأي الآخرين، فهو على اتصال دائم بالوحي، وآراؤه وأفكاره وأحكامه لا تخرج عن دائرة الوحي، وقد زكا الله نطقه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم: ٣-٤]. ولكن ليكون أسوة لأمته وقدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وليعلمهم الرسول ﷺ، ما في المشاورة من الخير والبركة.

وكان ﷺ، قدوة حسنة في الاستشارة، إذ كان يستشير أصحابه في كل الأحوال، وما تشاور قوم في شيء إلا هداهم الله وأرشدهم لأقوم السبل، وقال ﷺ: «**المستشار مؤتمن**» أخرجه أصحاب السنن.

وقال ابن عيينة: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين، والخالق هو الذي يدبر أمره، ولكنه تعليم منه لأمته، ويستشير الرجل الناس في أمره، وإن كان عالماً قال ﷺ: «**ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد**» أخرجه الطبراني.

وقيل: من شاور أهل النصيحة سلم من الفضيحة، ومن الحكم: المشاورة حصن من الندامة، وأمن من الملامة، ونعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد، وقيل: نصف رأيك مع أخيك فٱستشره.

والأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة، وقال أحدهم: الناس ثلاثة، فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل، فأما الرجل الرجل فهو ذو الرأي والمشورة، وأما الرجل الذي هو نصف الرجل، فالذي له رأي ولا يشاور أحداً، وأما الرجل الذي ليس برجل، هو الذي ليس له رأي ولا يشاور غيره.

ومما قيل في الرأي والمشورة:

وقال أحد الحكماء: أفره الدوابّ لا غنى به عن السوط، وأعفّ النساء لا غنى بها عن الزواج، وأعقل الناس لا غنى به عن المشورة.

وروي عن الأحنف بن قيس التميمي، أنه قال: اضربوا الرأي بعضه ببعض يتولد منه الصواب، وقيل: خذ الأمر مقيلاً، فشر الرأي الدبريّ، وهو الذي يأتي بعد فوات الحاجة إليه.

ومن أمثالهم في هذا قولهم: لا رأي لمن لا يطاع ،وكان يقال: بإجالة الفكرة يُستدر الرأي المصيب، قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم! قال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، فنحن نشاوره ونطيعه فكأننا ألف حازم.

وكان عامر بن الظرب بن عمرو العدواني حكيم العرب وخطيبهم في الجاهلية، كان إمام مضر وحكمها وفارسها، وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية، وكان العرب لا تعدل بفهمه فهماً ولا بحكمه إذا حكم في شيء حكماً.

كان يقول: دعوا الرأي يغب (يبيت)، حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير والرأي الفطير يريد الأناة والتثبت فيه، وقال الشاعر:

الرأي كالليل مسود جوانبه ... والليل لا ينجلي إلا بإصباح

فأضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

ولما همَّت ثقيف بالارتداد عن الإسلام، بعد التحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى استشاروا عثمان بن أبي العاصي، وكان مطاعاً فيهم ، فقال: يا قوم لا تكونوا آخر العرب إسلاماً وأولهم ارتداداً، فنفعهم الله تعالى برأيه، قال الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً ... فإن فساد العزم أن يتقيدا

ولما أصاب زياداً الطاعون في يده أحضر له الأطباء فأشاروا عليه بقطعها، فدعا القاضي شريحاً وقال له: لا صبر لي على شدته، وقد رأيت أن أقطعها إذ أشار إليّ الأطباء بقطعها.

فقال له القاضي شريح : أتستشيرني في ذلك؟. قال زياد: نعم ، فقال شريح: لا تقطعها، فالرزق مقسوم والأجل معلوم، وأنا أكره أن تقدم على ربك مقطوع اليد، فإذا سألك الله تبارك وتعالى لم قطعت يدك؟.

قلت: بغضاً للقائك، وفراراً من قضائك، فمات زياد من يومه، فقال الناس للقاضي شر يح: لم نهيته عن قطعها؟ فقال شريح: استشارني والمستشار مؤتمن، ولولا الأمانة لوددت أن أقطع يده يوماً ورجله يوماً.

واستشار زياد بن عبيد الله الحا رثي عبيد الله بن عمر في أخيه أبي بكر أن يوليه القضاء فأشار عليه به، فبعث زياد إلى أبي بكر فامتنع عليه، فبعث زياد عبيد الله يستعين به على أبي بكر، فقال أبو بكر لعبيد الله: أنشدك بالله أترى لي أن ألي القضاء؟ قال: اللّهم لا.

قال زياد: سبحان الله استشرتك فأشرت عليّ به، ثم سمعتك تنهاه قال: أيها الأمير استشرتني فاجتهدت لك رأيي ونصحتك، واستشارني فاجتهد له رأي ونصحته.

عاقبة مخالفة المشورة:

ومن أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بن الوليد المخزومي بهم. قال: يا بني حنيفة بعداً لكم كما بعدت عاد وثمود، أما والله، لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، وكأني أستمع جرسه وأبصر غيبه، ولكنكم أبيتم النصيحة،فاجتنيتم الندامة، وإني لما رأيتكم تتهمون النصح وتسفهون الحليم، استشعرت منكم اليأس، وخفت عليكم البلاء، والله منعكم التوبة، ولا أخذكم على غرة.

ولقد أمهلكم حتى مل الواعظ، ووهن الموعوظ، وكنتم كأنما يعنى بما أنتم فيه غيركم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق، ومن نصيحتي الندامة، وأصبح في يدي من هلاككم البكاء، ومن ذلكم الجزع، وأصبح ما فات غير مردود،وما بقي غير مأمون.

الباب الثاني عشر

في عجائب الدهر

من صروف الدهر:

يحكى أن عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول أبا الفضل الصولي، وزير المأمون وأحد الكتاب البلغاء، وكان جواداً كريماً فاضلاً نبيلاً، وكان مصعداً من واسط إلى بغداد، وفي حر شديد وهو جالس في سفينة له، فناداه رجل: يا صاحب السفينة، بنعمة الله عليكم إلا نظرت إليّ.

قال: فكشف سجف السفينة ، فإذا بشيخ حاسر الرأس، فقال: قد ترى ما أنا عليه، ولست أجد من يحملني، فابتغ الأجر فيَّ، وتقدم إلى ملاحيه يطرحوني بين مجاديفهم إلى أن أصل بلداً يطرحوني فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمته لما رأيت من حاله، وقلت لهم: خذوه، فأخذوه فغشي عليه وكاد يموت لما لحقه من المشي والعياء في الشمس، فلما أفاق قلت له: يا شيخ ما حالك وما قصتك؟.

فقال قصتي قصة طويلة، فسكَّنته وطرحت عليه قميصاً ومنديلاً، وأمرت له بدراهم وبشيء من العطر فشكرني، فلما هدأ باله وسكنت نفسه وأطمأن قلبه قلت له: لابد أن تحدثني بحديث عن قصتك.

ما قيل في وفاة الإسكندر الأكبر:

ويحكى أنه لما مات الإسكندر، وقف بعض الحكماء عند تابوته، وكل واحد منهم قال بما حضره معبراً عن ذلك المشهد، فقال الأول: (سلك الإسكندر طريق من فني، وفي موته عبرة لمن بقي). وقال الثاني: (خلف الإسكندر ماله لغيره، وسيحكم فيه بغير حكمه)، وقال الثالث: (أصبح الإسكندر مشتغلاً بما يعاني ، وهو بالأعمال يوم الجزاء أشغل)، وقال الرابع : (كنت مثلي حديثاً، وأنا مثلك وشيكاً)، وقال الخامس: (إن هذا الشخص كان لكم واعظاً، ولم يعظكم قط بأفضل من مصرعه)، وقال السادس: (كان الإسكندر كحلم نائم انقضى، أو كظل غمام انجلى)، وقال السابع : (لئن كنت بالأمس لا يأمنك أحد، لقد أصبحت اليوم لا يخافك أحد)، وقال الثامن: (أجاهلاً كنت بالموت فنعذرك، أم عالماً به فنلومك؟) وقال التاسع : (كفى للعامة أسوة بموت الملوك، وكفى للملوك عظة بموت العامة)،

ويقال أن وفاة الإسكندر الكبير المقدوني كانت في سنة ٣٢٤ قبل الميلاد، وكان موته في مدينة بابل بالعراق والله أعلم.

جزاء الخيانة:

يروى أن رجلاً أمسى في بعض محال الجانب الغربي من مدينة السلام، ومعه دراهم كثيرة، فخاف على نفسه من الطائف، (الطائف هو الذي يطوف، والطائف هو أحد العسس الذي يحرس ليلاً)، أو من بلية تقع عليه، فأوى إلى رجل من أهل الحلة، وسأله أن يبيت عنده، فقبل الرجل صاحب الدار، وأدخله الدار.

فلما تيقّن صاحب الدار بأن الرجل الضيف عنده مال ذو شأن، حدّث صاحب الدار نفسه بقتله وأخذ ماله.

وكان لصاحب الدار ابن شاب فنومه بحذاء الرجل الضيف، في مكان واحد ولم يعلم ابنه ما في نفس أبيه، وما بيّته ضد الضيف، وخرج الأب من عندهما، وقد عرف مكان كل منهما، وأطفأ السراج.

فقدر الله أن الابن انتقل من موضعه إلى الموضع الذي نام فيه الضيف، وانتقل الضيف إلى الموضع الذي انتقل منه الابن، وكان ذلك صدفة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وجاء الأب يطلب الضيف لينفذ جريمته، فصادف الابن في مكان الضيف، وهو لا يشك أنه الضيف ، فخنقه فٱضطرب الابن فمات.

وانتبه الضيف بسبب اضطراب الابن، وعرف ما أريد به فخرج خائفاً هارباً، وصاح في الطريق، ووقف الجيران على خبره، فخرجوا إليه وأغاثوه، وأخذ الرجل صاحب الدار، فقرر فأقر بقتل ولده، فحبس وأخذ المال من داره فرد إلى الضيف وسلم، وباء الأب بجريمة قتل ابنه.

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣].

وهكذا يتحقق قول الله تبارك وتعالى في الرجل الظالم إذ رجع ظلمه على نفسه، قال الله **تعالى**: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾[سورة الإسراء: ٧] وقال

الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [سورة الحج: ٣٨].

وروى مبشر الرومي مولى أبي القاسم علي بن محمد التنوخي القاضي قال: لما خرج معز الدولة في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة هجرية، وانهزم ناصر الدولة من بين يديه أنفذني مولاي لأكون بحضرته، وحضرة أبي جعفر الضميري كاتبه، وأصل كتبه إليهما.

فسمعت حاشية الضميري يتحدثون: أنه جاء إليه ركابي من ركابيته، وقال له: أيها الأمير، إن قتلت لك ناصر الدولة أي شيء تعطيني؟.

قال له الأمير: أعطيك ألف دينار، قال: فأذن لي أن أمضي إليه، وأحتال في إغتياله وقتله، فأذن له الأمير في ذلك.

فمضى إلى أن دخل عسكره، وعرف موضع مبيته من خيمته، فرصد الغفلة حتى دخل ليلاً، وناصر الدولة نائم مطمئن، وكان بالقرب من مرقده شمعة مشتعلة، وفي الخيمة غلام نائم.

فعرف الركابي موضع رأس ناصر الدولة من المرقد، ثم أطفأ الشمعة تمهيداً لتنفيذ جريمته، واستل سكيناً طويلاً ماضياً كان في وسطه، وأقبل يمشي في الخيمة خائفاً وَجِلاً عن أن يعثر بالغلام، وينكشف أمره، ولا يحقق ما يريده من قتل ناصر الدولة.

فإلى أن يصل إلى ناصر الدولة، حصل أن انقلب ناصر الدولة من الجانب الذي كان نائما عليه إلى الجانب الآخر، وزحف في الفراش،وبينه وبين الموضع الذي كان فيه مسافة يسيرة.

وبلغ الركابي إلى الفراش،وهو لا يشك أن ناصر الدولة فيه وأن ذلك مكانه، فوجأ الموضع بالسكين بجميع قوته، ولم يخامره شك أنه قد أثبتها في قلب ناصر الدولة، وتركها في موضعها،وخرج من تحت أطناب الخيمة، خائفا يترقب، حتى لا يكتشف أمره من قبل حرس وجنود ناصر الدولة.

وسار مسرعاً في نفس الوقت إلى معسكر معز الدولة، فلما وصل إلى معز الدولة أخبره بأنه قتل ناصر الدولة، وخلا له الجو، وطالب الركابي بالمكافأة، فطلب منه معز الدولة أن يشرح له كيف صنع حتى وصل إلى قتل ناصر الدولة بالتفصيل، فشرحه.

فقال له معز الدولة: إصبر حتى يصل من كلَّفته بتقصّي الأخبار لأقف على صحة الخبر، فإنني أشك أن تكون قد قمت بما تدعيه.

وبعد يومين وردت الأخبار الصحيحة، بأن ناصر الدولة لازال حياً يرزق، وأن الذي حصل هو: (أن إنساناً أراد أن يغتاله، ولكن فشلت مؤامرة الاغتيال، وذكر السكين التي وجدت في فراش ناصر الدولة).

فطلب معز الدولة إحضار الركابي لمكافأته على تدبير جريمته وكذبه، فلما أحضر سلمه إلى أبي جعفر محمد بن أحمد الضميري الهلالي، وقال له معز الدولة: اكفني أمر هذا الركابي ، فإن تجاسر على الملوك، لا آمنه على نفسي، فأخذه الضميري فغرَّقه سراً، وقد ذكرت هذه الحادثة ضمن حوادث سنة٣٣٤هـ.

من يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً:

يروى أن عبد الملك بن مروان كان جالساً، في قصر الخلافة بدمشق، إذ ورد إليه كتاب صاحب بريد الثغور الشامية، يخبره أن خيلاً من الروم تراءت للمسلمين، فنفروا إليها ثم عادوا ومعهم رجل كان قد أُسِرَ في أيام معاوية بن أبي سفيان،فذكرأن الروم لما تواقفوا مع المسلمين أخبروهم بأنهم لم يأتوا لحرب، وإنما جاؤوا بهذا المسلم ليسلموه إلى المسلمين، لأن عظيم الروم أمرهم بذلك.

فأمر عبد الملك بإحضار المسلم إليه، فلما دخل على عبد الملك قال له: من أنت؟. قال: أنا قباث بن رزين اللخمي، أسكن فسطاط مصر في الموضع المعروف بالحمراء، أسرت في زمن معاوية بن أبي سفيان وطاغية الروم إذ ذلك كان توما بن ملازوق.

فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟. قال: لم أجد أحداً أشد عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنه كان حليماً، فكان المسلمون في أيامه أحسن حالاً منهم في أيام غيره إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال في أول ما ملك إن الأسرى إذا طال أسرهم في بلد أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة وليس أنكأ لقلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد.

فأمر بإثني عشر قدحاً، فكتب على رأس كل قدح اسم بطريق من بطارقة البلدان التي ملكها، ويضرب بالقداح في كل سنة أربع مرات، فمن خرج اسمه

في القدح الأول حول إليه المسلمين، فيحبسهم عنده شهراً، ثم إلى الثاني ثم إلى الثالث، ثم تعاد القداح بعد ذلك.

فكنا لا نصير عند أحد البطارقة إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتليكم ببطريق البرجان، فكنا نرتاع لذكره، ونحمد ربنا إذ لم يبتلنا به فمكثنا على ذلك سنين عديدة.

ثم ضربت القداح ، فخرج الأول والثاني لبطريقين، وخرج الثالث لبطريق البرجان، فمر بنا في الشهرين غم كبير نترقب فيهما المكروه، فلما انقضى الشهران حملنا إليه ، ونحن أشد خوفاً، ورأينا على بابه من الجمع خلاف ما كنا نعاين، فتبين لنا من فظاظته وغلظته ما أيقنا معه بالموت.

ثم دعا بالحدادين، فأمر بتقييد المسلمين بأضعاف ما كان يقيدهم غيره، فلم يزل الحديد يعمل في رجل واحد بعد واحد، حتى وصل الحداد إليّ، فنظر إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إليّ نظراً بخلاف العين التي كان ينظر بها إلى غيري، ثم كلمني بلسان عربي فصيح، فسألني عن اسمي ونسبي ومسكني بمثل ما سألني عنه أمير المؤمنين فصدقته عما سألني عنه.

ثم قال لي: كيف حفظك لكتابكم؟ فأعلمته أني حافظ، فقال اقرأ آل عمران، فقرأت منها خمسين آية، فقال : إنك لقارىء فصيح، ثم سألني عن روايتي للشعر، فأخبرته بأني راوية للشعر.

فٱستنشدني لجماعة من الشعراء، فقال: إنك لحسن الرواية، ثم قال لخليفته: إني قد أحببت هذا الرجل، فلا تحدده (أي لا تقيده).

ثم قال : وليس من الإنصاف أن أسوءه في أصحابه، ففك القيود عن جماعته، وأحسن مثواهم، ولا تقصر في قراهم.

ثم دعا صاحب مطبخه أي طباخه، فقال له : لست أطعم طعاماً ما دام هذا العربي عندي إلا معه، فاحذر أن تدخل مطبخي ما لا يحل للمسلمين أكله، وأن تجعل الخمر في شيء من طبيخك، ثم دعا بمائدته واستدعاني حتى قعدت إلى جانبه.

فقلت له : فدتك نفسي، وبأبي أنت، أحبّ أن تخبرني من أي العرب أنت؟.
فضحك وقال: لست أعرف لمسألتك جواباً، لأني لست عربياً فأجيبك على سؤالك، فقلت له : مع هذه الفصاحة بالعربية.

فقال: إن كان العلم باللسان ينقل الإنسان من جنسه إلى من حفظ لسانه ، فأنت إذاً رومي، فإن فصاحتك بلسان الروم ليست بدون فصاحتي بلسان العرب فعلى قياس قولك، ينبغي أن تكون رومياً، وأكون أنا عربياً، فصدقت قوله، وأقمت عنده خمس عشرة ليلة، لم أكن منذ خلقت في نعمة أفضل منها وأكبر.

فلما كانت ليلة ست عشرة فكرت أن الشهر قد مضى نصفه، وأن الليالي تقربني من الانتقال إلى غيره، فبتّ مغموماً.

وجاءني رسوله في اليوم السادس عشر يدعوني إلى طعامه، فلما حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلي مقصراً عما كان يعهده مني، فضحك ثم قال لي: أحسبك يا عربي لما مضى نصف الشهر فكرت في أن الأيام تقربك من الانتقال عني إلى غيري ممن لا يعاملك بمثل معاملتي، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معي فسهرت واعتراك لذلك غم غيّر طعامك ، فأعلمته أنه قد صدق.

فقال: ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقي بحر، وقد أمنك الله مما حذرت، ولم ألبث في اليوم الذي وصلت إلي فيه حتى سألت الملك فصيرك عندي ما كنت في أرض الروم، فلست تنقل عن يدي، ولا تخرج منها إلا إلى بلدك، وأرجو أن يسبب الله ذلك على يدي، فلما سمعت ذلك منه طابت نفسي ولم أزل مقيماً عنده إلى أن انقضى الشهر.

فلما انقضى الشهر ، ضرب بالقداح فخرج الأول والثاني والثالث لبطارقة غير الذي نحن عنده، فحول أصحابي إلى من خرجت القرعة إليه وبقيت وحدي.

وتغديت في ذلك اليوم مع البطريق، وكان من عادتي أن أنصرف من عنده بعد الغداء إلى إخواني من المسلمين، فنتحدث ونأنس، ونقرأ القرآن الكريم ونجمع الصلوات أي نصلي جماعة ونتذاكر الفرائض، ويستمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره ، فانصرفت بعد غدائي ذلك اليوم إلى الموضع الذي كنت فيه ألتقي بإخواني المسلمين، وأحزنني إذ لم أجد إلا الكفرة بعد نقل المسلمين إلى بطريق آخر، فضاق صدري ضيقاً تمنيت معه أني كنت مع أصحابي المسلمين، فبت بليلة ليلاء صعبة طال فيها سهري، وتذكرت قول الشاعر الجاهلي:

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطّى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شُدّت بيذبل

قال الأسير المسلم المؤمن بالله: فانصرفت ذلك اليوم، بعد غدائي مع البطريق -البطريق هو: اسم القائد من قادة الروم، يتولى قيادة عشرة آلاف جندي-

قال الأسير المؤمن: عدت إلى الموضع الذي كنت أصير إليه بعد الغداء، وفيه المسلمون، فلم أر فيه أحداً إلا الكفرة، فضاق صدري ضيقاً تمنيت معه أني كنت مع أصحابي، فبتّ بليلة ليلاء صعبة لم أطعم فيها الغمض، أي لم تغمض عيني لنوم مما نالني من الوحشة، لرحيل أصحابي وتركي وحيداً، وأصبحت أكسف خلق الله بالاً وأسوأهم حالاً.

وجاءني رسول البطريق يدعوني للغداء، فرافقته فتبين الغم في أسارير وجهي، ومددت يدي إلى الطعام فرأى البطريق مدّ يدي إليه خلاف مدِّي الذي كان يعرف، فضحك ثم قال: أحسبك اغتممت لفراق أصحابك؟.

فأعلمته بأنه صدق، وسألته: هل عنده حيلة في ردهم إلى يده؟ فقال: إن الملك لم ير أن ينقل أصحابك من يدي إلى يد غيري إلا ليغمهم بما يفعل، ومن المحال أن يدع تدبيره في الإضرار بهم، لميلي إليك ومحبتي لك، وليس عندي في هذا الباب حيلة، فسألته أن يسأل الملك إخراجي عن يده، وضمي إلى أصحابي، أكون معهم حيث كانوا.

فقال: ولا في هذا أيضا سبيل، ولا حيلة، لأني لا أستجيز أن أنقلك من سعة إلى ضيق، ومن كرامة إلى هوان، ومن نعمة إلى شقاء، فلما قال ذلك تبين فيّ الانكسار وغلبة الغمّ، فقال لي: لقد بلغ بك الغمّ إلى النهاية؟.

فأخبرته: أنه قد بلغ بي الغمّ، أن اخترت الموت على الحياة لعلمي أنه لا رحمة لي بغيره، فقال لي: إن كنت صادقاً، فقد دنا فرجك، فسألته عمّا دلّه على ذلك، فقال لي: إني وقعت في نكبات أشدّ هولاً مما أنت فيه، وكان عاقبتها الفرج.

قصة أحد قادة الروم: (بطريق)

وأعلمني أن بطرقة بلده لم تزل في آبائه يتوارثونها، وأن عددهم كان كثيراً، ولم يبق غير أبيه وعمه، وكانت البطرقة إلى عمه دون أبيه، فأبطأ على أبيه وعمّه الولد، فبذلا للمتطببين أموالاً كثيرة لعلاجهما بما يصلح الرجال والنساء، فلم يفلح العلاج للعمّ فيئس من ذلك واستفاد أبي من العلاج فحملت أمي بي.

فلما علم العمّ بذلك جمع عدة من الحبالى من ألسنة متعددة مختلفة منها العربي والرومي والإفرنجي، والصقلابي والخزري وغير ذلك فوضعهن في داره، فلما وضعتني أمي أمر عمي البطريق تلك النساء بإرضاعي وأوصى بأن لا تكلمني كل مرضعة إلا بلغتها ولسانها، فلم تتمَّ لي أربع سنوات حتى تكلّمت بكل اللغات التي لأمهاتي من الرضاعة، ثم طلب لتربيتي وتأديبي من الرجال من أجناس النساء، فكان كل واحد لا يكلمني إلا بلغته ولسانه، ويعلمني بها القراءة والكتابة، فلم تمر عليّ تسع سنوات حتى عرفت ذلك كله.

ثم أمر عمي أن يضم إليّ جماعة من الفرسان يعلمونني الثقافة والفراسة، واستعمال السلاح ، وجميع ما يتعلّمه الفرسان، ومنع عليّ سكون المنازل لتبقى حياتي خارجها لاكتساب المهارة، والاعتماد على صعوبة الحياة ومنعني من أكل اللحم إلا ما أصيده بنفسي، أو بواسطة ما علم من الطير أو الكلاب، فمرت عليّ عدة سنوات وأنا على تلك الحال، ثم مات عمي وولي البطرقة أبي.

ثم أمر أبي بالقدوم عليه، فلما رآني ورأى فيّ من الأدب والشمائل والفهم اشتد عجبه بي فسمح لي بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها، وأعدّ لي المضارب (الخيام) والأماكن، والفرش الفاخرة والألبسة الفاخرة، وضم لي جماعة من الفرسان الشجعان، ووسع على الجميع كل ما يحتاجونه من المال وغيره، وأمرني بالابتعاد عن منازل أبي.

قال البطريق: فلما تمت لي خمس عشرة سنة، ركبت يوماً لارتياد مكان أكون فيه، فبصرت بغدير ماء طوله ألف ذراع وعرضه يزيد على خمسمائة ذراع، فأمرت بنصب الخيام بقربه، وتوجهت إلى الصيد فرزقت في ذلك اليوم ما لم أطمع في مثله كثرة، ونزلت في بعض الخيام، فأمرت الطباخين فطبخوا لي ما اشتهيت من الطعام، ثم نصبت المائدة بين يدي.

فإني لأنظر إلى الطعام يغرف إذ سمعت ضجة عظيمة، فما فهمت خبرها حتى رأيت رؤوس أصحابي تتساقط عن أبدانهم ، فتنحيت عن مكاني الذي كنت فيه، وخلعت أثوابي التي كانت علي، ولبست ثياب بعض عبيدي، ثم ضربت ببصري يمنة ويسرة، فلم أر حولي إلا مقتولاً، وإذا فاعل ذلك بأصحابي منسر من مناسر البرجان: المنسر مجموعة من الرجال ما بين الأربعين إلى السبعين رجلاً.

ثم أسرت كما يؤسر العبيد، واحتمل جميع ما كان معنا من خيام وغيره، وساروا بي إلى ملك البرجان، فلما رآني، ولم يكن له ولد ذكر أمر بالتوسعة عليّ وأن أكون واقفا عند رأسه وسماني به.

وكانت للملك ابنة فائقة الجمال، وكان يحبها حبًّا جمًّا، وكان قد علمها الفروسية، ومساورة الفرسان(أي مسابقتهم ومساهمتهم) أي المقارعة في السباق، ومراكضهم.

فقال لبطارقته ـ وأنا حاضر: من منكم يتوجه إلى ملك الروم فيختار لي كاتباً من بلده فيجيئني به ليعلم ابنتي الكتابة؟ فقلت له: إن رسوله الذي يرسله لا يأتيك بأكتب مني وأنا بارع في الكتابة وبأي لغة شئت كتبت لك.

فأمرني أن أكتب بين يديه، فكتبت فاستحسن خطي وقرنه بكتب كانت ترد عليه من والدي، فرأى خطي أجود منها، فدفع إليّ ابنته، وأمرني أن أعلمها الكتابة، فتوليت تعليمها الكتابة حتى بلغت ثلاث عشرة سنة، وفي يوم ممن الأيام جاءت مسرعة إليّ باكية، فقلت لها: ما يبكيك يا سيدتي؟.

فقالت: دعني أبكي إذ يحق لي البكاء، فسألتها عن سبب بكائها، فقالت: كنت جالسة بين يدي أبي وأمي في الليلة الماضية، فغلبتني عيني فنمت فسمعت أبي يقول لأمي أرى ابنتك قد كبرت، وأرى هذا الرومي قد غلظ كلامه، وليس من الحكمة أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلست غداً معه، فابعثي إليهما من يفرق بينهما، حتى لا يراها ولا تراه.

وكان من عادة ملك البرجان وسنَّته، أن يخطب الرجل لابنته زوجاً حتى يزوجها، ولا يخطب لها إلا من تختاره البنت نفسها.

قال البطريق: فقلت لابنة الملك: إذا سألك أبوك من تختارين أن أخطب لك من الرجال؟ فقولي : لست أريد إلا هذا الرومي؟.

فقالت بغضب على غضب: كيف يجوز أن يوافق أبي على تزويجي عبداً، فقلت لها: ما أنا بعبد، وما جعلني عبداً كما تظنين، أنا ابن ملك، وأبي ملك الروم.

قال البطريق، وأهل البرجان يسمون البطريق الرومي الذي يتولى حد برجان: ملك الروم، فسألتني عما أخبرتها به، أهو حق أم ادعاء لا أساس له من الصحة، فأعلمتها أنه الحق لا مرية فيه.

فما انقضى كلامنا، حتى جاء رسول الملك، ففرّق بيننا، ولم يمض بعد ذلك إلا ثلاثة أيام حتى دعاني الملك، فدخلت عليه، فرأيت أمارات الشر مستحكمة في وجهه و الشرر يتطاير منه.

فقال لي: يا شقيّ ما حملك على الكذب في نسبك، أغرّتك معاملتي الطيبة لك؟ وأنا أحكم على من انتسب إلى غير أبيه بالقتل فقلت له: ما ينبغي أن ينتسب أي عاقل إلى غير أبيه؟ وما انتسبت إلى غير أبي.

فقال الملك: لقد بلغني انتسابك إلى أنك ابن ملك الروم، فما حملك على ذلك؟ فأعلمته أن ما قلته حق وإني ابن ملك الروم، ودعوته إلى الكشف عن ذلك بما يشاء، فقال الملك: لست أحتاج إلى كشف أمرك برسول أرسله ليعرف خبرك، ولكن لي أشياء امتحنك بها، فأعرف صدقك من كذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء وإصدار حكمه بعد ذلك على ما يرى من برهان ذلك.

فدعا الملك بفرس ولبد وسرج ولجام، فأمرني بأخذ الفرس، فأخذت الفرس من يد السائس، ثم أمرني بتناول السرج فأخذته، ثم أمرني بشد الحزام، والثفر (السير)، بوضع إستئخار السرج، وأمرني بأخذ اللجام وإلجام الفرس ففعلت ذلك كله.

ثم أمرني بركوب الفرس، فركبت وأمرني بالسير فسرت وأمرني بالإقبال والإدبار، ففعلت ثم أمرني بالنزول فنزلت، وهو في كل ذلك يلاحظ.

فلما رأى ما رأى ، قال عند ذلك: أشهد أنه ابن ملك الروم، لأنه أخذ الفرس أخذ الملك وعمل سائر الأشياء مثلما تعمله الملوك، فأشهد أني قد زوجته ابنتي، فشهد القوم عليّ بذلك.

فأمر الملك بتجهيزها وتسليمها إليَّ، فجمعنا الله على خير، وعشنا في سعادة وهناء.

وقد كان لوالدي البطريق صديق له أدب وحكمة، وبراعة في التصوير فصور لهما صورتي في خشبة، وزوَّقها في غرفة من غرف بيت والدي، وقال لهما: إذا ذكرتما ابنكما واشتد غمكما فادخلا الغرفة، فانظرا إلى هذه الصورة، فإنكما ستبكيان بكاء كثيرا يعقبكما سلوة.

ثم إن والدي لم ييأس من حياتي، فأرسل بعض خدمه يبحثون عني، حتى وجدوني وزوجتي فأخذوني إلى أبي، فأخبرته أن والد البنت يحب أن يعلم أين ابنته، وابن من أنا ففعل أبي ذلك.

ثم وجه رسله إلى أبي البنت وهو صاحب البرجان، فخرج في رجال مملكته وتعرف على أبي، فأقيم عرس جديد، وحدثت علاقة طيبة بين الروم والبرجان جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعتدي أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة، ورجع ملك البرجان إلى بلاده وصرنا نحن إلى منازلنا، وساد الوئام بين الفريقين.

قال البطريق : ومات أبي فورثت البطرقة (أي القيادة والملك)، عنه ورزقت من بنت ملك البرجان الولد، وأنت يا عربي، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرت، فقد جاءك الفرج.

عربي أمام قيصر الروم:

فما انقضى كلام البطريق يا أمير المؤمنين، حتى دخل عليه رسول ملك الروم يدعوه، فمضى إليه، ثم عاد إليَّ مسروراً، فقال: يا عربي أبشر فقد جاءك الفرج، كنت عند الملك، وقد جرى ذكر العرب، ورمتهم البطارقة عن قوس واحدة فذكروا أنهم لا عقول لهم، ولا آداب، وأن قهرهم الروم بالغلبة والاتفاق لا بحسن التدبير، فأعلمت الملك أن الأمر بخلاف ما قالوا، فإن للعرب آداباً وأذهاناً وتدبيراً جيداً.

فقال لي الملك : أنت لمحبتك لضيفك العربي تفرط في إعطاء العرب ما ليس لها، وتصفها بما ليس فيها، فقلت للملك : إن رأى الملك أن يأذن في إحضار هذا العربي ليجمع بينه وبين هؤلاء المتكلمين، ليعرف فضيلته، فأمرني بإحضارك إليه. فقلت له: بئس ما صنعت بي، لأني أخاف إن غلبني أصحابه أن يستخف بي وإن غلبتهم أن يضطغن علي.

فقال : هذه صفة العامة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنك إن غلبتهم جللت في عين الملك، وكنت عنده بمكان يقضي لك فيه حاجة، وإن غلبوك سره غلبة أهل دينه لك، فأوجب لك أيضاً بذلك ذماماً، وإن أقل ما يرى أن يقضي لك حاجة ،فإن غلبت أو غلبت فسله إخراجك من بلده ، وردك إلى بلادك، فإنه سوف يفعل.

قال الأسير: فلما دخلت على الملك استدناني،وقربني وأكرمني، وقال لي : ناظر هؤلاء البطارقة،فأعلمته: أن لا أرضى لنفسي بمناظرتهم،إني لا أناظر إلا البطريق الأكبر، فأمر الملك بإحضاره.

مناظرة البطريق الأكبر:

فلما دخل البطريق الأكبر: سلّمت عليه، وقلت له: مرحبا بك أيها الشيخ الكبير القدر، ثم قلت له : يا شيخ كيف أنت؟ قال: في عافية، قلت: فكيف أحوالك كلها؟ قال : كما تحب: فقلت له : فكيف ابنك؟. فتضاحك البطارقة من ذلك وقالوا: زعم البطريق: (يعنون صديقي)، إن هذا أديب، وأن له عقلاً، وهو لا يعلم بجهله أن الله قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن، فقلت : كأنكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟ قالوا: أي والله، إنا لنرفعه إذا كان الله رفعه عن ذلك.

فقلت: يا عجباً أيجل عبد من عبيد الله أن يكون له ابن، ولا يجل الله تعالى وهو خالق الخلائق كلها عن أن يكون له ابن؟!

فلما سمع البطريق الكبير كلامي فيه، نخر نخرة أفزعتني، ثم قال للملك: أيها الملك أخرج هذا الساعة عن بلدك لا يفسد عليك أهله.

فدعا الملك بالفرسان، فضمني إليهم، وأحضر لي دوابّ البريد، وأمر بحملي وتسليمي إلى من يلقانا في أرض الإسلام من المسلمين، فسلموني إلى من تسلّمني من أهل الثغر.

ذلك أيها الأمير هو ما عايشته في بلاد الروم، منذ أسرت إلى أن رجعت إليكم، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، والمؤمن عليه أن يصبر إذا ابتلي وأن يشكر إذا عوفي.

قصة رجل صيرفي:

قال الرجل الصيرفي: أنا رجل كانت لله عز وجل عليّ نعمة جليلة، وكنت صيرفيًّا فابتعت جارية بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقاً عظيماً، وكنت لا أقدرعلى فراقها ساعة واحدة، فإذا خرجت إلى الدكان أصبت بصداع وأخذني شيء كالجنون والهيمان -(الهيمان) هو المصاب بداء الهيام-، والهيمان هو أيضا العطشان، حتى أعود فأجلس معها يومي كله.

فاستمر ذلك بي فتعطلت عن العمل، وعطل دكاني،وتعطل كسبي، وأقبلت على الإنفاق من رأس مالي، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق فراقها، فحمِلت (الجارية)، وأقبلت أنقض داري وأبيع نقضها حتى فرغت من ذلك، فلم تبق لي حيلة.

فضربها الطلق للولادة، فقالت: يا هذا ها أنا أموت فاحتمل فيما تبتاع به عسلاً ودقيقاً، وزيتاً ولحماً وإلا مت.

فبكيت وحزنت وخرجت أهيم على وجهي، وجئت لأغرق نفسي في نهر دجلة فذكرت حلاوة النفس وخوف العقاب في الآخرة، فامتنعت عن ذلك.

ثم خرجت هائماً على وجهي إلى النهروان، ومازلت أمشي من قرية إلى قرية حتى بلغت خراسان، فصادفت فيها من يعرفني، وتصرفت في ضياعه : من معاني الضيعة (الأرض المغلة)، وعليها مساكن للعمال والمزارعين، والضيعة في بعض البلدان العربية هي القرية.

فتصرفت في ضياعه، ورزقني الله عز وجل مالاً عظيماً، فأثريت واتسعت حالي ومكثت سنيناً لا أعرف خبر منزلي، فلم أشك أن الجارية قد ماتت، وتراخت السنون حتى جمعت عشرين ألف دينار، فقلت: قد صارت لي نعمة فلو رجعت إلى وطني وأهلي.

فاشتريت بذلك المال كله متاعاً من خراسان، وأقبلت راجعا أريد العراق من طريق فارس والأهواز.

فلما وصلت بين فارس والأهواز خرج على القافلة لصوص من قطّاع الطرق، فأخذوا جميع ما فيها، ونجوت بملابسي التي عليّ، وعدت فقيراً ودخلت

الأهواز فبقيت بها متحيّراً، لا أدري ماذا أعمل، حتى كشفت خبري لبعض أهلها ممن أعرفه، فأعطاني ما تحملت به إلى واسط ، فنفذ ما عندي من نفقة، فمشيت إلى هذا الموضع وقد كدت أتلف ، فاستعنت بك وأنا كما ترى حالي، وقد مر علي ثمان وعشرون سنة منذ فارقت بغداد.

قال عمرو بن مسعدة: فعجبت من ذلك، وقلت له: اذهب، فأعرف خبر أهلك وصر إليّ، فإني أتقدم بتصريفك فيما يصلح لمثلك، فشكرني ودعا لي ودخلنا بغداد.

ومضيت على ذلك فترة ليست بالقصيرة، حتى نسيت الرجل وقصته ، فبينما أنا يوما وقد ركبت أريد دار الأمير المأمون، وإذا بالشيخ على بابي راكباً بغلاً فارهاً، بمركب محلى ثقيل وغلام أسود بين يديه، وثياب حسنة نظيفة.

فلما رأيته رحبت به ، وقلت له: ما الخبر وما الذي حصل؟، فقال: خبر طويل وأمر عجيب حقاً، وها أنا جئت لأخبرك بأنني سآتيك غداً ـ إن شاء الله ـ وحدثك بالخبر.

الصيرفي يتعرف على ولده:

فلما كان الغد جاءني، فقلت له: عرفني خبرك فقد سررت بسلامتك، وبظاهر حالك، فقال: إني لما صعدت من مركبك، قصدت داري، فوجدت حائطها الذي يلي الطريق كما خلفته، غير أن باب الدار كان مجلواً نظيفاً، وعليه دكاكين وبواب وبغال مع مراقبيها.

فقلت: أنا لله وإنا إليه راجعون، ماتت جاريتي، وملك الدار بعض الجيران فباعها من رجل من أهل أمير المؤمنين، ثم تقدمت إلى بقال، كنت أعرفه في المحلة، فوجدت في دكانه غلاماً حدثاً. فقلت له : من تكون من فلان البقال؟ فقال أنا ابنه، فقلت: وأين أبوك؟ قال: مات؟ فقلت: ومتى مات؟، قال: مات منذ عشرين سنة، قلت: لمن هذه الدار -أقصد داري-؟ قال: لابن داية أمير المؤمنين: (الداية القابلة والجمع دايا ت)، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يعرف؟، قال : يعرف بفلان الصيرفي، فذكر اسمي، قلت فهذه الدار من باعها إليه؟ قال: هذه دار أبيه الصيرفي، قلت: وأين أبوه؟ قال: مات أبوه، قلت: أتعرف من حديثهم شيئاً؟

قال: نعم. حدثني أبي أن والد هذا الرجل كان صيرفيًّا جليلاً، فافتقر وأن أم هذا الرجل ضربها الطلق، فخرج أبوه يطلب لها شيئاً، ففقد وهلك.

وقال أبي: جاءني رسول أم هذا يطلب شيئاً، وهي تستغيث بي فقمت لها بحوائج الولادة ودفعت لها عشرة دراهم، فما أنفقتها، حتى قيل قد ولد لأمير المؤمنين الرشيد مولود ذكراً وقد عرض عليه جميع المرضعات فلم يقبل ثديهن، وقد طلب له الحرائر فجاؤوه بغير واحدة فلم يقبل، وهم في طلب مرضع.

حسن الصدف بتقدير الله:

فأرشدت الذي طلب مر ضعاً إلى أم هذا الولد، فحملت إلى دار أمير المؤمنين، فحين وضع ثدي أم هذا الولد في فم الصبي قبله فأرضعته، وكان الصبي المأمون، وصارت عندهم في حال حسنة جليلة ، ونالت منهم خيراً كثيراً.

ثم خرج المأمون إلى خراسان، وخرجت المرأة وابنها مع المأمون، ولم نعرف شيئاً عن أخبارهم إلا منذ وقت قريب ، لما عاد المأمون وعادت حاشيته ، رأينا هذا قد صار رجلاً، ولم أكن قد رأيته قبل قط ، وكان أبي قد مات.

فقالوا: هذا ابن فلان الصيرفي وابن داية: مرضعة أمير المؤمنين المأمون، فبنى هذه الدار، ثم قلت: له هل عندك علم أن أمه حية أم ميتة؟. قال: هي حية تمضي إلى دار الخليفة المأمون أياماً، وتكون عند ابنها أياماً هنا.

ابن الصَّيرفي يتصدر:

فحمدت الله تعالى على هذه الحال، وجئت الدار مع الناس، فرأيت في صدر المجلس رجلاً شابًّا بين يديه كتاب ومحاسبون، ورجالاً بأيديهم الأموال، يقبض منهم وآخرين يقبضون منه، فلما انتهى الجميع مما هم فيه انصرفوا وبقيت منفرداً مع الفتى الشاب، فلما رآني أقبل إليَّ وقال: يا شيخ هل من حاجة تريدها؟.

سر المفاجأة:

فقلت: نعم ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعه غيرك ، فأومأ إلى غلمان كانوا حوله قياماً فانصرفوا، وقال: قل أعزك الله، قلت: أنا أبوك، فلما سمع مقالتي تغيّر وجهه

ثم وثب مسرعاً وتركني مكاني، فلم أشعر إلا بخادم جاءني فقال : قم يا سيدي، فقمت أسير معه حتى بلغت ستارة منصوبة في دار لطيفة، وكرسي بين يديها، والفتى جالس على كرسي آخر فقال: اجلس أيها الشيخ. فقلت للفتى: أظنك تريد أن تختبر صدق ما قلت لك من جهة فلانة، وذكرت اسم الجارية أمه أليس كذلك؟ قال: فإذا بالستارة قد كشفت والجارية قد خرجت إليَّ فوقعت عليّ تقبلني وتبكي وتقول: مولاي والله أنت فأخذت دموعي تسيل على خدي بلا انقطاع، إنها لحظة اللقاء والمفاجأة.

قال: فلم يتحمل الفتى هو الآخر، تلك اللحظة المفاجئة فتحير وبهت، فقلت للجارية: ويحك ما خبرك؟ وما الذي حصل خلال تلك المدة، فقالت: دع ذلك ففي مشاهدتك سلوان عما مضى ومما تفضل الله به علينا من مشاهدتك، كفاية إلى أن أخبرك ، فقل ما كان من خبرك.

الصَّيرفي يحكي قصته:

فقصصت عليها خبري ، من يوم خروجي من عندها ، وهي في حالة الطلق إلى يوم اللقاء، وقصّت هي الأخرى قصتها مثل ما قال ابن البقال جارنا وأعجب وأشرح للصدر،وكل ذلك والفتى يسمع ويتابع باهتمام، فلما استوفى الحديث خرج وتركني في مكاني والجارية.

قال: فما طال بنا الجلوس حتى جاء خادم فقال: يا مولاي يسألك ولدك أن تخرج إليه فهو في انتظارك.

قال: فخرجت إليه ، فلما رآني من بعيد قام قائماً على قدميه وقال : معذرة إلى الله وإليك يا أبتِ، من تقصيري في حقك، فإنه فاجأني من أمرك ما لم أظن أنه يكون، والآن فهذه النعمة لك ،وأنا ولدك وأمير المؤمنين المأمون مجتهد بي منذ دهر أن أدع هؤلاء الكتبة، وأتوفر على خدمته في الدار، فلا أفعل طلباً للمسك بضيعتي، والآن فأنا أسأله أن يرد إليك عملي، وأخدمه أنا في غيرها فقم يا أبتي عاجلاً وأصلح أمرك، فأخذت الحمام، ونظفت نفسي، وجاءني الخدم بخلعة وروائح عطرة فلبستها وزال ما بي من العياء والتعب، ودبت الحياة فيَّ، وخرجت إلى حجرة والدته فجلست فيها ، ثم ما لبثت إلا قليلا.

الولد يقدم والده لأمير المؤمنين:

ثم أدخلني على أمير المؤمنين، فطلب مني أن أحدثه بحديثي، فلما حدثته خلع عليّ أفضل الخلع وأحسنها ، ورد عليّ العمل الذي كان إلى ولدي،وأجرى علي من الرزق في كل شهر كذا وكذا، وقلّد ابني أعمالاً هي من أجل عمله وأضعف له أرزاقه، وأمره بلزوم حضرته في أشياء استعمله فيها من خاص أمره.

فجئت لأشكرك أيها الوزير، على ما عاملتني به من الجميل، وأعرفك بتجدّد نعمة الله عليّ إذ أطال الله في عمري، وأرى جاريتي وولدي فيما هما فيه من النعمة والفضل والعزة والكرامة، فدبَّت فيّ الحياة والأمل من جديد.

فقال عمرو بن مسعدة: فلما عرفني اسم الفتى واسم أمه علمت أنه ابن داية أمير المؤمنين المأمون.

إن الزمان مليء بالعبر والعظات، وحوادث الزمن تعلم الرجال الصبر والتوكل على الله، وعلى العاقل أن يأخذ من تلك الحوادث الصبر لتحمل المشاق والتذرع بسلاح الصبر والتمسك بحبل الله المتين، والله يصرّف الأمور على وفق إرادته وحكمته ، وإن خفيت على المخلوقين، لأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا ،والله وَسِعَ كل شيء رحمة وعلماً.

خذ العبرة من حوادث الزمان:

روى القاضي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، قال: حدثني رجل أن رجلاً خرج بغزل فباعه بدرهم ليشتري به دقيقاً لأهله، فمرعلى رجلين كل منهما آخذ برأس صاحبه يجرّه إليه ، فقال الرجل: ما هذا؟.

فقيل له: يقتتلان في درهم، فأعطاهما ذلك الدرهم وليس له شيء غيره فرجع إلى امرأته فأخبرها بما جرى له ، فجمعت له أشياء من أمتعة البيت ليبيعها فذهب بها إلى السوق فكسدت عليه، فمرّ على رجل وهو عائد إلى بيته خائباً رأى معه سمكة قد نتنت فقال له: إن معك شيئاً قد كسد، ومعي شيء قد كسد أيضاً، فهل لك أن تبيعني كاسدك بكاسدي قال: نعم. خذ هذا وأعطني ذلك فرجع كل واحد منهما إلى داره راضياً بذلك.

فلمَّا وصل مشتري السمكة إلى البيت قال لزوجته: قومي فأصلحي لنا أمر هذه السمكة، فقد هلكنا من الجوع.

فقامت المرأة لتصلح السمكة، وتُعدّها للأكل بعد تنظيفها، فشقّت جوف السمكة ففوجئت بوجود لؤلؤة في جوفها، فقالت المرأة لزوجها: يا سيدي قد خرج من جوف السمكة شيء أصغر من بيض الدجاج، وهو يقارب بيض الحمام لا أدري ما هو؟.

قال الرجل: أرينيها، فنظر إلى شيء ما رأى في عمره مثله، فطار عقله وحار لبه، فقال لزوجته: أظن أن هذه لؤلؤة، فقالت: أو تعرف اللؤلؤة؟ قال: لا ولكني أعرف من يعرف ذلك، ثم أخذها،وانطلق بها إلى صديق له يعرفه حق المعرفة وهو يبيع الجوهر،والذهب والفضة، فلما وصل إليه سلم عليه وجلس بجانبه يتحدث معه، ثم أخرج ما عنده فعرضه على صاحبه وصديقه، فقال له: أنظر إلى هذا وأخبرني ما هو، وعن ثمنه؟.

فأخذ الجوهري ذلك الشيء ، فقال : هذه لؤلؤة وأنا مستعد لأشتريها منك بأربعين ألف درهم ، فإن شئت استلمت المبلغ الآن، وإن طلبت الزيادة فاذهب بها إلى فلان الجوهري ، فإنه سيعطيك عنها أكثر من أربعين ألف درهم.

فذهب الرجل بلؤلؤته إلى من دلّه عليه صديقه الجوهري الأول ، فلما وصل إليه سلم عليه وعرض له ما عنده، فنظر إليها واستحسنها وقال : ابتاعها منك بثمانين ألف درهم، وإن شئت الزيادة فاذهب بها إلى الجوهري فلان، فهو خير من يعرف قيمة هذه الأشياء.

فذهب بها إلى الجوهري الثالث، فلما رآها اشتراها منه بعشرين ومائة ألف درهم، فوزن له المال، فحمل الرجل في ذلك اليوم اثنتي عشرة بدرة، في كل بدرة عشرة آلاف درهم، فذهب بها إلى منزله، وعند وصوله إلى منزله وجد فقيراً واقفا بالباب يسأل.

فقال الرجل: هذه قصتي التي كنت فيها ، وحالتي التي كنت عليها، أدخل أيها السائل الكريم، فدخل الفقير فقال له الرجل: خذ نصف هذا المال، فأخذ الرجل الفقير ست بدر فحملها ثم انصرف غير بعيد، ثم رجع إليه.

ثم كشف له عن هويته، وقال: ما أنا بمسكين ولا فقير، وإنما أرسلني إليك الله عز وجل الذي أعطاك وعوّضك عن الدرهم عشرين قيراطا ، فهذا الذي أعطاك قيراطاً منه وٱدخر لك تسعة عشر قيراطاً.

أمانة صادفت أهلاً:

فعن الحسن بن محمد الأنباري الكاتب قال: كان لي أيام مقامي بأرجان جار تاجر أمين ، يعرف بجعفر بن محمد وكنت آنس به فحدّثني يوماً فقال: كنت أحج كل عام، وكنت أنزل على رجل فقير مستور،من الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم، وكنت ألطفه واتفقده.

وفي سنة من السنين حالت بيني وبين الذهاب إلى الحج بعض الشواغل، ثم عاودت الحج في العام القادم، فذهبت إليه كعادتي، فوجدته قد أثرى وحسنت حالته فسررت لذلك، وسألته عن سبب ذلك.

فقال: كان قد اجتمع معي دريهمات على وجه الدهر، ففكرت عام أول في أن أتزوج، فإني كنت عزباً كما قد علمت (العزب الذي لا أهل له من الرجال والنساء) أي غير متزوج.

ثم علمت أن فرض الحج قد تعين علي ، فرأيت أن أقدم أداء الفرض على الزواج، وأتوكل على الله عز وجل، في أن يسهل لي بعد ذلك ما أتزوج به.

فلما حججت طفت طواف الدخول، وأودعت رحلي، وما كان معي في بيت نزلت فيه ، وأقفلت بابه وخرجت إلى منى.

فلما عدت إلى البيت وجدته مفتوحاً فارغاً أخذ كل ما فيه، فتحيرت ونزلت بي شدة ما مر بي قط مثلها.

فقلت: هذا أعظم للثواب، فصبرت وقلت: لا داعي للغم والحزن، فاستسلمت لأمر الله عز وجل، واحتسبت ذلك لوجهه الكريم، فجلست في البيت لا حيلة لي، ولا تسمح نفسي بالمسألة، فاستمر مقامي ثلاثة أيام ما طعمت فيها شيئا.

وفي اليوم الرابع بدا الضعف يدبّ فيّ دبيباً، وخفت على نفسي الهلاك، وذكرت قول الرسول ﷺ: ماء زمزم لما شرب له، فخرجت أريدها حتى وصلت إليها فشربت حتى ارتويت، ورجعت أريد باب النبي إبراهيم الخليل عليه السلام لأستريح.

باب النبي إبراهيم أحد أبواب الحرم المكي، اعتبره ابن جبير في رحلته منسوباً للنبي إبراهيم خليل الرحمن، فقال: باب إبراهيم الخليل ﷺ في زاوية كبيرة فيها دار إمام المالكية في الحرم،وفيها خزانة للكتب، أما ابن بطوطة فقد ذكر في رحلته باب إبراهيم، وقال: إن البعض ينسبه إلى إبراهيم الخليل ﷺ. والصحيح أنه منسوب إلى إبراهيم الخوزي رجل من الأعاجم، والله أعلم.

فقال الرجل : فبينما أنا أسير إذ عثرت في الطريق بشيء أوجع إصبعي فأكببت عليه لأمسكه ، فوقعت يدي على هِمْيَان أدم أحمر كبير فأخذته.

فلما حصل في يدي ندمت، وعلمت أن اللقطة ـ ما لم تعرف ـ حرام، وقلت إن تركته الآن كنت أنا المضيع له ، وقد لزمني أن أعرفه، ولعل صاحبه إذا رجع إليه أن يهب لي شيئاً أقتاته حلالاً.

فرجعت إلى بيتي وفتحت الهِمْيَا ن، فإذا فيه أكثر من ألفي دينار صفر، فسددته أي أرجعته على حالته كما كان، ورجعت إلى المسجد فجلست عند الحجر، والحجر بكسر الحاء وسكون الجيم، موضع بجانب الكعبة قيل إن فيه قبر هاجر أم النبي إسماعيل عليه السلام: (معجم البلدان) فجلست عند الحجر، ونا ديت من ضاع له شيء فليأتني بعلامة ويأخذه.

فانقضى يومي، وأنا أنادي، وما جاءني أحد، وأنا على حالي من الجوع، وبت في بيتي ليلتي كذلك، وعدت إلى الصفا والمروة، فعرفته عندهما يومي حتى كاد ينقضي فلم يأتني أحد.

والضعف يزداد بي من أثر الجوع ، وخشيت على نفسي، فرجعت متحاملاً ثقيلاً حتى جلست على باب إبراهيم الخليل على نبينا وعليه السلام، وقلت قبل انصرافي، إني قد ضعفت عن رفع صوتي لتعريف اللقطة ، وأنا ماض أجلس على باب إبراهيم، قلت للجالسين والمارين ، من رأيتموه يطلب شيئاً قد ضاع منه فأرشدوه إليّ.

فلما قرب المغرب وأنا في الوضع ، إذا أنا برجل خراساني ينشد ضالة فصحت به، وقلت له: صف لي ما ضاع منك؟ فأعطاني صفة الهِمْيَان بعينه، ذكر وزن الدنانير وعددها.

فقلت: إن أرشدتك إلى من يرده عليك، تعطيني منه مائة دينار؟ قال: لا. قلت: فخمسين ديناراً؟. قال: لا. قلت: فعشرة دنانير؟. قال:لا. فلم أزل أنزل معه حتى

بلغت إلى دينار واحد، فقال: لا. إن رأى من هو عنده أن يرده إيماناً واحتساباً، وإلا فهو أبصر وولى لينصرف.

فورد علي أعظم وارد، وهممت بالسكوت، ثم خفت الله سبحانه وتعالى، وأشفقت أن يفوتني الخراساني.

فصحت به ارجع ،ارجع ، وأخرجت الهِمْيَان فدفعته إليه، فأخذه وانصرف وجلست ليس لي من القدرة ما يوصلني إلى بيتي.

فما غاب إلا قليلاً حتى رجع إليّ، فقال لي : من أي البلاد أنت؟ ومن أي الناس؟ وأنا في غيظ عليه ما الله عالم به ،وقلت له : ما عليك هل بقي لك عندي شيء؟. قال: لا ولكن أسألك با لله العظيم من أي الناس والبلاد أنت؟ فعرفني ولا تتضجر مني.

فقلت : رجل من أهل الكوفة من العرب، فقال: من أيهم أنت واختصر؟ فقلت رجل من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب، فقال : ما حالك ومالك؟.

قلت: لا أملك في هذه الدنيا كلها إلا ما تراه، وقصصت عليه حال محنتي وما كنت طمعت فيه أن يعطيني من الهِمْيَان، وما انتهيت إليه من الضعف والجوع .

فقال: أريد تأكيداً لصحة نسبك حتى أقوم بجميع أمرك كله، فقلت: ما أقتدر على المشي للضعف ولكن ائْت الطواف وصح في أهل الكوفة، وقل: رجل من بلدكم بباب إبراهيم ، يريد أن يأتيه منكم من ينشط لحال هو فيها، فمن جاء معك فأْت به.

فغاب غير بعيد ، ثم جاء ومعه من أهل الكوفة مجموعة اتفق أنهم كلهم كانوا يعرفون حالي، فقالوا : ما تريد منا يا هذا؟.

فقلت: هذا رجل يريد أن يعرف حالي، ونسبي لشيء بيني وبينه، فعرفوه ما تعرفون من ذلك، قال: فعرفوه، فمضى مسرعاً ثم جاء فأرجع الهِمْيَان بعينه كما سلمته إليه ، فقال خذ هذا بأسره بارك الله لك فيه.

فقلت: يا هذا ما كفاك ما عاملتني به حتى تهزأ بي وأنا في حال الموت! قال: معاذ الله هو لك. قلت: فلم بخلت علي بدينار ثم وهبت لي الجميع ؟.

فقال: ليس الهِمْيَان لي، وما كان يجوز لي أن أعطيك منه شيئاً قل أو كثر وإنما هو لرجل من بلدي، وسألني أن أطلب له رجلاً من العراق أو من الحجاز، وأن

يكون فقيراً مستوراً وأسلم هذا المال كله، فتوفرت صفات الرجل فيما طلبه لتسليمه المال فخذه هنيئاً مريئاً.

فقلت له : يرحمك الله إن كنت تريد استكمال الأجر فخذ منه ديناراً وٱشترِ لي به طعاماً وٱتني به، فقال: لي إليك حاجة، قلت: قل. قال: أنا رجل موسر والَذي أعطيك ليس لي فيه شيء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تصحبني إلى رحلي فتكون في ضيافتي في الطريق إلى الكوفة.

فقلت: ما في حركة فاحتل في حملي كيف شئت، فغاب عني فترة وجاء بمركوب فركبته إلى رحله وأطعمني مما كان عنده، وقطع لي من الغد ثياباً، ورافقني إلى الكوفة، وكان يخدمني بنفسه، فلما وصلنا الكوفة أعطاني من عنده عدداً من الدنانير، وقال تزود بها ، فارقني وأنا أدعو له بخير وأشكره.

وأخذت أنفق من تلك الدنانير، ولم أمس الهِمْيَان إلى أن وجدت ضيعة رخيصة، فاشتريتها بما في الهِمْيَان فأغلَّت وأثمرت، وأَنا من الله عز وجل في نعمة جزيلة وخير كثير، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث عشر

في الإنفاق في سبيل اللّه

من عطايا الأمراء:

يحكى أن الأصمعي عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي المولود في البصرة عام١٢٢هـ والمتوفى عام٢١٦هـ في البصرة ودفن فيها، قال الأصمعي: لزمت هارون الرشيد، فكنت أقيم عليه نهاري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضرًّا، وهزالاً، أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر، من الفرج والفرح ، فأؤمل صلاح حالي باتّفاق محمود فأصبر.
فبينما أنا ذات ليلة وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟.

فقلت: ألله أكبر، ربّ مضيق فكه التيسير،أنا ذلك الرجل الذي تبحث عنه، فأخذ بيدي وقال: أدخل فإن ختم لك بالسعادة ، فلعلها أن تكون ليلة تقرّ عينك فيها بالغنى.

فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت فواجهت الرشيد في البهو جالساً والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي جالس إلى جنبه.

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت على أمير المؤمنين الرشيد، ثم قال: تنحَّ قليلاً حتى تسكن إن كنت وجدت روعة.

فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر،إن شغلت بعارض فلا اعتا ض منها إلا الكمد حتى يصفق عليَّ الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبها جدّه يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني أيده الله فأجيب ، أو أبتدىء فأصيب؟.

فتبسم جعفر إليّ وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحري به أن يكون محسناً.

ثم قال لي: أشاعر أنت؟ أراد أراوية للشعر؟. قال: لمن؟(قلت لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً، فقال: أنصف القارة من راماها، ثم قال: ما معنى هذه الكلمة؟.

قلت لها وجهان: زعمت التبابعة أنه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحدق، فكان تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى أين رماة الحدق؟ فقالت العرب: أنصف القارة من راماها فصارت مثلاً.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجبل الشاهق ، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى لأن المراماة كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كأساً، ويعطي كأساً، كذلك المراماة أن يرميها وترميه.

فقال جعفر أصبت، فهل رويت للعجاج بن رؤبة شيئاً؟. قلت: الأكثر من شعره، كان العجاج من الشعراء الرجاز، ومن الفصحاء المشهورين، ومن المحتج بأشعارهم في اللغة العربية ، قال: أنشدني قوله:

أرقني طارق هم طرقا : فقلت : نعم فمضيت فيها مضي الجواد، تهدر أشداقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية ثنيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.

المنصور: هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عُني بالعلوم من ملوك العرب، وكان عارفاً بالفقه والأدب، والفلسفة والفلك، وكان محبًّا للعلماء، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح عام١٣٦هـ، وهو باني مدينة بغداد. أمر بتخطيطها عام١٤٥هـ، وجعلها دار ملكه ، بدلاً من الهاشمية التي بناها السفاح، وزاد في توسعة المسجد الحرام، وفي أيامه بدأت ترجمة علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول إسطرلاب في الإسلام صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري، وكان متَّسماً بالجد والتفكير، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً، توفي محرماً ببئر ميمون من أرض مكة المكرمة عام١٥٨هـ ودفن في الحجون (بمكة المكرمة) عن عمر يناهز ٦٣عاماً، ومدة خلافته (٢٢عاماً).

قال الأصمعي: فلما ثنيت العنان في مدح المنصور، قال: أعن عمد ملت إلى هذا أو عن غير عمد؟.

فقلت : عن عمد تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده، فقال جعفر بارك الله فيك، مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف، ثم التفت إليّ الرشيد، فقال: أتروي لعدي بن الرقاع شيئاً؟.

ابن الرقاع هو: أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العملي، شاعر دمشقي، كان مقدماً عند بني أمية مدَّاحاً لهم واختص بالوليد بن عبد الملك مات بدمشق عام ٩٥هـ.

فلما قال لي: أتروي شيئاً لعدي بن الرقاع ، قلت: الأكثر. قال: أنشدني قوله:

بانت سعاد وأخلفت ميعادها : فبدأت أشداقي تهدر ، فقال جعفر : يا هذا أنشد على مهل فلن تنصرف إلا غانماً، فقال الرشيد: أما إذ قطعت عليّ أقسم لتشركني في الجائزة.

قال الأصمعي: فطابت نفسي فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب، فتبسم ومضيت فيها، ثم قال: أتروي شيئاً لذي الرّمة؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله: أمن حذر الهجران قلبك يطمح.

فقلت: عروس شعره، قال : فأية الختن؟ قلت قوله يا أمير المؤمنين: ما بال عينيك منها الماء ينسكب.

فقال: إمض فيها، فمضيت فيها حتى انتهيت إلى وصف جمله، فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة الهر بجمل أجرب، فقال له الرشيد: أسكت فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن قرارك، ثم جعلت جلودها سياطا تضربها أنت وقومك عند الغضب.

فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت بغير ذنب، فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، ولو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على الشدائد.

قال الرشيد: ما تراه قال القائل حين أنشده هذا البيت؟

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها

قلت: قال كذاك أراد الله، فقال الرشيد: ما كان في جلالته ليقول هذا، أحسبه قال: ما شاء الله، قلت : وكذا جاءت الرواية، فلما أتيت إلى آخرها قال: أتروي لذي الرّمة شيئاً؟ وماذا أراد بقوله؟:

ممر أمرت فتله أسدية ذراعية حلالة بالمصانع

قلت: وصف حمار وحش أسمنه بقتل روضة تواشجت أصوله وتشابكت فروعه، من مطر سحابة كانت بنوء الأسد، ثم في الذراع من ذلك، فقال الرشيد: أرح ،فقد وجدناك ممتعاً، وعرفناك محسناً، ثم قال : أجد ملالة، وهذا جعفر، ضيف عندنا فسامره باقي ليلتك.

ونهض هارون الرشيد، فأخذ الخادم يصلح عقب النعل في رجله، وكانت عربية، فقال الرشيد: عقرتني يا غلام، فقال جعفر: قاتل الله الأعاجم،أما إنها لو كانت سندسية لما احتجت إلى هذه الكلمة.

فقال الرشيد: هذه نعلي ونعل آبائي، كم تعارض فلا تترك من جواب ممض! ثم قال: يا غلام،يؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم لهذا الرجل، في ليلته هذه، ولا يحجب مستأنفاً، أي في المستقبل من الزمان.

فقال جعفر: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين، ولا يأمر فيه غيره، لأمرت لك بمثل ما أمر لك، وقد أمرت لك به إلا ألف درهم، فتلقى الخادم صباحا، فقال الأصمعي: فما صرت من غد إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم.

الباب الرابع عشر

في الكتابة

أنواع الكتبة الخمسة:

يروى عن عمرو بن مسعدة الصولي، وزير المأمون، أنه قال: كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزل الرقة، قال لي: يا عمرو، أما ترى عمر بن فرج ابن زياد الخجي، قد احتوى على الأهواز؟ وهي سلة الخبز، وجميع الأموال قبله، وقد طمع فيها، وكتبي متصلة في حملها إليه، وهو يتعلّل ويتربّص بنا الدوائر.

فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك أمره، وأنفذ من يضطره إلى حمل ما عليه، فقال: ما يقنعني هذا، قلت: فليأمر أمير المؤمنين بأمره.

قال: تخرج إليه بنفسك، حتى تصفّده بالحديد (أي تقيده)، وتحمله إليَّ بعد أن تقبض جميع ما في يده من أموالنا، وتنظر في ذلك وترتّب فيه عمالاً.

فقلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد دخلت عليه، فقال: ما فعلت فيما أمرتك به؟. قلت: أنا على ذاك، فقال: أريد أن تجيئني في غد مودعاً، قلت: السمع والطاعة، فلما كان من غد جئت إليه مودعاً.

فقال: أريد أن تحلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً، فاضطربت من ذلك إلى أن خطر عليَّ واستحلفني أن لا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجت وأنا مضطرب مهموم.

وقلت في نفسي: أنا في موضع، وقد جعلني مستحثًّا إلى عامل، ومتخرجاً، ولكن أمر الخليفة لا بدّ من سماعه، وامتثاله واتباع مرسومه، وسرت حتى وصلت بغداد ولم أقم فيها إلا ثلاثة أيام، وانحدرت منها في قارب سريع، أريد البصرة، وجعل لي فيه خيش، واستكثرت من الثلج لشدة الحر، فلما صرت بين جرجرايا وجبل، جرجرايا بلد من بلدان النهروان الأسفل بين واسط وبغداد، وجبل بلدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي من نهر دجلة، سمعت صائحاً من الشاطىء يصيح: يا ملاح فرفعت سجف القارب، فإذا أنا بشيخ كبير السن حاسر الرأس، حافي القدمين خلق الثياب.

فقلت للغلام: أجبه فأجابه، فقال: أنا شيخ كبير السن، على هذه الصورة التي ترى، وقد أحرقتني الشمس، وكادت تقتلني، وأنا أريد جبَل، فأحملني معكم فإن الله عز وجل يحسن أجر صاحبكم.

قال عمرو بن مسعدة فشتمه الملاح وانتهره، فأدركتني عليه رقة ،وقلت: للغلام خذه معنا، فقدّم إلى الشّطّ القارب وحملناه ، فلما صار معنا في القارب وانحدرنا ، تقدمت إليه فدفعت إليه قميصاً ومنديلاً وغسل وجهه واستراح ، فكأنه كان ميتاً عاد إلى الحياة من جديد.

وحضر وقت الغداء، وقلت للغلام ناده يأكل معنا، فجاء وقعد على الطعام، فأكل أكل أديب الغداء، ظريف ، غير أن الجوع قد أثر فيه أثراً واضحاً.

فلما رفعت المائدة أردت أن يقوم ويغسل يديه ناحية ـ ما يفعل العامة في مجالس الخاصة ـ فلم يفعل فغسلت يدي وتذممت أن آمر بقيامه، فقلت: قدموا له الإناء فغسل يده، وأردت بعدها أن يقوم لأنام فلم يفعل.

فأردت أن أختبره وأتبيَن حاله بالحديث إليه ، فقلت: يا شيخ ما صناعتك؟ فقال: أنا حائك أصلحك الله.

فقلت في نفسي: هذه الحياكة علمته سوء الأدب ،فتناومت عنه، ومددت رجلي، فقال الشيخ: لقد سألتني عن صناعتي فأجبتك، فأنت أعزك الله ما صناعتك؟.

فأكبرت بادرة ذلك منه، وقلت: أنا جنيت على نفسي هذه الجناية، ولا بدّ من احتماله ، أتراه ـ الأحمق ـ لا يرى ما أنا فيه من الغلمان والنعمة، وأن مثلي لا يسأل عن مثل هذا.

ثم قلت له: أنا كاتب. فقال الشيخ : أنت كاتب كامل، أم كاتب ناقص؟ فإن الكتّاب خمسة فمن أيهم أنت؟.

فورد عليّ من قول الحائك مورد عظيم، وسمعت كلاماً أكبرته، وكنت متكئاً فجلست، ثم قلت له : فصِّل الخمسة. قال: نعم:

١ ـ كاتب خراج : يقتضي أن يكون عالماً بالشروط، والأجور والحساب والمساحة والبثو ق والفتو ق والرتوق.

٢ـ وكاتب أحكام : يحتاج أن يكون عالماً بالحلال والحرام، والاختلاف والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع.

٣ـ وكاتب معونة: يحتاج أن يكون عالماً بالقصاص والحدود والجراحات والمراتبات والسياسات.

٤ـ وكاتب جيش: يحتاج أن يكون عالماً بحلى الرجال، وشيات الدواب ومداراة الأولياء، وشيء من العلم بالنسب والحساب.

٥ـ كاتب رسائل: يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والفصول والإطالة والإيجاز، وحسن البلاغة وجودة الخط.

فقلت له: أنا كاتب رسائل، قال: فأسألك عن بعضها؟. قلت: سل. قال: أصلحك الله، لو أن رجلاً من إخوانك تزوجت أمه،فأردت أن تكاتبه مهنئاً، فماذا كنت تكتب إليه؟.

ففكرت في الحال فلم يخطر ببالي شيء فقلت: اعفني، قال: قد فعلت، ولكنك لست بكاتب رسائل، فقلت: أنا كاتب خرج.

قال: لا بأس، لو أن أمير المؤمنين ولاك ناحية، وأمرك فيها بالعدل والإنصاف وتقضي حق السلطان، فتظلم إليك بعضهم من مساحيك، وأحضرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك، فحلف المساح بالله العظيم، لقد أنصفوا وما ظلموا، وحلف الرعية بالله العظيم أنهم قد ظلموا، وجاروا عليهم، وقالوا لك: قف معنا على ما مسحوه وٱنظر من الصادق، ومن الكاذب، فخرجت مع القوم لتقف عليه، فوقفوا على قراح شكله (قاتل قثا) كيف كنت تمسحه؟.

فقلت: فآخذ الوسط وأضربه بالعمود، قال: إذا ينثني عليك العمود فأسكتني، فقلت: أنا لست كاتب خراج، قال: فإذاً ماذا؟.

قلت: أنا كاتب قاض. قال: لا تبال، أفرأيت لو أن رجلاً توفي وخلف امرأتين حاملتين، إحداهما حرة والأخرى سرية، وولدت السرية غلاماً وولدت الحرة جارية، فعمدت الحرة إلى ولد السرية فأخذته وتركت بدله الجارية، فاختصمتا في ذلك، كيف تحكم بينهما؟.

قلت: لا أدري، قال: فلست كاتب قاض، قلت أنا كاتب جيش. قال: لا بأس عليك أرأيت لو أن رجلين جاءا إليك لتحليهما، وكل واحد منهما اسمه واسم أبيه كاسم الآخر واسم أبيه، إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا، والآخر مشقوق الشفة السفلى، كيف كنت تحليهما؟.

قلت: أقول فلان الأعلم، وفلان الأعلم، قال: إن رقيهما مختلفان، وكل واحد منهما يجيء في دعوة الآخر، قلت لا أدري. قال الشيخ: فلست بكاتب جيش أنت؟.

قال : أنا كاتب معونة ، فقال الشيخ : لا عليك انتقل إلى أي نوع من أنواعها فلست في شيء من ذلك ، ولما قال المسؤول أنا كاتب معونة.

قال الشيخ : لوأن رجلين رفعا إليك شج أحدهما شجة موضحة (الشجة الموضحة أو الواضحة) التي تكشف العظم، وشج الآخر صاحبه شجة مأمومة (الشجة المأمومة أو الآمة التي تصل إلىأم الرأس، وأم الدماغ وتسمى الجائفة).

والشجة شقّ في الجلد ، وهي في الرأس أو الجبين خاصة، وقد تعمم والجمع شجاج، وشجات والشجة على مراتب عشر، وهي الحارصة والباضعة، والدامية، والمتلاحمة، والسمحاق، والموضحة، والهاشمة، والمنقلة، والآمة، والدامغة).

قال الشيخ لعمرو بن مسعدة الصولي وزير المأمون: فبما أنك قلت، بأنك كاتب معونة لو أن رجلين رفعا إليك شج أحدهما شجة موضحة، وشج الآخر صاحبه شجة مأمومة، كيف تفصل بينهما؟. قال عمرو بن مسعدة: لا أدري.

قال الشيخ إذن أنت لست كاتب معونة، فاّطلب لنفسك ـ أيها الرجل ـ شغلاً غير هذا فإنك لا تصلح لأن تكون كاتباً لأي نوع من الأنواع الخمسة.

قال عمرو بن مسعدة: فعصرت إلى نفسي وغاظني ما سمعت من الشيخ فقلت له: لقد سألت عن هذه الأمور، وعلمت علمي فيها، وقد يجوز أن لا يكون عندي أجوبتها، كما لم يكن عندي فإن كنت عالماً بالجواب فقل: اسمع ، فإن لكل قول حقيقة، وإلا فسأعتبر أسئلتك أسئلة تعنتية وتعنيتية ، لا تعليمية و لاتعلمية.

فقال الشيخ: نعم، فإليك الجواب، أولاً بأول: أما فمن تزوجت أمه فتكتب إليه ما يلي:

أما بعد فإن الأمور تجري بأمر الله من عند الله، بغي محبة عباده، ولا اختيارهم، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يختار لهم ما أحب لهم، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [سورة القصص: ٦٨]. وقد بلغني تزويج الوالدة، خار الله لك في قبضها ، فإن القبر أكرم الأزواج وأستر للعيوب والسلام.

وأما قراح (قاتل قثا): فيمسح العمود حتى إذا صار عدد في يدك ضربته في مثله ثلته فما خرج فهو مساحته.

وأما ما يتعلق بالحكم بين المرأتين والغلام والجارية ولمن الغلام ولمن الجارية؟ فيوزن اللبنان فأيهما أخف فالجارية له، وأيهما أثقل فله الغلام.

وأما المرتزقان المتوافقان في الإسمين ،فإن كان الشق في الشفة العليا كتبت علامته فلان الأعلم، وإذا كان الشق في الشفة السفلى كتبت علامته فلان الأفلح.

وأما أصحاب الشجتين فلصاحب الواضحة : ثلث الدية ،ولصاحب المأمومة: نصف الدية. ذلك جواب ما لم تستطع الإجابة عنه، قال عمرو بن مسعدة الصولي بعدما سمع تلك الإجابة، لقد تعجبت منه، ولقد امتحنته في أشياء غيرها كثيرة فوجدته ما هراً حاذقاً في جميعها بليغاً، فقلت له: ألست زعمت بأنك حائك؟.

فقال الشيخ: أنا ـ أصلحك الله ـ حائك كلام، ولست بحائك فشاجة ثم أنشأ يقول:

ما مر بؤس ولا نعيم	إلا ولي فيها نصيب
نوائب الدهر أدبتني	وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً و مراً	كذلك عيش الفتى ضروب

قلت : فما سبب الذي بك من سوء الحال؟، قال: أنا رجل كاتب دامت عطلتي وكثرت عيلتي وتواصلت محنتي، وقلّت حيلتي فخرجت أطلب تصرفاً، فقطع علي الطريق، فتركت كما ترى فمشيت على وجهي، فلما لاح لي قاربكم استغثت بك.

قلت : فإني قد خرجت إلى تصرف جليل ، وأمر عظيم، أحتاج فيه إلى جماعة مثلك، وقد أمرت لك بخلعة حسنة ، تصلح لمثلك وخمسة آلاف درهم تصلح بها أمرك، وتنفذ منها إلى عيالك، وتقوي نفسك بباقيها، وتصير معي إلى عملي فأوليك أجله ـ إن شاء الله تعالى ـ فقال الشيخ: أحسن الله جزاءك، إذن تجدني بحيث يسرك، ولا أقوم مقام معذر إن شاء الله تعالى.

فأمرت بتسليمه ما رسم له فقبضه وانحدر إلى الأهواز معي فجعلته المناظر لعمر ابن فرج بن زياد الرخجي، والمحاسب له بحضرتي والمستخرج لما عليه، فقام بذلك أحسن قيام وأوفاه.

وعظمت حال الشيخ معي وعادت نعمته إلى أحسن ما كانت عليه. والخبرة ، إذا وظفت توظيفاً حسناً تأتي ثمارها لفائدة الفرد والمجتمع ، والمثل المعروف المتداول

بين الناس، أسأل المجرب ولا تسأل الطبيب، ومن هنا يجب أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

وإن مما لا شك فيه إن السلبيات لا تظهر إلا إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فيسيؤون التصرف تبعاً لهواهم ، وجاء في الحديث النبوي الشريف: (**إذا أسندت الأمور إلى غير أهلها فانتظروا الساعة**).

وقال إياس بن معاوية : أرسل إليّ عمر بن هبيرة فأتيته فساكتني فسكت، فلما أطلت قال: إيه؟. قلت لك: سل عما بدا لك قال: أتقرأ القرآن؟. قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟. قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟، قلت: أنا بها أعرف.

قال: إني أريد أن استعين بك على عملي. قلت: إن فيَّ خلالاً ثلاثاً لا أصلح معهن للعمل قال : ما هن؟.

قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عيي. قال: أما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العيي فإني أراك تعرب عن نفسك، وأما سوء الخلق فيقومه السوط ، قم قد وليتك. قال: فتولاني وأعطاني ألفي درهم فهما أول ما تمولته.

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مخلد عن رجل يوليه خراسان، فقال له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها، قال: فلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا. يسأل الكثير ويمنع القليل، ويحسد أمه وينافس أباه، ويحقر مولاه، قال: ففلان؟.

قلت: يكافيء الأكفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء، قال عمر بن عبد العزيز، ما في واحد من هؤلاء خير.

الباب الخامس عشر

في معاريض الكلام

إياك والكذب:

فمن عادة العرب التعفف عن ذكر الكلام القبيح، ويستعملون الكنايات في كل أمر يستحيا من ذكره، أو يقبح لفظه وهذا أدب رفيع، ومروءة عالية، وخلق نبيل أقره الإسلام، وحثّ عليه، وقد استعمل القرآن الكريم الكناية في كثير من الأمور، وأنى لنا أن نتخلق بأخلاق القرآن الكريم،الذي تخلق به رسول الله ﷺ.

فالسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن،والحياء من الإيمان، فالقرآن الكريم كنى عن الجماع بالملامسة، حيث قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ والله سبحانه وتعالى يعلمنا آداب الأخلاق الفاضلة للتخلق بها.

وحاد الذكاء وسريع الفطنة، وحاضر البديهة قد يستعمل الكنايات ومعاريض الكلام في حديثه، فلا يفهمه إلا من كان على شاكلته، وفي مستوى فطنته وذكائه، وللعرب حكايات كثيرة في حصول أناس على جوائز أو نجاة آخرين من موت محقق أو هلاك مؤكد بسبب استعمال الكنايات ، ومعاريض الكلام.

وقد يستعمل أحدهم الكناية والتعريض، فيزين عمل رجل متصنع في عيون الناس، ويظنون أن الوصف على ظاهره فيقعون فيما يكرهون، ولا يفطنون لذلك إلا عند ما تكشف الحقيقة ويقع الأمر.

خطب رجل إلى قوم فجاؤوا إلى الشعبي يسألونه عنه، وكان الشعبي عارفاً فقال:هو والله ما علمت نافذ الطعنة، ركين الجلسة فزوجوه، فإذا هو خياط، فأتوه فقالوا :غررتنا، فقال : ما فعلت،إنه لَكَمَا وصفت لكم.

وقال ابن قتيبة عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري للشعبي: ما تشتهي؟. قال الشعبي: اشتهي أعز مفقود، وأهون موجود،فقال ابن قتيبة: يا غلام اسقه ماء.

وأحسن الكنايات العدول عن الكلام القبيح، إلى ما يدل على معناه في لفظ أبهى منه ، ومن ذلك أن يعظم الرجل فلا يدعى باسمه، ويكنّى بكنيته أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه.

ومن التعريض اللطيف أن يذكر الشخص أمراً أو حادثة أو قصيدة فيها شيء يشابه طلبته، ويماثل حاجته، ومن لطيف التورية وجيدها ما روي أن رجلا من أشراف

البصرة دخل على زياد، فقال له زياد : أين مسكنك من البصرة؟. قال الرجل: في وسطها، ثم قال له زياد : وكم لك من الولد؟(قال الرجل : تسعة).

فلما خرج الرجل من عند زياد قيل له : إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الولد إلا ولد واحد، وهو ساكن في طرف البصرة ،فلما عاد الرجل إليه سأله زياد عن ذلك فقال له : ما كذبتك لي تسعة من الولد، قدمت منهم ثمانية فهم لي، وبقي واحد معي، فلا أدري أن يكون لي أم علي، ومنزلي بين المدينة والجبانة (أي المقبرة)، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة، قال له زياد: صدقت.

وقد تكون الكناية والتورية ومعاريض الكلام، واستعمال التشبيه سبيلاً للوصول إلى المراد أو النجاة من هلاك محقق، ومثل ذلك، أخذ العسس رجلين وكانا ثملين من الشرب، وكان قد أصدر الحجاج أمراً من وجد بعد زمن محدد ليلاً خارج بيته يقتل، فلما وجد العسس الرجلين، وكانا قد سكرا من شرب الخمر، فقالوا لهما: من أنتما؟ فقال أحدهما:

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تعود

ترى الناس أفواجاً على باب ناره فمنهم قيام حولها وقعود

وقال الآخر:

أنا ابن من تخضع الرقاب له ما بين مخزومها وهاشمها

تأتيه بالذل وهي صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها

فظن العسس أنهما من أولاد الأكابر والأشراف،فخلوا سبيلهما، فلما أصبحوا سألوا عنهما، فإذا الأول ابن طباخ ، والثاني ابن حجام.

ومما يروى أن الرسول الكريم ﷺ، أعطى المؤلفة قلوبهم يتألفهم على الإسلام، فأعطى عيينة بن حصن،والأقرع بن حابس، وسهيل بن عمرو،والحارث ابن كلدة ورجالاً لكل واحد منهم مائة من الإبل،وأعطى غير هؤلاء لكل واحد أقل من مائة، ومنهم العباس بن مرداس، فأنشأ العباس بن مرداس قائلاً أمام الرسول ﷺ:

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون إمرىء منهم ومن تضع اليوم لا يرفع

حينئذ قال الرسول ﷺ: اقطعوا عني لسانه، فأكملوا له المائة فَرَضِيَ، والعبيد: اسم فرسه.

وروي أن امرأة، مدحت الحجاج بن يوسف الثقفي، فقال : يا غلام اذهب إلى فلان، فقل له يقطع لسانها، فقال: فطلب حجاما ليقطع لسانها، فقالت المرأة: ثكلتك أمك، إنما أمرك الأمير أن تقطع لساني بالصلة والجائزة.

حصافة خادم الملك:

أما غلام الملك، فبعد خروجه من منزله وسار في طريقه، تفقد الكتاب فلم يجده، وتفكر أنه تركه تحت فراشه فنسيه، فرجع إلى منزله فوافق خروج الملك من داره ووجد نعل الملك بالدار فتحير، وتأكد أن الملك لم يرسله بكتابه ذلك إلا لأمر يريد فعله، فسكت ولم يبد أي كلام، وتصرف تصرفاً طبيعياً، وأخذ الكتاب وسار إلى تنفيذ طلب الملك ، فلما قضى حاجة الملك عاد إليه، فأنعم عليه الملك بمائة دينار مكافأة له.

ولما رجع الغلام من عند الملك، ذهب إلى السوق،فاشترى ما يليق بالنساء، وهيأ هدية حسنة ،وأتى إلى زوجه ، فسلم عليها وسلمها تلك الهدية الحسنة، وقال لها : قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذاك؟. ما عهدتك تفعل ذلك؟.

قال الغلام : إن الملك أنعم علينا بمال، وأريد أن تظهري لأهلك أثر تلك النعمة، قالت المرأة حبًّا وكرامة، ثم قامت من ساعتها،وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها، وبما جاءت به معها،وهي لا تعلم ما يريد زوجها بتصرفه ذلك نحوها فأقامت عند أهلها مدة شهر، فلم يذكرها زوجها، ولم يسأل عنها، ولا زارها، فلما طال مكوثها مع أهلها، ذهب إليه أخوها، وقال له: يا فلان ما الذي حصل لك مع فلانة، وما سبب غضبك عليها، فإما أن تحاكمنا إلى الملك، وإما أن تخبرنا سبب هجرك لأهلك؟.

القضية أمام الملك والقاضي:

فقال الغلام :إن شئتم الحكم، فافعلوا، فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم، فأتى معهم، وكان القاضي إذ ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخو المرأة:

أيد الله مولانا قاضي القضاة، إني أجَّرت هذا الغلام بستاناً، سالم الحيطان ببئر ماء معين عامرة، وأشجار مثمرة،فأكل ثمره وهدم حيطانه وأخرب بئره.

فالتفت القاضي إلى غلام الملك، وقال له: ما تقول يا غلام؟، فقال الغلام أيها القاضي، قد سلمت هذا البستان إليه، وسلمته إليه أحسن مما كان، فقال القاضي لأخي المرأة: هل سلم إليك البستان كما كان؟. قال أخو المرأة: نعم أيها القاضي، ولكن أريد منه أن يذكر السبب الذي دفعه لرده البستان إليّ.

قال القاضي للغلام: ما قولك فيما طلب منك ذكره؟. قال الغلام: والله يا مولاي القاضي، ما رددت البستان كراهة فيه، وإن كان لابدّ من ذكر سبب في رد البستان إلى أهله، فإنني جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد، فخفت أن يغتالني الأسد، فحرّمت دخول البستان إكراماً للأسد،وكان يقصد الغلام الملك الذي دبرّ دخول منزل الغلام أثناء غيابه حاملاً كتاب الملك، والأثر وجود نعل الملك، بعد كلام المرأة للملك فخرج خائفاً مدحوراً، إذ لم ينل مقصده.

فعلم الملك من فحوى كلامه، أنه المقصود بقول الغلام للقاضي بذكر السبب في رد المرأة إلى أهلها، وكان الملك حاضراً جالساً متكئاً، فاستوى جالسا، وقال الملك: يا غلام ارجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان ولم يحدث فيه حدثاً، ولم يؤثر فيه أثراً، ولم يذق منه ثمراً، فما علم حلوه من حامضه، ولا ميّز ناضجه من غضّه، ولم يلبث فيه الأسد غير لحظة يسيرة، وخرج من غير بأس، وما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره.

فرجع الغلام إلى داره وزوجته، وأكرمها غاية الإكرام، ولم يعلم القاضي ولا غيره من الحاضرين بشيء مما دار في المحكمة، وبحضرة الملك إلا الملك وغلام

الملك، وأخو المرأة، وهكذا ينبغي أن يكون المرء مراعياً بما يدور حوله، وإن كان الأمر يعنيه.

غلام يخدع المغيرة بن شعبة:

وقال المغيرة بن شعبة: ما خدعني أحد قط غير غلام، فإني ذكرت امرأة من قومه، فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها، قال المغيرة ولم؟، قال الغلام: إني رأيت رجلاً يقبِّلها إذ خلا بها، ثم بلغني بعد ذلك أن الغلام تزوجها، فأرسلت إليه، فقلت: ألم تعلمني عندما ذكرتها أنك رأيت رجلاً خلا بها يقبّلها؟ فقال الغلام: بلى رأيت أباها يقبلها، وهو رجل.

من غريب التورية:

ومن جيد التورية وغريبها: ما أجاب به أبو بكر الصديق ﷺ، حينما هاجر الرسول، وسأله بعض من صادفهما وهم لا يعرفون الرسول، فقالوا من هذا؟. فقال لهم أبوبكر: هذا الرجل يهديني السبيل، فحسب السامع أنه يهديه الطريق، وإنما أراد أبو بكر يهديني إلى ما هو خير لي في الدنيا والآخرة.

ومرض زياد فدخل عليه القاضي شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمامة، وهو من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، وُلِّي قضاء الكوفة في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي ومعاوية، واستعفى أيام الحجاج بن يوسف فأعفاه عام ٧٧هـ، وكان يستعمل المعاريض في الكلام، دخل القاضي شريح يعود زياداً، فلما خرج بعث إليه مسرور بن الأجدع يسأله: كيف تركت الأمير زياداً؟. قال القاضي شريح: تركته يأمر وينهى، فقال مسروق: إن شريحاً صاحب تعريض عويص، فسألوه فقال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن البكاء.

من شعر ابن الحجاج في التورية:

ومما جاء من التورية قول ابن حجاج، حسين بن أحمد بن محمد البغدادي المتوفى عام ٣٩١هـ. وصفه الذهبي بقوله: شاعر العصر، وسفيه الأدب، وأمير

الفحش، كان أمة وحده في نظم القبائح، وخفة الروح، ومن شعره في التورية:

ألا يا ماء دجلة لست تدري ... بأني حاسد لك طول عمري
ولو أني استطعت سكرت سكراً ... عليك فلم تكن يا ماء تجري
وقال الماء قل لي كل هذا ... بم استوجبته يا ليت شعري
فقلت له لأنك كل يوم ... تمر على أبي الفضل بن بشر
تراه ولا أراه وذاك شيء ... يضيق عن احتمالك فيه صبري

من غريب الكنايات:

ويحكى أن بعض الملوك: طلع يوماً إلى أعلى قصره يتفرج، فلاحت منه التفاتة، فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره، لم ير الراؤون أحسن منها وأجمل، فسأل بعض جواريه قائلاً لهم: لمن هذه الجارية ؟.

فقالت الجارية: يا مولاي هذه زوجة غلامك فلان بن فلان، فنزل الملك، وقد تمكن حبها من قلبه، وشغف بها، فاستدعى الملك غلامه زوج المرأة، وقال له: يا فلان. قال الغلام: لبيك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وأمض به إلى البلد الفلاني، وسلمه إلى فلان ، وآتني بالجواب.

فأخذ الغلام الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه وجهز نفسه ودبر أمره، وبات ليلته ، فلما أصبح ودع أهله وانطلق إلى البلد التي أرسله إليها الملك، ولم يعلم ما دبره الملك بشأن أهل الغلام.

فلما خرج الغلام من منزله برسالة الملك، كان الملك يرقبه، فما إن اختفى الغلام عن الأنظار حتى قام الملك مسرعا، وتوجه إلى دار الغلام مختفياً، فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة الغلام: من الطارق؟.

قال الملك: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت الباب له، فدخل الملك وجلس، فقالت زوجة الغلام: أرى مولاي اليوم عندنا، فقال الملك: زائراً، فقالت المرأة: أعوذ بالله من هذه الزيارة، وما أظن زيارة مولانا فيها خير، فقال لها الملك : ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك، وما أظنك تعرفينني، فقالت المرأة : بل عرفتك ولقد علمت أنك

الملك، ولكن سبقك الأوائل في قولهم:

سأترك ماءكم من غير وردٍ وذاك لكثرة الوراد فيه

إذا سقط الذباب على طعام كففت يدي ونفسي تشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه

ويرتجع الكريم خميص بطن ولا يرضى مساهمة السفيه

ثم قالت المرأة: أيها الملك، تأتي إلى موضع شرب كلبك تشرب منه؟ فلما سمع الملك قول امرأة غلامه، بهت واستحيا من كلامها، فخرج مدحورا وتركها ، فنسي نعله في الدار، هذا: ما كان من تدبير الملك.

الباب السادس عشر

في كيد النساء

أخبار هند والحجاج:

فمن الكنايات اللطيفة، ما يروى أن هند ابنة النعمان كانت من أجمل نساء زمانها، ومن الفصيحات، فوصفت للحجاج بن يوسف الثقفي، فأنفذ إليها من يخطبها له، وبذل لها مالاً جزيلاً، وتزوج بها، وشرط لها على نفسه أن يدفع بعد الصداق مائتي ألف درهم، فوافقت على ذلك، فدخل بها، ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة.

وكانت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق، فأقامت معه، ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام،وهي تنظر في المرآة وتقول منشدة:

وما هند إلا مهرة عربية   سليلة أفراس تحللها بغل

فإن ولدت فحلاً فللّه درُّها   وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فأنصرف الحجاج راجعاً، ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به، فأراد الحجاج ابن يوسف طلاقها، فأرسل إليها عبد الله بن طاهر،وأرسل لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه.

وقال له الحجاج: يا ابن طاهر، طلقها بكلمتين، ولا تزد عليهما، فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك الأمير أبو محمد الحجاج بن يوسف: كنت فبنت، وهذه المائتا درهم التي كانت لك عليه.

فقالت هند: إعلم يا ابن طاهر، إنّا والله كنّا فما حدنا، وبنّا فما ندمنا، وهذه المائتا درهم التي جئت بها ، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

أخبار هند مع أمير المؤمنين:

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها، ووصف له جمالها وفصاحتها وأدبها ، فأرسل إليها يخطبها.

فأرسلت إليه هند كتاباً، تقول فيه بعد التحية والثناء عليه: إعلم يا أمير المؤمنين، إن الإناء ولغ فيه الكلب، فلما قرأ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك

من قولها. وكتب إليها: يقول الرسول الكريم ﷺ: (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب)، فغسلي الإناء يحل الإستعمال.

فلما قرأت هند كتاب أمير المؤمنين ، لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد التحية والثناء عليه: يا أمير المؤمنين، والله لا أحل العقد إلا بشرط، فإن قلت ما هو هذا الشرط؟

قلت: الشرط أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً، فلما قرأ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً.

ثم أنفذ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف،وأمره بذلك، وإلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت، وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواريها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها فجعلت هند تتواغد عليه، وتضحك مع الهيفاء خادمتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا هيفاء، اكشفي سجف المحمل، فكشفته فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه.

ولم تزل تضحك، وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت يا جمَّال إنه قد سقط منّا درهم فأبحث عنه، فإن وجدته فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض باحثاً عن الدرهم، فلم يجد إلا ديناراً، فقال إنما هو دينار، فقالت : بل هو درهم، قال الحجاج بل هو دينار.

فقالت هند : الحمد لله سقط منا درهم، فعوضنا الله بدلاً عنه ديناراً، وهي تقصد، ما فقدنا إلا درهما وهو الحجاج بن يوسف،وعوضنا الله بدلاً عنه أمير المؤمنين، وهو الدينار، فخجل الحجاج وسكت، ولم يحر جواباً، ثم دخل الحجاج بها على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فتزوجها.

وصدق الله العظيم حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٢٨]
وقال في معرض الحديث عن الشيطان: فقال تعالى: ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦].

لقد كان تدبير هند لدى الحجاج بن يوسف تدبير انتقام، فكان تصرفها أعظم وأقوى وأنكى لخضوع الحجاج لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لإرغام الحجاج قيادة محمل هند من معرة النعمان إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية، إنها المكيدة المدبرة ،ولعبت به عندما أسقطت ديناراً زاعمة بأنه درهم، معرضة بذلك عن الحجاج الطاغية، وتعريضاً بأمير المؤمنين بأن الله عوّضها ديناراً عن الدرهم.

الباب السابع عشر

في جوامع الكلم

الرسول أوتي جوامع الكلم:

ويروى أن النبي محمداً ﷺ، قال: (نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم)، وذلك أن النبي ﷺ، كان يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة، فالرسول أعطي جوامع الكلم.

وقيل : ثلاثة تدل على عقول أصحابها : الرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على قدر مهديها، والكتاب يدل على عقل كاتبه.

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس بن عبد المطلب كلاما فصيحا، فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك، أي في فصاحتك.

إرحموا عزيز قوم ذلّ:

يروى أن الرسول الكريم ﷺ : يضرب المثل في المعاملة الطيبة، بوصيته المشهورة في أسارى بدر الكبرى،إنه يعظم كرمه ووافر رحمته لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة المنورة، موزعين بينهم قال لهم : «**إستوصوا بالأسارى خيراً**»، ووصاية الرسول ﷺ بالأسارى خيراً يدل على كرمه، فبعد كل ما صدر منهم ضد الإسلام والمسلمين في مكة المكرمة، ومحاربتهم في بدر، وموقفهم العدائي خلال خمسة عشرعاماً يوصي أصحابه بالأسارى خيراً.

وها هو ذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير أول سفير لرسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وقد كانت سفارته لأهل المدينة خيراً وبركة، وللإسلام قوة وسراجاً منيراً، أنار القلوب وأضاء البيوت بنور الإيمان، فقد أسر أبو عزيز في غزوة بدر،إذ خرج كافراً ضمن جيش الكفار محارباً الله ورسوله، فقال أبو عزيز: مر بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار وقد أسر أسيرين أنا أحدهما، فقال مصعب للذي أسرني: يا أبا بصير شد يديك بأسيرك، فإن أمه ذات مال لعلها تفديه منك بأغلى الأثمان.

فقال أبو عزيز، فقلت لأخي مصعب: أهذه وصاتك بأخيك؟، فقال مصعب لي: لست بأخي، إنما أخي هذا الأنصاري المؤمن، لأن الله يقول: (إنما المؤمنون إخوة)، وأنت كافر، ومع ذلك، فلم يمنع الأنصار من أن ينفذوا وصاة رسول الله ﷺ في الأسارى خيراً.

معاملة الأسرى:

ذكر أبو عزيز بن عمير، قال: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر إلى المدينة المنورة، فكانوا إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لتوصية رسول الله ﷺ بنا معشر الأسرى، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا آثروني بها فاستحيي فأردها عليه، أو أعطيها غيره فيردها عليّ ما يمسها ولا يقبلها.

فسبحان الله، ما أكرم وأطوع أصحاب رسول الله ﷺ، لقد نال كرمه وفضله ورحمته أعداءه، ورضي الله عن المؤمنين الطيعين البررة الخيرين.

وجّه رسول الله ﷺ إلى طيء فريقاً من أصحابه، يقدمهم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخاف عدي بن حاتم الطائي، وهرب إلى الشام، وكان عدي بن حاتم من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فصبح علي بمن معه القوم، واستا ق خيلهم، ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله ﷺ، فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سفانة بنت حاتم الطائي، فقالت:

يا محمد: هلك الوالد وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومه، إذ كان أبي يفك العاني (أي يفك الأسير)، ويقتل الجاني (أي يقتل الظالم)، ويفشي السلام، ويحفظ الجار، ويحمل الذمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائبا، أنا ابنة حاتم الطائي.

فقال النبي ﷺ: «**يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، ولو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق**».

ثم قال ﷺ: «**ارحموا عزيزاً ذلّ، وغنيًّا افتقر، وعالماً ضاع بين جهال**» وامتن عليها بقومها، فأطلقهم تكريماً لها.

فلما أكرمها النبي ﷺ، استأذنته في الدعاء له، فأذن لها، وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا، فقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردها.

فلما أطلقها رسول الله ﷺ، رجعت إلى أخيها عدي بن حاتم، وهو بدومة الجندل، فقالت له: يا أخي ائْتِ هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل القبلة، ورأيت خصالاً تعجبني.

رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدرالكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه، فإن يكن نبيا فللسابق فضله، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عز ملكه، فقدم عدي بن حاتم إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وقد أسلمت سفانة بنت حاتم أيضاً.

إن تلك الصفات التي يفتخر بها العرب في الجاهلية، بخصوص حب الفقير وفك الأسير، مما جعل الرسول الكريم ﷺ يفك أسارى قومها، وقال: «**إرحموا عزيزاً ذلّ**» ولا شكّ كانت سفانة عزيزة في قومها، مما حداها أن تشجع أخاها عدي بن حاتم.

البديهة وأثرها:

وعرضت على المتوكل جارية شاعرة للبيع، فقال أبو العيناء، وهو ضرير يختبرها ويستجيزها: الحمد لله كثيراً، فقالت: حيث أنشاك ضريراً.

فقال أبو العيناء: يا أمير المؤمنين، قد أحسنت في إساءتها فاشترها، وقال المبرد محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي العماني، قلت لمجنون: أجزني هذا البيت الذي يقول فيه الشاعر:

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه   وإبراقه فاليوم لا شك ماطر

فقال المجنون في الحال بديهة:

وقد حجبت فيه السحائب شمسه   كما حجبت ورد الخدود المحاجر

وقال الهيثم بن صالح لابنه وهو يعظه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، فرد الولد بقوله: يا أبتِ فإن أنا أكثرت وأكثرت، يقصد أكثرت من الكلام، وأكثرت من الصواب، فما تقولَ في ذلك، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك، فبارك الله فيك.

وقال القاضي الشعبي، كنت أحدث عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وهو يأكل، فيحبس اللقمة، فأقول له: يا أمير المؤمنين أجزها أصلحك الله فإن الحديث من وراء ذلك، فقول: الله لحديثك أحب إلي منها.

واو أبي بكر الصديق:

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومعه ثوب ،فقال أبو بكر رضي الله عنه : أتبيعه؟، فقال الرجل: لا، رحمك الله، فقال أبو بكر ،لو تستقيمون لقوَّمت ألسنتكم. هلَّا قلت: لا (و) رحمك الله،فلذا تسمى هذه: (واو أبي بكر).

ومن ذلك ما حكي أن المأمون سأل يحيى بن أ كثم عن شيء، فقال: لا وأيد الله أمير المؤمنين، فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها.

ووصف رجل رجلاً بالفصاحة والبيان فقال:

سحبان يقصر عن بحور بيانه ... عجزاً ويغرق منه تحت عباب

وكذاك قس ناطق بعكاظه ... يعيا لديه بحجة وجواب

ما يستحسن من الكنايات:

ومما يستحسن من غريب الكنايات، الواردة على سبيل الرمز، وهو من الذكاء والفصاحة بمكان، ما حكي أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه.

فقالوا لا ترسله إلا بحضرتنا، لئلا تخبرهم وتنذرهم باستعدادنا، فجاؤوه بعبد أسود، فقالوا : يمكنك أن ترسل هذا إلى قومك.

فقال له الأسير، أتعقل ما أقوله لك؟. قال: نعم، إني لعاقل، فأشار الأسير إلى الليل، فقال ما هذا؟. قال الليل، قال الأسير للعبد ما أظنك ولا أراك إلا غافلاً، ثم ملأ كفيه من الرمل، وقال: كم هذا ؟ قال:كثير ولكن لا أدري عدده، فقال له الأسير،أيها أكثر النجوم أم النيران؟ قال العبد: كل كثير، فقال أبلغ قومي التحية، وقل لهم:

يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وآمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بإمارة ما أكلت معكم حيساً، وآسألوا عن خبري أخي الحارث.

فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا:لقد جن الأعور،والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب، ثم ذهبوا إلى أخيه الحارث فقصوا عليه القصة فقال لهم أخوه: إن أخي أنذركم، ومن أنذر فقد أعذر.

تفسير قول الأسير:

أما قوله : قد دنا العرفج ، يريد أن الرجال قد استلأموا، ولبسوا السلاح . وأما قوله: شكت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله :أعروا ناقتي الحمراء، أي ارتحلوا عن الدهناء، واركبوا الجمل الأصهب، أي تحصنوا بالجبل، وأما قوله: أكلت معكم حيساً أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإ قط ، فامتثلوا لأمره ، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا،وهكذا نفع قومه بنصيحته لهم، بمعارض الكلام .

تنبيه الأسير:

وأسرت قبيلة طيء غلاماً من العرب ، فعلم أبوه بذلك،فذهب ليفديه، فتغالوا في فدائه، أي طلبوا في فدائه مالاً كثيراً، فقال أبوه: والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيء، ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال:

لقد أعطيته كلاماً إن كان فيه خير فهمه، فقال له: إلزم الفرقدين، يعني في هروبك على جبل طيء، فكان الولد ذكياً فطناً، إذ فهم قول والده ،وما أمره به أن يسلك ففعل وهرب فنجا.

وقال رجل حين سئل عن رجل وحالته فقال: ما رأيت فلاناً راكعاً ولا ساجداً، ولا مصلياً، فظن السائل أن الرجل قد انتهى به العصيان إلى ترك الصلاة، فقال المسؤول مفسراً قوله في الرجل: ما رأيت الرجل راكعاً أي عاثراً، فالراكع العاثر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر المستمر فيه،والمصلي الذي يجيء بعد السابق،وهذا معروف في السباق لدى العرب، ومنه سباق داحس والغبراء.

فكانت العرب في الجاهلية تتخذ معاريض الكلام في المراسلات إذا حزبها أمر للتنبيه لمن يهمه الأمر، كما رأينا رسالة الأسير في بني بكر بن وائل، وهذا باب من الذكاء والفصاحة والفطنة، والإسلام حثّ على ذلك، حيث يقول الرسول الكريم ﷺ: «**إن في معاريض الكلام ما يغني عن الكذب**».

الباب الثامن عشر

في وأد البنات

لقد جاء الإسلام والناس في فوضى، لا قانون لهم ، ولا شريعة أو ضوابط تضبط سلوكهم وتصرفاتهم، فكانت شريعة الغاب،هي المحكمة،وهي السائدة والبقاء للأقوى والأصلح، وقد ابتلي بعض قبائل العرب بقتل أولادهم من أجل ما فيه من الفقر، أو خشية الفقر.

ولما نزل القرآن الكريم ، على سيد الأولين والآخرين ، بلسان عربي مبين، إذ نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام، ذكر من تلك العادات السيئة، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١]. وقال أيضا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٣١].

النار ولا العار:

لقد كان لبعض العرب في الجاهلية، عادة وأد الأولاد، خوف الفقر، ووأد البنات خوف العار، ويقولون: النار ولا العار، وقد ذكر المبرد في كتابه الكامل: عن أبي عبيدة: أن قبيلة تميم منعت النعمان بن المنذر الإتاوة، التي كانت تدفعها إليه، فوجه النعمان بن المنذر إليهم أخاه الريان بن المنذر فحاربهم، فظفرعليهم، فاستاق النعم وسبى النساء والذراري.

فوفدت إليه بنو تميم ، فأنابوا وأذعنوا وسألوه النساء أي أن يرد إليهم النساء التي سباها أخوه الريان، فقال النعمان بن المنذر: كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وإن اختارت صاحبها أي الذي صارت وآلت إليه بالسبي تركت له، فكلهن اختارت أباها إلا ابنة لقيس بن عاصم بن سنان بن المنقري السعدي التميمي اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج.

موقف سيد تميم من وأد البنات:

فنذر قيس بن عاصم أن لا تولد له ابنة إلا قتلها، فهذا شيء يعتل به من وأدوا بناتهم، يقولون: فعلناه أنفة، وقد أكذبهم الله تعالى في كتابه العزيز، حيث قال

سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٠].

وقيس بن عاصم بن سنان التميمي هذا يعدُّ أحد أمراء العرب، وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، وكان من الشعراء الفرسان الذين سادوا في الجاهلية والإسلام، وهو ممن حرم على نفسه شرب الخمر.

وفد على النبي ﷺ في وفد تميم في العام التاسع الهجري، فأسلم وحسن إسلامه ، ولما رآه النبي ﷺ قال: هذا سيد أهل الوبر، وأهل الوبر هم أهل البادية ، أهل الإبل الذين لهم شأن عظيم في قومه وغير قومه.

قيس يخبر الرسول بِوَأْدِهِ إحدى بناته :

ويحكى أن قيس بن عاصم بن سنان بن خالد المنقري التميمي، حين وفد على رسول الله ﷺ، سأله بعض الأنصار عما يتحدث به الناس عنه من الموؤودات، اللائي وأدهن من بناته.

فأخبر : أنه ما ولدت له بنت قط إلا وأدها، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يحدثه، فقال قيس: كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها،وما رحمت منهن موؤودة قط إلا ابنة لي ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها أمها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وذلك خوفاً عليها من الوأد.

وقدمت من السفر، فسألت عن الحمل، فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً، ومضت سنون على ذلك، حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، أي نسجت بعضه على بعض، وجعلت في قرونه شيئاً من خلق، أي جعلت له شيئاً من الطيب، ونظمت عليها ودعاً وألبستها قلادة جزع ، وجعلت في عنقها مخنقة بلح.

فقلت: من هذه الصبية؟ فقد أعجبتني، أعجبني جمالها وكيسها أي عقلها، فبكت المرأة وقالت: هذه ابنتك ، كنت أخبرتك أني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ،فأمسكت عنها حتى اشتغلت عنها أمها ،فأخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها وهي تقول :

قيس يَئِد ابنته:

يا أبتِ ما تصنع بي؟، أمغطيَّ أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب، وهي تبكي وتتضرع إليّ، وأنا أقذف التراب عليها حتى واريتها، وانقطع صوتها وبكاؤها، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها. فدمعت عينا النبي ﷺ، ثم قال: «**إن هذه لقسوة، ومن لا يرحم لا يرحم**».

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [سورة التكوير: ٨-٩].

ويروى أن قيس بن عاصم، دخل على رسول الله ﷺ وفي حجره بعض بناته يشمها، فقال له: ما هذه السخلة تشمها؟ فقال رسول الله ﷺ: هذه ابنتي، فقال قيس: والله لقد ولد لي بنون ووأدت بنيات ما شممت منهن أنثى ولا ذكر قط. فقال رسول الله ﷺ: «**فهل إلا أن ينزع الله الرحمة من قلبك**».

ويروى أن قيس بن عاصم قال: أتيت رسول الله ﷺ، فرحب بي وأدناني، فقلت: يا رسول الله، المال الذي لا يكون عليَّ فيه تبعة ما ترى في إمساكه لضيف إن طرقني، وعيال إن كثروا عليّ؟.

الباب التاسع عشر

في إحياء الموؤودات

روى البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله الحافظ المحدث ، المتوفى عام٢٥٦هـ، في إحدى قرى سمرقند.

قال: إن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: كان زيد بن عمرو ابن نفيل يحيي الموؤودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها.

وكان من الذين يحيون الموؤودات، صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، وكان من أشراف مجاشع في الجاهلية والإسلام، وهو أول من قام في تميم بإنقاذ بنات تميم من الوأد.

ولما ظهر الإسلام كان عنده أربعمائة بنت أخذهن من آبائهن لئلا يؤدنَ وصعصعة بن ناجية هذا : جد الفرزدق الشاعر المعروف، حيث يقول مفتخراً بجده صعصعة :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوليد فلم توأد

لقد كان صعصعة بن ناجية التميمي ، يسمى محيي الموؤودات، وذلك أنه مرّ برجل من قومه وهو يحفر بئراً، وامرأته تبكي، فقال لها صعصعة: وما يبكيك يا هذه؟. قالت : إن هذا الرجل يريد أن يئد ابنتي هذه، فقال له صعصعة: ما حملك على هذا؟. فقال الرجل: الفقر.

قال صعصعة بن ناجية: فإن اشتريتها منك بناقتين يتبعهما أولادهما : تعيشون بألبانهما، ولا تئد الصبية، قال الرجل أبو الصبية: قد فعلت، فأعطاه الناقتين وجملاً كان تحته فحلاً، وقال صعصعة في نفسه: إن هذه مكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فجعل نفسه لا يسمع بموؤودة إلا فداها، فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة،وقيل أربعمائة موؤودة.

وأخبر محمد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الأخفش قالا: حدثنا أبو سعيد السكري عن محمد بن حبيب،عن أبي عبيدة عن عقال بن شبة قال: قال صعصعة بن ناجية التميمي:

خرجت باغياً ناقتين فارقتين (الفارقة التي تفترق إذا ضربها المخاض فتسير هائمة على وجهها حتى تضع حملها)، فرفعت لي نار، فسرت نحوها، وهممت بالنزول، فجعلت النار تضيء مرة وتخبو أخرى،فلم تزل تفتعل ذلك حتى قلت: اللّهم لك عليّ إن بلغتني تلك النار ألا أجد أهلها يوقدون لكربة يقدرأحد من الناس أن يفرجها إلا فرجتها عنهم، قال: فلم أسر إلا قليلاً حتى وصلتها، فإذا حي من بني أنمار بن الهجيم بن عمرو بن تميم، وإذا بي أرى شيخاً حادراً أشعر يوقدها في مقدم بيته، والنساء قد اجتمعن إلى امرأة ماخض قد حبستهن ثلاث ليال: الحادر الأشعر: غليظ الجسم غزير الشعر، والمخاض: التي أدركها المخاض فسلمت عليه، فقال الشيخ: من أنت؟ فقلت: أنا صعصعة بن ناجية بن عقال التميمي، فقال الشيخ: مرحبا بسيدنا، ففيم أنت يا ابن أخي؟.

فقلت: في بغاء ناقتين عمي عليّ أثرهما، فقال الشيخ: قد وجدتهما بعد أن أحيا الله بهما أهل بيت من قومك، وقد نتجناهما،وعطفت إحداهما على الأخرى، وهما تانك في أدنى الإبل.

قال صعصعة: فقلت للشيخ: ففيم توقد نارك منذ الليلة؟ قال الشيخ: أوقدها لامرأة ماخض قد حبستنا منذ ثلاث ليال، وتكلمت النساء، فقلن: جاء الولد فقال الشيخ: إن كان غلاماً فوالله ما أصنع به، وإن كانت جارية فلا اسمعن صوتها ـ أي أقتلها ـ فقلت: يا هذا ذرها فإنها ابنتك ورزقها على الله، فقال للنساء: اقتلنها.

فقلت: أنشدك الله، فقال: إني أراك بها حفيًّا فاشتريها مني، فقلت: نعم إني أشتريها منك ، فقال الشيخ : ما تعطيني؟. قلت: أعطيك إحدى ناقتين قال: لا، قلت: فأزيدك الأخرى، فنظر إلى جملي الذي تحتي، فقال الشيخ: لا إلا أن تزيدني جملك هذا ، فإني أراه حسن اللون شاب السن.

قلت: هو لك والناقتان على أن تبلغني أهلي عليه، قال الشيخ: قد فعلت، فابتعتها منه بلقوحين وجمل،وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ليحسنن برها وصلتها ما عاشت، حتى تبين منه أي تتزوج أو يدركها الموت، فلما برزت من عنده، وحدثتني نفسي، وقلت: إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب، فآليت ألا يئد أحد بنتاً له إلا اشتريتها منه بلقوحين وجمل.

فبعث الله عزَّ وجل محمداً ﷺ، وقد أحييت أربعمائة موؤودة، ولم يشاركني في ذلك أحد من العرب، حتى أنزل الله تحريم وأد البنات في القرآن العظيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أمران في الجاهلية، أحدهما يبكيني،والآخر يضحكني، أما الذي يبكيني: فقد ذهبت بابنة لي لوأدها، فكنت أحفر لها الحفرة لوأدها، وهي تنفض التراب عن لحيتي، وهي لا تدري ما أريد لها، فإذا تذكرت ذلك بكيت، وأما التي تضحكني: فقد كنت أصنع إلها من التمر أضعه عند رأسي يحرسني ليلاً، فإذا أصبحت معافى أكلته، فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسي ومن تصرفي.

صعصعة بن ناجية مع رسول الله:

يروى عن ربيعة بن مالك بن حنظلة، عن صعصعة بن ناجية المجاشعي التميمي جد الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي قال:

قدمت على النبي ﷺ، فعرض علي الإسلام فأسلمت، وعلمني آيات من القرآن، فقلت: يا رسول الله، إني عملت أعمالاً في الجاهلية، هل لي فيها من أجر؟.

فقال النبي ﷺ: ما عملت؟. فقلت: إني أضللت ناقتين لي عشراوين: (العشراء الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر)، فخرجت أبغيها على جمل، فرفع لي بيتان في فضاء من الأرض، فقصدت قصدهما فوجدت في أحدهما شيخاً كبيراً، فقلت له: هل أحسست من ناقتين عشراوين؟.

فقال: وما نارهما؟ يعني ما سمتاهما، فقلت: ميسم بني دارم، فقال: قد أصبت ناقتيك، ونتجناهما، وظأرتا على أولادهما، أي عطفتا على أولادهما، ونعش الله بهما أهل بيت من قومك من العرب من مضر.

فبينما هو يخاطبني إذ نادته امرأة من البيت الآخر: قد ولدت، فقال: وما ولدت؟ إن كان غلاماً فقد شركنا في قوتنا، وإن كانت جارية فادفنوها، فقالت هي: جارية أفأئدها؟.

فقلت للشيخ: وما هذا المولود؟ فقال: بنت لي، فقلت له: اتق الله فرزقها على الله لا تئدها، فإني أشتريها منك؟. فقال الشيخ: يا أخا بني تميم أتقول لي: أتبيعني ابنتك وقد أخبرتك أني من العرب من مضر.

فقلت: يا شيخ : إني لا أشتري منك رقبتها، إنما اشتري منك دمها لئلا تقتلها، فقال: وبم تشتريها؟ فقلت بناقتي هاتين وولديهما، قال: لا حتى تزيدني هذا البعير الذي تركبه.

قلت: نعم، على أن ترسل معي رسولاً، فإذا بلغت أهلي رددت إليك البعير ففعل، فقلت: إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب.

فظهر الإسلام وقد أحييت ثلاثمائة وستين موؤودة، اشتريت كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل، فهل لي في ذلك من أجر يا رسول الله ؟. فقال ﷺ: هذا باب من البر، ولك أجره إذ من الله عليك بالإسلام.

ثم قال صعصعة بن ناجية: يا رسول الله، أوصني، فقال ﷺ: أوصيك بأمك وأبيك وأخيك وأختك وإمائك، قال: زدني يا رسول الله قال ﷺ: إحفظ ما بين لحييك (كناية) عن اللسان والتكلم فيما لا يعني، وما بين رجليك (كناية) عن حفظ الفرج عن الزنى.

وفي رواية أن الرسول ﷺ سأله: ما شيء بلغني عنك فعلته؟. فقال صعصعة: يا رسول الله، رأيت الناس يموجون على غير وجه: أي على غير صواب. ولم أدر أين الوجه،غير أني علمت أنهم ليسوا على صواب. ورأيتهم يئدون بناتهم، فعلمت أن الله لم يأمرهم بذلك، فلم أتركهم يئدون،وفديت من قدرت عليه، وإني حملت حمالات في الجاهلية والإسلام، وما علي منها ألف بعير، فأديت من ذلك سبعمائة، فقال له: إن الإسلام أمر بالوفاء، ونهى عن الغدر، فقال: حسبي، حسبي ووفى بها.

الفرزدق يفتخر بجده:

وقد كان الفرزدق همام بن غالب بن صعصعة التميمي يفاخر الناس بجده صعصعة،يذكر مواقفه النبيلة ومنها إحياء الموؤودات حيث يقول:

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي متى تخلف الجوزاء والدلو يمطر

أي أن هناك غيثين: غيث في السماء وهو المطر،وغيث في الأرض وهو جده صعصعة بن ناجية، والجوزاء والدلو برجان من البروج المعروفة في السماء.

أجار بنات الوائدين ومن يجر على الفقر يعلم أنه غير مخفر
على حين لا تحيا البنات وإذ هم عكوف على الأصنام حول المدور
أنا ابن الذي رد المنية فضله فما حسب دافعت عنه بمعور
وفارق ليل من نساء أتت أبي تمارس ريحا ليلها غير مقمر
فقالت : أجر لي ما ولدت فإنني أتيتك من هَزْلى الحمولة مقتر
هِجَفٍّ من العثو الرؤوس إذا بدت له ابنة عام يحطم العظم منكر
رأى الأرض منها راحة فرمى بها إلى خُدد منها إلى شر مَحْفِر
فقال لها فيئي فإني بذمتي لبنتك جار من أبيها القنوّر

(الهجف : الجافي الغليظ : ظليم هجف ، قال الشاعر الرجز):

وجفر الفحل فأضحى قد هجف واصفر ما اخضر من البقل وجف

وهجف الرجل إذا لحقت خاصرتاه بجنبيه من الجوع والتعب،وقيل الجافي الثقيل من الناس، أو الطويل الضخم، الذي لا غناء عنده،والعثورالرؤوس: جمع أعثى وهو الأسعر والقنور: ذو الأخلاق الشرسة. وكان صعصعة بن ناجية شاعرا وهو الذي يقول:

إذا المرء عادى من يود ك صدره وكان لمن عاداك خدناً مصافيا
فلا تسألن عما لديه فإنه هو الداء لا يخفى بذلك خافيا

ويروى أن غالب بن صعصعة والد الفرزدق وفد على الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال له : إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه، فقال له الإمام علي: علمه القرآن، فوقر ذلك في نفس الفرزدق، فقيد نفسه في وقت وآلى على نفسه، لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه.

نعم المال الإبل :

سأل الرسول ﷺ قيس بن عاصم عن ماله ؟ فقال قيس: الإبل يا رسول الله. فقال ﷺ: «**نعم المال الإبل، الأربعون، والأكثر الستون، وويل لأصحاب المئين ـ ثلاثاً ـ إلا من أعطى من رسلها أي لبنها ، وأطرق فحلها أي خصصه للقاح الإبل، وأفقر ظهرها أي لا يمنع إعارتها لغيره، ومنح غزيرتها، أي أعارها لمن يحلبها، ويأخذ لبنها ثم يردها، وأطعم القانع والمعتر، القانع الذي يقنع بما يعطى من غير أن يسأل، والمعتر الذي يتعرض للسؤال**».

فقلت له : يا رسول الله ﷺ: ما أكرم هذه الأخلاق إنه لا يحل بالوادي الذي أنا فيه من كثرتها، قال: «**فكيف تصنع في الإطراق؟**». قلت: يغدو الناس، فمن شاء أن يأخذ برأس بعير ذهب به، وقال : «فكيف تصنع في الإفقار؟».

فقلت إني لأفقر الناب المدبرة ـ الناقة المسنة الكبيرة ـ والضرع الصغيرة، قال: «**فكيف تصنع في المنيحة؟**». قلت: إني لأمنح في السنة المائة، قال رسول الله ﷺ: «**إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت**».

قيس بن عاصم يحرم الخمر:

حكى ابن دريد محمد بن الحسن بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم عن أبي حاتم، قال:جاور داريٌّ أي من الداريِّين، وكان يتجر في أرض العرب قيس بن عاصم، فشرب قيس بن عاصم ليلة حتى سكر، فربط قيس بن عاصم الداريّ وأخذ ماله، وشرب من شرابه فازداد سكراً، فأخذ منه السكر كل مأخذ، وجعل بسبب السكر يتطاول ويثاور النجوم ليبلغها ، وليتناول القمر وقال:

وتاجر فاجر جاء الإله به كأن عثنونه أذناب أجمال

قال: فلما فعل بالداريّ ما فعل بسبب السكر، جعل ماله نهبى، فلم تزل امرأته تسكِّنه وتهديه، إلى أن أخذه النوم فنام، ولما أصبح أخبر بما كان منه، فآلى ألا يشرب الخمر، وألا يدخل بين أضلاعه أبداً. ومن قول قيس بن عاصم حين

حرم شرب الخمر:

وجدت الخمر جامحة وفيها خصال تفضح الرجل الكريما
فلا والله أشربها حياتي ولا أدعو لها أبداً نديما
ولا أعطي بها ثمناً حياتي ولا أسقي بها أبداً سقيما
فإن الخمر تفضح شاربيها وتجشمهم بها أمراً عظيما
إذا دارت حمياها تعلت طوالع تسفه الرجل الحليما

وقال أيضا :

فو الله لا أحسو يد الدهر خمرة ولا شربة تزري بذي اللّب والفخر
فكيف أذوق الخمر والخمر لم تزل بصاحبها حتى تكسع في الغدر
وصارت به الأمثال تضرب بعدما يكون عميد القوم بالسر والجهر
ويبدرهم في كل أمر ينوبهم ويعصمهم ما نابهم حادث الدهر
فيا شارب الصهباء دعها لأهلها الغواة وسلم للحسيم من الأمر
فإنك لا تدري إذا ما شربتها وأكثرت منها ما تريش وما تبر

إسلام قيس بن عاصم :

قال الأحنف بن قيس أبو بحر سيد تميم: ذكرت بلاغة النساء عند زياد فحدثته أن قيس بن عاصم أسلم، وعنده امرأة من بني حنيفة، فأبى أهلها وأبوها أن يسلموا، وخافوا إسلامها، فأجمعوا إليها وأقسموا أنها إن أسلمت لم يكونوا معها في شيء ما بقيت.

فطالبت زوجها قيساً بالفرقة،ففارقها، فلما احتملت لتلحق بأهلها قال لها قيس: أما والله لقد صحبتني سارة، ولقد فارقتني غيرعارة، ولا صحبتك مملولة، ولا أخلاقك مذمومة، ولولا ما اخترت ما فرق بيننا إلا الموت، ولكن أمر الله ورسوله ﷺ، أحق أن يطاع ويتبع .

فقالت له: أنبئت بسحبك، وفضلك، وأنت والله إن كنت للدائم المحبة الكثير المودة،القليل الأئمة، المعجب الخلوة، البعيد النبوة، ولتعلمن أني لا أسكن بعدك إلى زوج، فقال قيس: ما فارقت نفسي شيئاً قط فتبعته كما تبعتها.

سوق عكاظ:

لقد كان للعرب أسواق في الجاهلية، يقصدها في مواسم معروفة البلغاء والخطباء والشعراء والتجار، ومنها سوق عكاظ، وقد حضر الرسول ﷺ سوق عكاظ قبل مبعثه، وكان ممن رآهم الرسول قس بن ساعدة الأيادي حكيم العرب، وهو يخطب خطبته التي يقول فيها: أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هوآت آت، ليل داج وسماء ذات أبراج، وبحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وبر وأنام ومطعم ومشرب، وملبس ومركب، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون،أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا.

وقال قس بن ساعدة: ما على وجه الأرض دين أفضل من دين أظلكم زمانه وأدرككم أوانه، (يقصد بذلك الدين الإسلامي) فطوبى لمن أدركه فاتّبعه، وويل لمن خالفه.

يقصدها من يطلب بثأر لعله يجد فيها غريمه فيأخذ بثأره ،ويقصدها من يريد إعانة على فداء أسير، أو انتصار من ظالم، وهكذا.

وكان النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، أبو أمامة تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء، فتعرض عليه أشعارها، فيحكم بالسبق لصاحب أحسن قصيدة. وكان حسان بن ثابت والأعشى والخنساء وغيرهم ممن يعرض شعره عليه،وكان الجميع يرضي بحكمه.

البذل في فك الأسرى:

يحكى أن رجلين من هوازن جاورا في بني مرة بن عوف،وكانا قد أصابا دماً في قومهما، ثم إن قيس بن عاصم المنقري التميمي، وكان سيد تميم، ولما وفد على النبي ﷺ بسط له رداءه، وقال :هذا سيد الوبر.

أغار قيس بن عاصم على بني مرة فأصاب واحداً منهما في عدة أسارى كانوا عندهم، ففدى كل قوم أسيره من قيس بن عاصم، وبقي الهوازني لم يأت أحد لفدائه.

فاستغاث للهوازني أخوه ببني مرة بسنان بن أبي حارثة، والحارث بن عوف، والحارث بن ظالم، وهاشم بن حرملة والحصين بن الحمام،فلم يغيثوه.

فركب أخو الهوازني، إلى موسم عكاظ، فأتى منازل مذحج ليلاً ونادى قائلاً:

دعوت سناناً وابن عوف وحارثاً وعاليت دعوى بالحصين وهاشم

أعيذ هم في كل يوم وليلة بترك أسير عند قيس بن عاصم

حليفهم الأدنى وجار بيوتهم ومن كان عما سرهم غير نائم

فصموا وأحداث الزمان كثيرة وكم في بني العلات من متصامم

فيا ليت شعري من لإطلاق غلمة ومن ذا الذي يحظى به في المواسم؟

فسمع الشاعر صوتاً منبعثاً من الوادي منشداً بهذه الأبيات فقال:

ألا أيّهذا الذي لم يجب عليك بحي يجلي الكرب

عليك بذا الحي من مذ حج فإنهم للرضا والغضب

فناد يزيد بن عبد المدان وقيساً وعمرو بن معد يكرب

يفكوا أخاك بأموالهم وأقلل بمثلهم في العرب

أولاك الرؤوس فلا تعدهم ومن يجعل الرأس مثل الذنب

فاتّبع الصوت فلم ير أحداً، فذهب إلى المكشوح قيس بن عبد يغوث المرادي فأخبره خبره ،فقال له قيس: والله إن قيس بن عاصم ما قارضته معروفا قط، ولا هو لي بجار، ولكن أشر أخاك منه وعليّ الثمن،ولا يمنعك غلاؤه.

ثم ذهب أخو الهوازني إلى عمرو بن معد يكرب، فقال له عمرو: هل بدأت بأحد قبلي؟ فقال: نعم: بدأت بقيس بن عبد يغوث، فقال: عليك به، فهو أحق بذلك إذ بدأت به فتركه.

ثم أتى الشاعر يزيد بن عبد المدان، فأخبره بقصته وما حصل له حتى وصل إليه، فقال له يزيد: مرحبا بك وأهلاً، إبعث إلى قيس بن عاصم، فاستوهبه أخاك، فإن هو وهبه لي شكرته، وإلا أغرت عليه حتى يتقيني بأخيك، فإن نلتها، وإلا دفعت إليك كل أسير من بني تيم بنجران، فاشتريت به أخاك، فقال أخو الهوازني: رضيت بذلك.

فأرسل يزيد بن عبد المدان إلى قيس بن عاصم بهذه الأبيات:

يا قيس أرسل أسيراً من بني جشم إني بكل الذي تأتي به جازي

لا تأمن الدهر أن تشجى بغصته فاختر لنفسك إحمادي وإعزازي

فافكك أخا منقر عنه وقل حسناً فيما سئلت وعقبه بانجازي

وبعث بالأبيات رسولاً إلى قيس بن عاصم المنقري التميمي، فأنشده، ثم قال يا أبا علي: إن يزيد بن المدان يقرأ عليك السلام، ويقول لك إن المعروف قروض، ومع اليوم غد، فأطلق إليه هذا الجشمي، فقد استعان بأشراف بني مرة، وبعمرو ابن معد يكرب، وبمكشوح المرادي فلم يصب عندهم حاجته،فاستجار بي، ولو أرسلت إليَّ في جميع أسارى مضر لقضيت حاجتك.

فقال قيس بن عاصم لمن حضر من بني تميم: هذا رسول يزيد بن عبد المدان سيد مذحج، وابن سيدها، ومن لا يزال له فيكم يد، وهذه فرصة لكم فما ترون؟.

قالوا: نرى أن تغليه عليه ونحكم فيه شططاً، فإنه لن يخذله أبداً، ولو أتى ثمنه على ماله كله، فقال قيس بن عاصم: بئس ما رأيتم، أما تخافون سجال الحروب ودول الأيام، ومجازاة القروض؟.

فلما أبوا عليه قال لهم: اشتريه منكم، فأغلوه عليه،فتركه في أيديهم، وكان الهوازني أسيراً في يد رجل من بني سعد فخذ من بني تميم، وبعث إلى يزيد بن عبد المدان، فأعلمه بما جرى، وأن الأسير لو كان في يده أو يد منقر لأخذه وبعث به إليه، ولكنه في يد رجل من بني سعد.

فأرسل يزيد بن عبد المدان إلى السعدي يطلب منه القدوم بأسيره ويحكمه فيما يطلب لإطلاق الأسير، فأتى السعدي يزيد بن عبد المدان، فقال له يزيد: احتكم، فقال السعدي: أطلب مائة ناقة ورعاءها، فقال له يزيد: إنك لقصير الهمة، قريب الغنى، جاهل بأخطار بني الحارث، أما والله لقد غبنتك يا أخا بني سعد، ولقد كنت أخاف أن يأتي ثمنه على جل أموالنا، ولكنكم يا بني تميم قوم قصارى الهمم، فأعطاه ما احتكم،فجاوره الأسير وأخوه حتى ماتا بنجران.

الباب العشرون

في منازل المسافرين

المال الحلال:

يحكى أن رجلاً حج، وكان يحمل هِمْيَان فيه دنانير وجواهر،قيمة الجميع ثلاثة آلاف دينار، وكان الهِمْيَان من ديباج أسود (الهِمْيَان كيس يعلق على المنطقة من الأمام، ويوضع الكيس أحياناً تحت الثياب، فتوضع فيه الدنانير والدراهم، ويجمع الهِمْيَان على همايين، ويقال: هِمْيَان أعجر إذا كان ممتلئاً بالدراهم.

والديباج: القماش الذي سداه ولحمته حرير، وتتخذ من الديباج الثياب والستور، كما تتخذ منه البسط والفرش، والديباج يعتبر من الثياب الفاخرة.

فلما كان في بعض الطريق جلس الحاج لقضاء حاجته،فانحل الهِمْيَان من وسطه وسقط، ولم يشعر به، ولم يعلم بذلك إلا بعد أن سار مسافة أبعدته عن ذلك المكان، وكان مصادفة مرور رجل بذلك المكان، فرأى الهِمْيَان فأخذه، وكان هذا الرجل ذا دين وأمانة وورع، فحفظه رغبة في العثورعلى صاحبه ابتغاء لوجه الله في حفظ الأمانة.

وقال الرجل صاحب الهِمْيَان: إن فقد الهِمْيَان لم يؤثر في قلبي، ولا ذهابه، وذلك لكثرة مالي فاحتسبته عند الله تعالى، وقلت: يخلف الله عليّ ويعوضني خيراً مما فقدت، وكان معي تجارة بأموال عظيمة، فقضيت حجي، وعدت إلى بلدي. فلما كان بعد سنين توالت عليّ محن واحدة تلو الأخرى، أوقعتني في الفقر، حتى لم يبق لي شيء، مما اضطررت للهروب على وجهي هائماً من بلد إلى بلد، تاركاً بلدي، وقد أفضيت إلى الصدقة عليّ من المحسنين، وزوجتي معي، فأويت إلى بعض القرى.

كان المسافرون في الماضي، ينزلون في إستراحات تسمى الخان والخان: فارسية: الحانوت، وأصل الكلمة آرامي وتطلق على الدكان والمخدع، ثم أطلقت على المواضع التي ينزلها المسافرون، ثم في العصر الحديث أطلق على الأماكن التي ينزلها المسافرون اسم الفندق،والنزل والاستراحة.

وللشاعر العراقي معروف الرصافي أبيات يذكر فيها الخان منها:

نزلت الخان في بلدي كأني ... أخو سفر تقاذفه الدروب

وعشت معيشة الغرباء فيه ... لأني اليوم في وطني غريب

ولابن الرومي علي بن العباس قصيدة ذكر فيها الخان، كتبها إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن ثوابة لما ندبه للخروج من أجل تصريفه مطلعها:

دع اللوم عون النوائب ... ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

لقيت من البر التباريح بعدما ... لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

سقيت على ري به ألف مطرة ... شغفت لبعضيها بحب المجادب

فملت إلى خان مرث بناؤه ... مميل غريق الثوب لهفان لائب

فما زلت في خوف وجوع ووحشة ... وفي سهر يستغرق الليل واصب

يؤرقني سقف كأني تحته ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب

وكم خان سفر خان فانقض فوقهم ... كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

وقال آخر:

يا أيها السائل عن حالتي ... نزلت في الخان على نفسي

يغدو على الخبز خابز ... لا يقبل الرهن ولا ينسي

آكل من كيسي ومن كسرتي ... حتى لقد أوجعتني ضرسي

صاحب الهِمْيَان:

يقول صاحب الهِمْيَان: فنزلت في خان خراب اضطراراً لا اختياراً. فكانت زوجتي حاملاً، فأصابها المخاض (وجع الولادة)، وما كنت حينئذ أملك غير دانق ونصف دانق من فضة، وكانت ليلة ممطرة (الدانق: سدس الدرهم) فولدت، فقالت: يا هذا الساعة أموت فآخرج وخذ لي شيئاً من الطعام أتقوى به.

فخرجت أتخبط في الظلمة والمطر، حتى جئت إلى بقال فوقفت عليه فكلمني بعد جهد، فشرحت له حالي، فرحمني وأعطاني بتلك القطعة حلبة وزيتاً، أغلاهما عنده (أي طبخ الحلبة بالزيت) وأعارني غضارة جعلته فيها فمشيت أريد أهلي بالطعام، فزلقت رجلي فانكسرت الغضارة وذهب ما فيها من الطعام.

فورد عليّ أمر عظيم، ما ورد عليّ مثله قط، وأقبلت ألطم وجهي وأبكي وأصيح بأعلى صوتي، فإذا برجل قد أخرج رأسه من شباك في داره وقال: ويلك،

ما لك تبكي؟ ما تدعنا ننام، فشرحت له قصتي، فقال الرجل: هذا البكاء والصياح كله بسبب دانق ونصف؟.

فداخلني الغمّ والحزن ما لا يعلمه إلا الله وحده، علّام الغيوب، كشّاف الكروب، فقلت: يا هذا والله ما لما ذهب عندي محل، ولكن بكائي رحمة لنفسي مما دفعت إليه، وإن زوجتي وولدي الساعة يموتان جوعاً، و والله، وإلا فعلي وعلي، وحلفت له بأيمان معلظة.

لقد حججت في سنة كذا، وأنا أملك من المال العظيم، ما ذهب مني هِمْيَان فيه دنانير وجواهر قيمتها ثلاثة آلاف دينار ما فكرت فيه،وهو ذا تراني الآن أبكي بسبب دانق ونصف دانق فضة، فأسأل الله العافية والسلامة مما أنا فيه، ولا تعيرّني فتُبتلى بمثل ما ابتليت به.

فقال الرجل: بالله عليك، ما كان صفة هِمْيَانك؟ قال: وماذا عسا ك تفعل إذا علمت صفة هِمْيَاني، وقد ذهب إلى غير رجعة، ويقنعك بعد ما خاطبتني به، وما تراه ما حالي وصورتي وقيامي في الطين والمطر، أو تريد أن تتلهى بي؟ وأي شيء ينفعني وينفعك من صفة الهميان؟ وقد ضاع مني من كذا وكذا سنة، وقفلت راجعاً إلى أهلي خائباً حزيناً.

فما خطوت إلا خطوات قليلة، فإذا به قد خرج من بيته، يعدو ورائي يصيح بي، تعالى يا رجل خذ هذا، فظننت أنه يريد أن يتصدق عليّ بشيء ينفس به كربتي، فوقفت له.

فكرّر عليّ سؤاله عن صفة هِمْيَاني، وقبض على يدي، فلم أستطع أن أتخلص منه إلا بعد أن وصفت له هِمْيَاني، فسكّن من روعي، وقال لي: ادخل المنزل فدخلت منزله.

فسألني عن زوجتي أين هي ومولودها؟ فقلت: في الخان الفلاني، فأرسل غلمانه فأتوا بها فأدخلها إلى أهله ، فأصلحوا أمرها وأطعموها وأعطوها ما احتاجت إليه، وكساني كسوة حسنة، وأدخلني الحمام وأصبحت عنده في عيشة طيبة.

فقال لي: أقم عندي أياماً في ضيافتي بأهلك، فأقمت عنده عشرة أيام، فكان يعطيني في كل يوم عشرين ديناراً وأنا متحيّر من عظيم برّه بي بعد شدّة جفائه

لي. فلما انقضى عشرة أيام، قال لي: أيّ شيء تستطيع أن تعمله؟ فقلت: إنني كنت تاجراً، لما كان عندي من المال ما يسمح بالتجارة.

التدرج خوف المفاجأة:

فقال: أريد أن تقيم عندي وأنا أعطيك رأس مال فتتجر به وتشركني في التجارة، فقلت: أفعل إن شاء الله، فدفع إليّ مائتي دينار. وقال لي: اتجر بها ها هنا. فقلت: هذا ماش. وقد أغناني الله تعالى به، فيجب علي أن ألزمه فلزمته، فأخذت في التجارة، فما مضى إلا بضعة أشهر ربحت تجارتنا ربحاً كثيراً، فجئته فقلت له: خذ هذا نصيبك من الربح.

فقال لي: إجلس، فجلست فأخرج إليَّ هِمْيَاني بما فيه وقال لي: أتعرف هذا؟ فحين رأيته شهقت شهقة غشي علي منها.

ثم أفقت بعد ساعة، فقلت له: يا هذا أملك أنت أم نبي أم جني؟ فقال: لا هذا ولا ذاك، ولكني ممتحن بحفظ هِمْيانَك منذ كذا وكذا سنة، فلما سمعتك تلك الليلة، تقول ما قلته، وأعطيتني علامته أردت أن أعطيك الهِمْيَان فخشيت أن تنشق مرارتك من الفرح، فأعطيتك تلك الدنانير التي أوهِمْتَك أنها هبة لك، وإنما أعطيتك ذلك كله من هِمْيَانك، والدنانير المائتان قرض، فخذ هِمْيَانك واجعلني في حلّ من الأمر.

فَأخذته ودعوت الله له بكل خير وشكَرته على موقفه النبيل، وعلى إكرامه لي ولأهلي، ورجعت إلى بلدي، وبعت الجوهر، وأضفت ثمنه إلى الدنانير، واتجرت بها، فما مضت إلا سنيات قليلة حتى صرت صاحب عشرة آلاف دينار، وصلحت حالي، فأنا بفضل الله تعالى أعيش عيشة الهناء والعزة والكرامة.

الشعبي وعبد الملك بن مروان:

وروى أبو حاتم السجستاني في كتاب المعمرين بسنده إلى القاضي الشعبي قال: أرسل إلي عبد الملك بن مروان، وهو شاك (أي مريض)، فدخلت عليه فقلت: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال: أصبحت كما قال أبو قميئة الشاعر، حيث يقول:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عنّي عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرمى وليس برامي

فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها ... ولكنني أرمي بغير سهام
إذا ما رآني الناس قالوا ألم يكن ... جليداً شديد البطش غير كهام
فنيت ولم يفن من الدهر ليلة ... ولم يغن ما أفنيت سلك نظام
على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهن قيام

فقلت: لا يا أمير المؤمنين، ولكنك كما قال لبيد بن ربيعة العامري:
نفسي تشكي إلي الموت مجهشة ... وقد حملتك سبعا بعد سبعينا
فإن تزادي ثلاثاً تحدثي أملاً ... وفي الثلاث وفاء للثمانينا

فعاش والله حتى بلغ تسعين حجة فقال:
كأني وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عن منكبي ردائيا

فعاش حتى بلغ عشراً ومائة سنة فقال في ذلك:
أليس في مائة قد عاشها رجل ... وفي تكامل عشر بعدها عمر

فعاش والله حتى بلغ عشرين سنة ومائة فقال في ذلك:
وغنيت سبعاً بعد مجرى داحس ... لو كان للنفس اللجوج خلود
فعاش حتى بلغ أربعين ومائة سنة فقال في ذلك:
ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الخلق كيف لبيد؟
فقال عبد الملك بن مروان: والله ما بي بأس، أقعد حدثني ما بينك وبين الليل فقعدت، فحدثته حتى أمسيت، ثم فارقته فمات في ليلته.

إياك والظلم:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٢].

إن الظلم مرتعه وخيم،إذ إنه يجر في أعقابه الذل والخذلان، والعار والشنار، وبئس الزاد إلى المعاد ظلم العباد للعباد، ووالله ما عزل ذو باطل، ولو طلع القمر

من بين عينيه، ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه، وللباطل جولة،ثم يضمحل، وللحق دولة لا تنخفض ولا تذل، وجاء في الحديث النبوي الشريف، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**» أخرجه البخاري.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له :(إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك)، وقال أحد الأمراء: (غني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصرا إلا الله)، نعم الناصر هو الله.

وعن أبي معبد مولى ابن عباس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن فقال:«**اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجه البخاري.

وقال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقد جاء في المثل قولهم عن الظالم:(فلان أظلم من حية)، لأن الحية لا تحفر لنفسها بيتاً، وإنما تقصد كل بيت من بيوت الهوام فيهرب أهله، ويخلونه لها خوفاً منها، وقال الشاعر:

فلا تعجل على أحد بظلم فإن الظلم مرتعه وخيم

ولا تفحش وإن مليت غيظاً على أحد فإن الفحش لؤم

ولا تقطع أخاك عند ذنب فإن الذنب يغفره الكريم

ولكن داري عوراه برفق كما قد يرقع الخلق القديم

ولا تجزع لرب الدهر واصبر فإن الصبر في العقبى سليم

فما جزع بمغن عنك شيئاً ولا ما فات ترجعه الهموم

وقال أبو العيناء، كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت: قد تضافروا علي، وصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾

[سورة الفتح: ١٠]. فقلت له: إن لهم مكراً. فقال: ﴿ولا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣]. قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩].

رأي ابن عباس في الظلم:

وذكر الظلم يوماً في مجلس عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، فقال كعب: إني لأجد في كتاب الله المنزل: (أن الظلم يخرب الديار) فقال ابن عباس تصديقه في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النمل: ٥٢].

موقف كسرى من معلمه:

ويروى أن كسرى أنوشروان، كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق أقرانه في العلوم، فضربه المعلم يوماً، على غير ذنب فعله فأوجعه، فحقد أنو شروان على المعلم، فلما ولي الحكم أنو شروان استدعى المعلم فسأله: ما حملك على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً على غير ذنب فعلته؟. فقال له المعلم: لما رأيتك ترغب في العلم رجوت لك الملك بعد أبيك، فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لئلا تظلم. فقال أنو شر وان :أحسنت أحسنت.

أظلم من ذئب:

وقالوا في المثل: أظلم من ذئب، وقد كثرت أمثال العرب وأشعار الشعراء بظلم الذئب، ومن ذلك قولهم: من استرعى الذئب ظلم ومستودع الذئب أظلم، وكافأه مكافأة الذئب.

ومما جاء في أشعارهم، فقد حكى ابن الأعرابي: أن أعرابيًّا ربّى بالبادية ذئباً، فلما شب الذئب افترس شاة له من أغنامه، فقال الأعرابي:

فرست شويهتي وفجعت طفلاً ... ونسواناً وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخا ل وأنت طفل ... فما أدراك أن أباك ذئب
إذا كان الطباع طباع سوء ... فليس بمصلح طبعاً أديب

وقال آخر:

وأنت كجرو الذئب ليس بآلف أبى الذئب إلا أن يخون ويظلما

وقال آخر:

وأنت كذئب السوء إذا قال مرة لعمروسة والذئب غرثان مرمل

(العمروسة أم الكبش، وتسمى النعجة)

أأنت الذي من غير جرم سبيتني؟ فقالت: متى ذا قال ذا عام أول؟

فقالت: وليد العام بل رمت ظلمنا فدونك كلني لا هنالك مأكل

وقال طرفة بن العبد:

فظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

وقال بعضهم: ما هبت شيئاً قط هيبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله،فيقول: حسبك الله،الله بيني وبينك.

وقال آخر: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله، وفي الأثر: (يقول الله اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري).

الباب الحادي والعشرون

في كتمان السر

كتمان السر خوف العاقبة:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة يوسف: ٥]، تلك كانت وصية النبي يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، لما قصّ يوسف رؤياه على أبيه، فاستكتمه لما لتلك الرؤيا من دلائل اجتباء الله يوسف عن سائر إخوته.

ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ في كتمان السرّ قوله ﷺ: «**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود**».

وقد نصح العقلاء الحكماء بحفظ الأسرار وكتمانها، وقالوا: إن خير من يحفظ الأسرارهو صاحبها، وقالوا: إذا أفشيت سرّكَ مَلَكَكَ، بعد أن كنت تملكه، وقال الحكماء: صدرك أوسع لسرك، وسرك دمك فانظر أين تريق دمك، ومعنى ذلك أنه ربما يكون إفشاء السرّ سبباً لسفك دمك.

والسرّ أمان في عنقك، وأنت مطالب بحفظه، كما تطالب بحفظ الوديعة والأمانة المالية والعينية،فإذا حدّثك إنسان بحديث واختارك لموضع سرّه من بين إخوانه وأصدقائه،واستكتمك إياه فقد وجب عليك كتمان السرّ وحفظ الأمانة، وحرّم عليك أن تفشيه، وإلا كنت خائناً للأمانة مفشياً للسرّ ساعياً بالفساد متسبباً فيما ينجرّ عن ذلك من الشرّ.

وقالوا: إن من علامات الرجولة ،ومتانة الخلق وقوة النفس حفظ الأسرار، فهو يدل على جوهر الرجل ومعدنه الأصيل،وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها،فكذلك لا خير في إنسان لا يكتم سرّه، وقالوا: صدور الأحرار قبور الأسرار، وقال الشاعر في كتمان السرّ:

ولها سرائر في الضمير طويتها ... نسي الضمير بأنها في طيّه

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسرّه من صدرغيره بأن لا يفشيه، وقالوا: إن الظفر الحزم، والحزم بإجالة الرأي،والرأي بتحصين الأسرار، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده، ومن أفشى أسراره إلى الناس هان عليهم إذاعتها، ومن لم يكتم سرّه استحق الندم، ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على

هـذا رجع إلى الجهل، وقال الشاعـر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث ... فـأفشاه الرجـال فـمـن يلـوم
إذا عاتبـت من أفـشى حـديثـي ... وسـري عنـده فـأنـا الظلـوم
وإني يـو م أسـأم حـمـل ســرّي ... وقـد ضـمـنته صـدري سؤوم
فـلست محـدثـاً سـرّي خليلـي ... ولا نفسـي إذا حـضـرت همـوم
وأطـوي السـر دون الـنـاس إني ... لمـا استـودعـت من سـر كتـوم

الرسول القدوة في كتمان السر:

ومما يـذكـر من كتمان السر، ففي العام الثامن للهجرة النبوية، نقضت قريش العهد الذي عقدته مع رسول الله ﷺ في العام السادس الهجري،عام صلح الحديبية، أمر الرسـول ﷺ أهله أن يجهزوه؟، فـدخـل أبو بكر الصـديق ﷺ على ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما، وهي تعـدّ بعض جهاز رسول الله ﷺ.

فـقال أبو بكـر: أي بنيتي أأمـركم رسـول الله ﷺ أن تجهـزوه، قالت: نعـم. فتجهـز قال: فأين تـرينه يريد؟. قالت: لا والله ما أدري، فمن هـو أبو بكـر في حرصه عـلى كتم أسـرار رسـول لله ﷺ، ومع ذلك فحـرصاً من السيدة عائشة أمر المؤمنين على كتمان سرّ رسـول الله.

ثم إن رسـول الله ﷺ، أعـلم الناس أنه سائر إلى مكة المكرمة، وأمرهم بالجدّ والتهيؤ، وقال: اللّهم خذ العيون والأخبارعن قـريش، حتى نبغتها في بلادها.

أبو بكر وكتمان السر:

وجاء تحت عنـوان: تفسير ترك الخطبة، في صحيح البخاري أن عبـد الله بن عـمر بن الخطاب رضي الله عنـهما، حين تأيمت حفصة بنت عمر، قال عمـر: لقيت أبا بكر. فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عـمر، فلبثت ليالي ثم خطبها رسـول الله ﷺ، فـلقيني أبو بكر، فقال: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قـد عـلمت أن رسـول الله ﷺ قـد ذكـرها فـلم أكـن لأفـشي سرّ سـول الله ﷺ، ولوتركها لقبلتها.

وفي رواية أخرى، أن حفصة كانت قبل النبي زوجاً لخنيس بن حذافة السهمي، وكان بدريًّا توفي بعد بدر، وقيل بعد أُحُد، والأول هو الصحيح، وأن عمر بن الخطاب ﷺ عرضها على عثمان بن عفان بعد وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ في العام الثاني للهجرة النبوية، فقال عثمان: لا حاجة لي في الزواج.

ثم عرضها على أبي بكر الصديق فسكت وَلَمْ يرجع له بقول، حتى وجد عمر في نفسه،فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي: عثمان سيتزوج خيراً من حفصة، وحفصة سيتزوجها من هو خير من عثمان.

ثم خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحها إياه، وقد بين له الصديق، بعد خطبة النبي ﷺ لحفصة، أنه ما منعه من الجواب إلا أنه كان يعلم أن رسول الله ذكرها، وأنه كره أن يفشي سرّ رسول الله ﷺ، وتزوج عثمان بن عفان، أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، في العام الثالث للهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

ويحكى أن العباس بن عبد المطلب ﷺ، قال لابنه عبد الله: يا بني إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدنيك،فأحفظ عنّي ثلاثاً: لا تفشِ له سرًّا، ولا تغتابن عنده أحدا، ويطلعن منك على كذبة، حقا إن من حدّث بالسِّرّ أفشاه كان مملوكاً له آثما بما جَنَى لسانه، وقد كان الخيار له قبل الإفشاء.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ما أفشيت سرّي إلى أحد قط فأفشاه فلمته،إذ كان صدري به أضيق، وعاب الأحنف بن قيس التميمي على من يفشي السر، ثم يطلب من الذي حدّثه به كتمانه، وقال : يضيق صدر الرجل بسّره، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ؟.

وكانوا يحذرون من مساررة من يحبّ الاطلاع على الأسرار، وخبيئات البيوت، ويرون في طلبه للسرّ علامة على سوء المقصد، وخبث الطوية ،وقال صالح ابن عبد القدوس: لا تودع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسرّ مذيع ، ولا تودع مالك عند من يستدعيه ، فالطالب للوديعة خائن.

وليس من الحزم أن تفشي سرّك إلى كل أحد، أو تثق بكل إنسان، فهذا دليل الجهل والحمق، والحذر يقتضي أن تخفي السرّ حتى من صديقك إن ظننت أنه ربما إذا وقع بينكما سوء تفاهم أفشى سرّك، ويكون أعرف بالمضرة.

كتمان السرّ لتحديد المسؤولية:

ويروى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحداً إلا خالياً له، فإنه أموت للسرّ وأحزم للرأي، وأجدر بالسلامة، وفي رواية أدعى للسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض.

فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة، لأن الواحد رهن بما أفشي إليه، والثاني مطلق عنه ذلك الرهن، والثالث علاوة فيه، فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة ورهبة، وفي رواية: (رهبة للملك ورغبة إليه)، وكان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة، واتسعت على الرجلين المعاريض، فإن عاقبهما عاقب رجلين بذنب واحد، وإن اتهما اتهم بريئاً بجناية مجرم، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة له عليه، وقال أحد الشعراء في حفظ السرّ وكتمانه:

يا ذا الذي أودعني سره ... لا ترج أن تسمع مني

لم أجره على فكرتي ... كأنه لم يجر في أذني

عاقبة إفشاء السر:

ومما يروى في عقوبة من أفشى السر، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولّى قدامة بن مظعون الكوفة، ولم يُعلم بذلك أحداً، فتوجهت امرأة مظعون، إلى دار المغيرة بن شعبة تطلب له زاداً، فقالت: أقرضونا زاداً لراكب، فإن أمير المؤمنين عمر ولّى زوجي قدامة الكوفة.

فأخبرت زوجة المغيرة زوجها، فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاستأذن للدخول عليه، فأذن له، وقال: يا أمير المؤمنين، ولّيت قدامة بن مظعون الكوفة، وهو قوي أمين، فقال عمر بن الخطاب: ومن أخبرك بذلك؟. قال المغيرة: نساء المدينة يتحدثن به، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب للمغيرة: إذهب وخذ منه العهد، ذلك جزاء من أفشى سرّه إلى امرأته.

النساء وكتمان الأسرار:

وقد قيل لا تطلعوا النساء على أسراركم، تصلح أموركم، وقد هجا الشاعر الحطيئة أمه لإفشائها السرّ فقال:

أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا

وقيل مبالغة في كتمان السر، إذا كلمت بالنهار فانظر من عندك، وإذا كلمت بالليل فاخفض صوتك، وقال الشاعر:

لا يكتم السر إلا من له شرف والسر عند كرام الناس مكتوم

ألسّر عندي في بيت له غلق ضلت مفاتيحه والباب مختوم

وقال شاعر آخر:

لعمرك كتمان الفتى سرّ ما نوى أعف وأدنى للرشاد وأكرم

وأجمل في بث الحديث مقالة وأحسن في الأخلاق دوماً وأحزم

وقال أحد الحكماء: لا أنس آنس من استشارة عاقل ودود،ولا وحشة أوحش من مخالفته،لأن المشاورة والمناظرة بابا بركة وخير، ومفتاحا رحمة، ومن استشير فليشر بالنصيحة، وليجتهد بالرأي ويلزم الحق، فالحق أحق أن يتبع، وليجعل المستشير كنفسه بترك الخيانة وبذل النصيحة ، وكتمان السر.

قال الشاعر:

ومن الرجال إذا زكت أحلامهم من يستشار إذا استشير فيطرق

حتى يجول بكل واد قلبه فيرى ويعرف ما يقول وينطق

فوائد متنوعة

آداب خدمة الملوك:

يحكى من الآداب في خدمة الملوك ومصاحبتهم: إذا أراد الملك إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبداً فٱجعله سيّداً، ولا تديمن النظر إليه ،ولا تكثر من الدعاء له في كل كلمة، ولا تتغير له إذا سخط، ولا تغترَّ به إذا رضي، ولا تلحّ في مسألته.

وقال الشاعر:

إن الملـوك لا يخـاطبـونـا ولا إذا مـلـوا يعاتبـونـا
وفي المـقـال لا ينـازعـونـا وفي العطـاس لا يشمـتـونـا
وفي الخـطـاب لا يكيفـونـا يثنـى عليهـم ويبجلـونـا
فٱفهم و صـاة لا تكـن مجنونا

وقالوا: من تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى قبالة الرجل اليمنى، والنعل اليسرى قبالة الرجل اليسرى، وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه، ولا ينتظر أن يؤمر بإصلاحه. ودخل شبيب بن شيبة على أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين، فأراد أن يسأل أمير المؤمنين عن اسمه، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين إني أحب المعرفة وأجلُّ الأمير عن السؤال؟ فقال له: فلان بن فلان، فانظر إلى التلطف في السؤال، لأن الملوك لا تسأل عن أسمائها.

التسليم على العلماء:

ويروى أن الإمام مالك بن أنس، وعلي بن يونس المديني كانا جالسين فإذا سفيان ابن عيينة يستأذن بالباب، فقال الإمام مالك : إن سفيان بن عيينة رجل صالح صاحب سنّة، أدخلوه.

فدخل سفيان بن عيينة، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردوا السلام، فقال سفيان : سلام خاص وعام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله، فقال مالك : وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله.

فصافحه مالك، وقال : يا أبا محمد لولا أنها بدعة لعانقناك، فقال سفيان: قد عانق من هو خير منا رسول الله ﷺ، فقال مالك: جعفراً عندما قدم من الحبشة؟ قال سفيان :نعم، فقال مالك: ذاك حديث خاص يا أبا محمد ليس بعام، فقال سفيان: ما عمّ جعفر بن أبي طالب يعمنا، وما خصّه يخصّنا إذا كنا صالحين أفتأذن لي أن أحدث في مجلسك؟.

قال الإمام مالك : نعم يا أبا محمد، فقال سفيان بن عيينة: حدّثني عبد الله بن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، أنه لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة اعتنقه النبي ﷺ وقبَّله بين عينيه، وقال : جعفر أشبه الناس بي خَلقاً وخُلقاً.

هذه بتلك:

بين معاوية بن أبي سفيان والأحنف بن قيس التميمي في التعريض، فقال معاوية للأحنف: أخبرني عن قول الشاعر:

إذا ما مات ميت من تميم ... وسرك أن يعيش فجي بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن ... أو الشيء الملفف في البجاد
تراه يطوف في الآفاق حرصاً ... ليأكل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشيء الملفف في البجاد؟ قال الأحنف: السخينة يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: واحدة بواحدة والبادي أظلم.

والسخينة طعام كانت تعمله قريش من الدقيق، وهو يسمى الخزيرة، فكانت قريش تُسبّ به وفيه يقول حسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

ومما جاء في التعريض عن الأشياء: يقال دخل رجل على زياد بن أبيه، والرجل يُعدّ من أشراف البصرة، فسأله زياد عن مسكنه فقال له : أين مسكنك من البصرة؟. قال الرجل: في وسطها، قال له زياد : كم لك من الولد؟. قال الرجل: تسعة.

فلما خرج الرجل من عند زياد قيل له : أيها الأمير إنه ليس كذلك في كل ما سألته ، وليس له من الولد إلا واحد ، وهو يسكن في طرف البصرة.

فلما عاد الرجل إلى زياد، سأله عن ذلك، فقال الرجل:ما كذبتك أيها الأمير لي تسعة من الولد، قــدمت منهم ثمانية فيهم لي وبقي معي واحد،فلا أدري أيكون لي أم علي، ومنزلي بين المدينة والمقبرة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمنزلي في وسط البصرة. فقال زياد صدقت.

ودخل رجل على عيسى بن موسى، وعنده ابن شبرمة القاضي، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟، (وكان قد رمي عنده بريبة) فقال القاضي: نعم، إن له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلّى سبيله، فلما انصرف الرجل قالوا للقاضي: أكنت تعرف ذلك الرجل؟ قال: لا ولكني عرفت أن له بيتاً يأوي إليه، وقدماً يمشي بها، وشرفه أذناه ومنكباه.

العجب يقتل صاحبه:

يحكى أن سليمان بن عبد الملك بن مروان الأموي، أمير المؤمنين، خرج يوم الجمعة ولبس لباساً شهر به وتعطر، ودعا بوعاء فيه عمائم مختلفة الأنواع، وبيده مرآة ، فأخذ يلبس عمامة بعد أخرى يختار منها حتى إذا رضي بواحدة منها، لبسها وأرخى من سدولها، وأخذ عصا وصعد المنبر ناظراً في عطفيه، وجمع جمعه،وخطب خطبته التي أرادها، فأعجبته نفسه فقال:

أنا الملك الشاب، والسيد المهاب،الكريم الوهاب، فتمثلت له جارية من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين؟ قالت: أراه منى النفس ، وقرة العين لولا ما قال الشاعر، قال : وما قال الشاعر؟ قالت: قال:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسانِ
أنت من لا يريبنا منك شيء علم الله غير أنك فانِ

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً، فلما فرغ من خطبته دعا بالجارية، فقال لها: ما دعاك إلى ما قلت لأمير المؤمنين؟

قالت: والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم، ولا دخلت عليه؟ فأكبر ذلك ودعا بقية جواريه، فصدقتها في قولها، فارتاع لذلك سليمان بن عبد الملك، ولم ينتفع بنفسه ، ولم تطل حياته حتى توفي، نعوذ بالله من العجب بالنفس.

من وصايا الآباء للأبناء:

فمن عادات العرب وأخلاقهم، التي جبلوا عليها ، تقديم النصيحة لأبنائهم، لاسيما إذا أحسّ أحدهم بدنو أجله، فيمحصه النصح رغبة في السير على النهج القويم، من التخلق بالأخلاق الفاضلة، من الشجاعة والكرم والسخاء، والابتعاد عن سفاسف الأمور، ومن تلك الوصايا، وصية عبد الله بن شداد بن الهاد لابنه محمد.

روى ابن الكلبي عن أبيه قال: لما حضرت الوفاة عبد الله بن شداد دعا ابناً له يقال له محمد، فقال: يا بني إني أرى داعي الموت لا يقلع ،وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإليه ينزع ، وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم،وليكن أولى الأمور بك، شكر الله وحسن النية في السرّ والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد،وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكنَّ التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد

وما لا بد أن يأتي قريب ... ولكنَّ الذي يمضي بعيد

ثم قال: يا بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر وصروف الأيام ذات نوائب،على الشاهد والغائب، فكم راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، وأعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن أي بني كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة ... عليك إذا ما جاء للعرف طالب

وإن امرأ لا يرتجى الخير عنده ... يكن هيناً ثقلاً على من يصاحب

فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً ... فإنك لا تدري متى أنت راغب

رأيت التوى هذا الزمان بأهله ... وبينهم فيه تكون النوائب

ثم قال: أي بني، كن جواداً بالمال،في موضع الحق،بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر،وإن أحمد البخل للحرّ الظن بمكتوم السرّ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكنون التلاد وإنني ... بسرِّك عمن سالني لضنين

إذا جـاوز الاثـنـين سـر فإنـه ... بنكث وتكثـير الحديث ضنين
وعنـدي لـه يوماً إذا ما ائتمنتني ... مكـان بسـوداء الفـؤاد مكـين

ثم التفت إلى ابنه قائلا: أي بني، وإن غلبت يوماً على المال فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدوني عيال، وكن أحسن ما تكون في الطاهر حالاً، أقلّ ما تكون في الباطن مالاً، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاذ نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجـدت أبي قـد أورثـه أبـوه ... خلالاً قـد تـعـد من المعالي
فأكرم مـا تكون عليّ نفسي ... إذا مـا قـلّ في الأزمـات مـالـي
فتحسن سيرتي وأصـون عرضي ... وتجمـل عـنـد أهـل الرأي حالي
وإن نلت الغنى لـم أغـل فيـه ... ولم أخصص بجفوتيَ الموالـي
ولـم أقـطـع أخـاً لأخ طـريف ... ولم يـذمـم لطرفته وصـالي
فإنـي لا أضن على ابـن عمي ... بنصر في الخطـوب ولا نـوالي
ولست بقائـل قـولاً لأحـظـى ... بقـول لا يصدقـه فـعـالي
ومـا التقصير قـد علمت معدّ ... وأخـلاق الـدنية من خـلالي
وقد أصبحت لا أحتـاج فيمـا ... بلو ت من الأمـور إلى سـؤالي
وذلـك أننـي أدبـت نفـسـي ... وما حلت الرجال ذوي المحـال
إذا مـا المرء قصـر ثـم مـرت ... علـيـه الأربعـون من الرجـال
فلم يلحـق بصالحهم فـدعـه ... فليس بـلاحـق أخرى الليالـي
وليس بـزائـل ما عـاش يومـاً ... من الدنـيا يحـول على سفا ل

ثم قال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل، هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما من شيمتي شتم ابـن عمي ... ومـا أنـا مخلف من يرتـجيني
وكلمة حاسد في غـير جـرم ... سمعت فقلت مـري فـأنفذيني

فعابوها علي ولم تسئني ... ولم يعرق لها يوماً جبيني
وذو اللّونين يلقاني طليقاً ... وليس إذا تغيب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنه ... علي مخافة حسبي وديني

ثم قال: أي بني، لا توخ امرأ حتى تعاشره، وتتفقد موارده ومصادره فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة فَوَاخِهِ على إقالة العثرة والمواساة في العشرة، وكن كما قال المقنع الكندي:

إبْلِ الرجال إذا أردت إخاءهم ... وتوسمنّ فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبانة والتقى ... فبه اليدين قرير عين فاْشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلة ... فعلى أخيك بفضل حلمك فاْردد

العدل بين الأولاد:

وإن مما أرشد إليه الإسلام ورسول الإسلام العدل بين الأولاد، فقد أخرج الطبراني عن النعمان بن بشير ﵄، أن رسول الله ﷺ قال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم، كما تحبون أن يبروكم**».

وقد حمّل الإسلام الآباء والأمهات، مسؤولية التربية في أوسع حدودها وفي أوسع مراميها، وحذرهم وأنذرهم الله سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «**الرجل راع ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتها**»، وجاء: «**علموا أولادكم وأهليكم الخير وأدبوهم**» وروي: «**ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن**».

«**إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**».

الباب الثاني والعشرون

في الأمثال

موقع الأمثال من الكلام :

من الأساليب القرآنية ، ضرب الأمثال، وذلك لتقريب المعنى، فقد جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥].

للعرب من أساليب وضروب الأمثال المعبرة عن كثرة الكلام ما جعلهم يعتنون بحفظها ويذكرون قائلها ، والمناسبة التي كانت السبب الباعث لضرب ذلك المثل، وكما قيل بالمثال يتضح الحال، وقد وردت أمثال كثيرة في القرآن الكريم، لتقريب المعنى، وأخذ العبرة، وقد حذا الرسول الكريم ﷺ إلى توضيح بعض المواقف تعريضاً لجلاء فكرة ما، أو تقريباً لبعض الأمور، وترغيباً لعمل الخير، أو تنفيراً للابتعاد عن الظلم وهكذا.

وقد أولع كثير من الخطباء والشعراء في العصر الجاهلي، وعبر العصور الإسلامية بضرب الأمثال، وقد اعتنى كثير من العلماء بجمع الأمثال، وصنفت كتب كثيرة، وما ذلك إلا لما لهذا الفن من الفوائد العظيمة على مستوى الطبقات.

ولعل كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل، أحمد بن محمد النيسابوري، المعروف بالميداني، من أجل الكتب التي صنفت في هذا الفن، وحسبه في ذلك شهادة معاصريه، على فضل السبق عليهم فضلاً على من جاء بعدهم.

وقد وصف الميداني هذا الفن بقوله: الحمد لله الذي بدأ خلق الإنسان من طين، وجعله ذا غور بعيد وشأو بطين، يستنبط الكامن من بديع صنعته بذكاء فطنته، ويستخرج الغامض من جليل فطرته بدقيق فكرته، غائصاً في بحر تصرفه على درر معان، أحسن من محسن معان (يقصد بلد في بادية الشام ،تعتبر من أحسن البلدان)، وأبهج من نيل أمان في ظل صحة وأمان، مودعاً إياها أصداف ألفاظ، أخلب للقلوب من غمزات ألحاظ، وأسحر للعقول من فترات أجفان نواعس أيقاظ، ناظماً من محاسنها عقود أمثال يحكم أنها عديمة أشباه وأمثال تتحلّى بفرائدها صدور المحافل والمحاضر، وتتسلّى بشواردها قلوب البادي والحاضر، وتقيّد أوابدها في بطون الدفاتر والصحائف، وتطير نواهضها في رؤوس الشواهق وظهور التنائف.

فهي تواكب الرياح النكب في مدارج مهابها، وتزاحم الأراقم الرقش في مضائق مدابها، وتحوج الخطيب المصقع، والشاعر المفلق إلى إدماجها وإدراجها في أثناء متصرفا تها وأدراجها لاشتمالها على أساليب الحسن والجمال، واستيلائها في الجودة على أمد الكمال، وكفاها جلالة قدر، وفخامة فخر، أن كتاب الله عز وجل، وهو أشرف الكتب التي أنزلت على العجم والعرب، لم يقرَّ من وشاحها المفضل ترائب طواله ومضله، ولا من تاجها المرصع مفارق مجله ومفصله.

الرسول وضرب الأمثال:

وإن كلام نبيه ﷺ، وهو أفصح العرب لساناً، وأكملهم بياناً وأرجحهم في إيضاح القول ميزاناً، لم يخل في إيراده وإصداره، وتبشيره وإنذاره من مثل يحوز قصبة السبق في حلبة الإيجاز، ويستولي على أمد الحسن في صنعة الإعجاز.

وقد جاء في الشعر العربي الجاهلي كثير من الأمثال،فمن ذلك قول أمرىء القيس أمير شعراء الجاهلية في معلقته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطّى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيا لك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

كأن الثريا علقت في مصا مها ... بأمراس كتان إلى صم جندل

الباب الثالث والعشرون

في مواقف النساء

من مواقف الشرف:

لقد كانت المرأة العربية في العصر الجاهلي مثال الزوجة الصالحة ، تحفظ شرف الرجل، وتحافظ على ماله، وتعينه على أمور الحياة، وامتازت المرأة العربية عن غيرها بحرصها الشديد على أن يكون البيت مريحاً للنفس، مطمئناً للقلوب ،لا تسمع زوجها من الكلام ما يكره سماعه ولا تدع عينه ترى ما يستكره.

ومن هنا كان الرجال يقدرونها يعززونها، وقد كانت لهن مواقف عظيمة مشهورة، ومن ذلك فكرة إحداهن لإطفاء نار الحرب التي ظلت مستعرة نحواً من أربعين سنة بين قبيلتي عبس وذبيان، ولم يفكر في إطفائها إلا بما كان لها من المكانة العالية وحسن الرأي، وجمال الأحدوثة.

حصافة امرأة:

روي أن بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لام الطائية، كانت إحدى ربَّات الحصافة والبلاغة، والعقل والرأي السديد، والفضل في العصر الجاهلي، فسمع الحارث بن عوف سيد العرب بها وبجمالها وحصافتها، فذهب الحارث مع غلامه، وخطبها من أبيها أوس بن حارثة، فأنعم عليه وأصلحت أمها من شأنها، وضربت قبة فنزل بها الحارث بن عوف.

فلما هيئت بهيسة وأدخلت على الحارث بن عوف، فلم يلبث إلا هنيهة، ثم خرج فقال له غلامه : أفرغت من شأنك؟. قال الحارث بن عوف: لا والله لما مددت يدي إليها، قالت: مه، أعند أبي وأمي وإخوتي، هذا والله ما لا يكون.

فأمر الحارث بن عوف بالرحلة، فرحلا بها، وسار ما شاء الله، وقال الحارث لغلامه : تقدم، فتقدم الغلام، وأرادها الحارث بن عوف، فقالت له: أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة، لا والله حتى تأتي قومك وتنحرالجزور وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل مثل ما يعمل لمثلي.

فلما لحق الحارث بن عوف بالغلام، سأله الغلام: أفرغت من شأنك؟ فقال الحارث : لا والله وأخبره بما قالت بهيسة، فقال الغلام: والله إني لأرى همة وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة.

ثم رحلا حتى وصلا البلاد، فأحضر الحارث بن عوف الإبل والغنم، ثم دخل عليها وخرج مسرعاً إلى غلامه، فقال له الغلام: ما أسرعك مخرجاً أفرغت من شأنك؟.

قال الحارث بن عوف: لا فقد قالت لي: لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك؟ فقلت لها : فماذا يكون؟ وماذا أفعل يا ٱبنة أوس؟.

قالت: أخرج إلى هؤلاء القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك شيء مما ترجوه، فخرج الحارث بن عوف المري وغلامه، وهرم بن سنان، وأتوا القوم المتحاربين، ومشوا فيما بينهم بالصلح ، فاصطلحوا ودفعوا الديات ثم رجع الحارث بن عوف فدخل بها فرزق منها البنين والبنات، وتوجت زوجها بتاج الشرف والفخار، وخلّدت ذكره على مر الدهور والأعوام، وأثبتت أنها من ذوات العقل والفضل والفخار.

فأين نحن اليوم من ذلك الموقف العظيم؟ امرأة تقف ذلك الموقف في عصر كثر فيه الظلم ، وكان الناس على شفا حفرة من النار، ومع ذلك استطاعت بحسن رأيها وموقفها الحازم الصائب، أن تكون سبباً في حقن الدماء بين قبيلتين من قبائل العرب ،هما قبيلتا عبس وذبيان، فللّه دّر ذلك المنبت النبيل، وذلك الشرف العظيم.

أليست نساء اليوم لها أصول إلى ذلك الشرف ،وقد تهيأت لهن الأسباب للارتقاء بما أنعم الله به عليهن من نعمة الإيمان، ووسائل العلم، وباب جهادهن باب واسع في تربية أولادهن وبناتهن، وأن يتخلّقن بأخلاق الإسلام من الصدق والأمانة ، والإخلاص في العمل والمحافظة على أداء الفرائض في أوقاتها ، بإخلاص لا يشوبه رياء ولا سمعة. وأن يشغلن بما فيه رضاء الله سبحانه وتعالى، وأن يحافظن على الأمانة أمانة الشرف وأمانة الأولاد، في غرس المحبة والاحترام والتخلق بأخلاق الصالحين بعد القدوة الحسنة برسول الله ﷺ.

الباب الرابع والعشرون

في الفراسة والذكاء

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [سورة الحجر: ٧٥] وجاء في الحديث النبوي الشريف، فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله**» أخرجه البخاري والترمذي.

العصا من هذه العصيَّة:

وجاء في مجمع الأمثال للميداني الجزء الأول صفحة ٤٤ المثل: إن العصا من تلك العصية) رقم ٣٢، وقال المفضل الضبي: أول من قال هذا المثل: الأفعى الجرهمي حكيم العرب في زمانه، وذلك أن نزار بن معد بن عدنان لما حضرته الوفاة جمع بنيه مضر وإياداً وربيعة وأنماراً، فقال: يا بنيّ هذه القبة الحمراء، وكانت من أدم، لمضر. وهذا الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة، وهذه الخادم وكانت شمطاء لإياد، وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون، فأتوا الأفعى الجرهمي، ومنزله بنجران.

تنفيذ وصية الوالد:

فتشاجروا في ميراثه، فتوجهوا إلى الأفعى الجرهمي، فبينما هم في مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلإ قد رعي، فقال: إن البعير الذي رعى هذا لأعور، وقال ربيعة: إنه لأزور، وقال إياد: إنه لأبتر، وقال أنمار: إنه لشرود.

فساروا قليلاً، فإذا هم برجل ينشد جمله، فسألهم عن البعير، فقال مضر: أهو أعور؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال ربيعة: أهو أزور؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال إياد أهو أبتر؟. قال صاحب الجمل: نعم. قال أنمار: أهو شرود؟ قال صاحب الجمل: نعم.

صاحب الجمل:

هذه والله صفة جملي، فدلوني عليه، قالوا: والله ما رأيناه، قال: هذا والله الكذب. وتعلّق صاحب الجمل بهم، وقال: كيف أصدقكم أنكم لم تروا جملي وأنتم تصفونه أصدق وصف، فسار الرجل معهم حتى وصلوا نجران، فلما نزلوا

نادى صاحب الجمل: إن هؤلاء القوم أخذوا جملي ووصفوا لي صفاته، ثم قالوا: لم نره فاختصموا إلى الأفعى الجرهمي، وهو حكيم العرب.

فقال الأفعى الجرهمي: كيف وصفتموه ولم تروه؟. قال مضر: رأيته رعى جانباً وترك جانباً، فعلمت أنه أعور. وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى غير ثابتة، فعلمت أنه أزور، لأن أثره الثاني أفسده لازوراره.

وقال إياد :عرفت أنه أبتر باجتماع بعره، ولو كان ذيالاً لمصع به، وقال أنمار: عرفت أنه شرود لأنه كان يرعى في المكان الملتف نبته، ثم يجوزه إلى مكان آرق منه وأخبث نبتاً، فعلمت أنه شرود.

حينئذ قال الأفعى الجرهمي للرجل : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم الأفعى من أنتم؟ فأخبروه، فرحّب بهم ثم أخبروه بما أقدمهم إليه.

أقوال الإخوة الثلاثة :

فقال : أتحتاجون إليّ وأنتم كما أرى؟. ثم أنزلهم فذبح لهم شاة وأتاهم بخمر، وجلس لهم الأفعى الجرهمي بحيث يسمع كلامهم ولا يرى مكانه، فقال ربيعة: لم أر كاليوم لحماً أطيب منه لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة، فقال مضر: لم أر كاليوم خمراً أطيب منه لولا أن حبتها نبتت على قبر، وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً أسرى منه لولا أنه ليس لأبيه الذي يدعى له. وقال أنمار: لم أر كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا من كلامنا ، وكان كلامهم بإذنه.

فقال الأفعى الجرهمي: ما هؤلاء إلا شياطين، ثم دعا القهرمان فقال: ما هذه الخمرة؟ وما أمرها؟. قال المسؤول: هي من حبة غرستها على قبر أبيك لم يكن عندنا شراب أطيب منه، وقال للراعي : ما أمر هذه الشاة؟.

قال الراعي: هي عناق أرضعتها بلبن كلبة، وذلك أن أمها كانت قد ماتت ولم تكن في الغنم شاة ولدت غيرها، ثم أتى أمه فسألها عن أبيه، فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال، وكان لا يولد له فيذهب الملك، فأمكنت من نفسي ابن عم له كان نازلاً عليه ، فخرج الأفعى الجر همي إليهم.

تفسير كلام الوالد:

وقال : إليكم تفسير كلام أبيكم في قسمة الميراث فيما يلي:

فيقصد : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر،فذهب بالدنانير والإبل والحمر فسمي (مضر الحمراء) لذلك.

وقال: وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود، فله كل شيء أسود، فصارت لربيعة الخيل الدهم فيقال: (ربيعة الفرس).

وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصارت له الماشية البلق من الحلق والنقد، فلذا سمي (إياد الشمطاء، وقضي لأنمار بالدراهم،وبما فضل، فسمي لذلك (أنمار الفضل).

فرجعوا من عنده على ذلك، ورضوا بحكمه، فقال الأفعى الجرهمي إن العصا من العصية، وإن خشيناً من أخشن، ومساعدة الخاطل تعدّ من الباطل، فأرسلها مثلاً وخشين وأخشن: جبلان أحدهما أصغر من الآخر، والخاطل الجاهل والخطل في الكلام اضطرابه.

فوائد الفراسة:

إن الفراسة هي الأخذ بالسيماء، والعلامات والإشارات، وقرائن الأحوال في إصدار حكم، أو إطلاق وصف على شخص ما، فتظهر النتيجة وفق الحكم أو الوصف، ولكن لذلك رجال لهم من الفطنة والفراسة ما ليس لغيرهم، كما مرّ بنا في خبر أبناء نزار بن معد بن عدنان مع الأفعى الجرهمي.

وللفراسة فوائد في حلّ كثير من المسائل العويصة،وتفريج الأزمات وقد يلجأ إليها القاضي الزكن، عند تأزّم الأمور، واختلاط الدلائل واشتباه القرائن، فلا يظهر وجه الصواب، وإحقاق الحق في حادثة ما، التي يراد إصدار حكم صحيح صريح بشأنها.

ومن ذلك ما يروى، أن يتيما كان في بني إسرائيل يسمى (دانيال) فقد أباه وأمه، وليس له قريب يتولى كفالته، والإنفاق عليه وتربيته ، فضمته امرأة وكفلته، وكانت تلك المرأة من أجمل نساء زمانها في بني إسرائيل، وكانت حصيفة عاقلة مهيبة.

وكانت تدخل على الملك من أجل تقديم النصح ، فأحبّها الملك لما علم من محضها النصح، فصارت محظية لدى الملك، يستمع إليها ويقبل مناصحتها، فحسدت من أجل ذلك، وتآمر عليها بعضهم ولفّقوا لها تهمة الزنى .

وكان للملك قاضيان أحبّا المرأة ودفعهما حبّهما للمرأة أن يقوما بمراودتها عن نفسها، فأبت لأنها امرأة عاقلة عفيفة ، فتآمرا عليها وشهدا عليها زوراً وبهتاناً عند الملك بأنها بغي ، ويجب محاكمتها بتهمة الزنى .

فدخل الملك من ذلك أمر عظيم، واشتّد غمّه، وكان بها معجباً لرزانة عقلها، وتقديم نصحها للملك، ولكن ماذا عساه أن يعمل لدرء هذه التهمة بالشبهات،فلثقته قَبِلَ حكم القاضيين برجم المرأة، فوافق على تنفيذ حكم الرجم على المرأة، وأصدر أمره بتنفيذ الحكم بعد ثلاثة أيام ليعلم الناس، ويحضروا وقت تنفيذ حكم الرجم، فليحضر منهم القاصي والداني لأخذ العبرة ويكون ذلك ردعا لمن تسوّل له نفسه اقتراف جريمة الزنى .

فأمر الملك منادياً ينادي في البلاد، إن الملك يطلب منكم يوم كذا حضور تنفيذ حكم الرجم، على فلانة بنت فلان الفلانية بعد أن شهد القاضيان عليها بارتكاب جريمة الزنى ، فضجّ الناس وكثر القيل والقال حول الموضوع ، إذ خامرهم الشك أن تكون المرأة التي عرفها الناس بما فيهم الملك، بالعفة والترفع عن سفاسف الأمور .

وقال الملك لكاتم سره وموضع ثقته، إنني لا أخفي عليك ينتابني شك في شهادة القاضيين، فهل عندك ما يدفع ذلك عن تنفيذ الحكم؟ .

فقال الرجل وماذا عساي أن أعمل وثقة الناس في القاضيين يدفع كل احتمال للوصول إلى وجود أي سبب قد يدفع القاضيَيْنِ إلى تلفيق مثل هذه الشهادة .

ذكاء يظهر الحقيقة :

فخرج الرجل كاتم سرّ الملك، من عند الملك يفكّر في الأمر، وهو يتجول في البلد، رأى أولاداً صغاراً يلعبون، يتزعّمهم اليتيم (دانيال)، وهو لا يعرفه، فقال اليتيم (دانيال) للأولاد تعالوا نشكّل محكمة، نحاكم فيها المرأة البغي فأنا أمثل الملك، وأنت يا فلان تمثل المرأة المتهمة، وأنت يا فلان تمثل القاضي فلاناً الشاهد الأول،

وأنت يا فلان تمثل القاضي فلان الشاهد الثاني،ثم قال للأولاد الآخرين أنتم جنود الملك، واتخذ سيفاً من قصب، وقال: خذوا بهذا القاضي إلى المكان الفلاني، واتركوا هذا القاضي للسؤال ففعلوا ما أمر به، ففرق بين الشاهدين، وكاتم سرّ الملك يتابع ما يدور بين الأولاد، في مداولة المحاكمة برئاسة الغلام (دانيال).

ويحكى أن أول من فرق بين الشهود هو اليتيم (دانيال) الذي مات أبوه وأمه، وكفلته المرأة العاقلة الحسناء المتهمة بشهادة قاضيي الملك.

طلب (دانيال) الشاهد الأول ، موجها إليه قوله: قل الحق، فإن لم تفعل قطعت عنقك بهذا السيف، بأي شيء تشهد على المرأة؟، فقال القاضي (الشاهد الأول): أشهد أنها بغت، قال له (دانيال): متى كان ذلك؟ قال في يوم كذا وكذا، قال (دانيال) : مع من كان ذلك؟ قال الشاهد : مع فلان بن فلان، قال (دانيال) : في أي مكان صار ذلك؟ فقال الشاهد في المكان الفلاني.

ثم لما تمّ استجواب الشاهد الأول، ودونت أقواله، طلب (دانيال) إرجاعه إلى مكانه الأول.

ثم طلب (دانيال) من الجنود إحضار الشاهد الثاني لأخذ أقواله، فشرع (دانيال) في استجوابه، وبعد أخذ أقواله،وقورنت باعترافات الشاهد الأول، تبين أن التغاير في أقوالهما، والاختلاف والتباين، يكون لصالح المتهمة وأن الاتهام الذي اتهمت به المرأة الصالحة الحسناء لا أساس له من الصحة، وبالتالي وبناء على اختلاف أقوال الشاهدين، فإن المرأة بريئة مما اتهمت به.

ولما سمع كاتم سر الملك ما دار بين الأولاد، من مداولات في المحكمة الصورية وماتوصل إليه (دانيال) من اختلاف أقوال الشاهدين، وظهور براءة المرأة الحصيفة، ذهب إلى الملك يزفّ له البشارة، وأن ما قام به الأولاد بتشكيل المحكمة الصورية برئاسة (دانيال)، ومتابعة مداولات المحكمة، وصدور الحكم ببراءة المتهمة.

على الباغي تدور الدوائر:

شكّل الملك محكمة برئاسته، طبقا للمحكمة التي شكّلها الغلام: (دانيال) وأرسل إلى القاضيين يطلب حضورهما، فلما وصلا،فرّق الملك بينهما، وشرع

في استجوابهما، فوجد تضارب أقوالهما واختلاف شهادتهما، علم أن القاضيين تآمرا على المرأة ظلماً وحسداً،وأن المرأة بريئة براءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

وحينئذ أمر الملك منادياً ينادي في الناس أن يحضروا تنفيذ حكم الإعدام على القاضيين اللّذين قذفا المرأة العاقلة الناصحة بالزنى ظلماً وعدواناً وحسداً من عند أنفسيهما وكان الفضل يرجع إلى محكمة (دانيال) الصبيانية، فلولا ما قام به اليتيم (دانيال) من تفريق بين الشاهدين، لنفذ حكم الرجم في المرأة البريئة، ولكان ذلك سبباً لإزهاق الأرواح، وقتل الأبرياء.

فراسة عضد الدولة:

ومما يروى عن فراسة عضد الدولة: أن رجلا قدم إلى بغداد في طريقه إلى حج بيت الله الحرام، وكان عنده عقد راغباً في بيعه، ولكن لم يجد الثمن الذي أراد بيعه به، يساوي ألف دينار، فاجتهد في بيعه فلم يوفق ،فذهب إلى عطار موصوف بالخير والصلاح، فأودعه عنده، ثم ذهب إلى الحج، ولما رجع الرجل من حجّه جاء إلى العطار وقدّم له هدية متواضعة، وطلب عقده الذي تركه عنده أمانة.

فلما قدّم الرجل الهدية إلى العطار،أخذ يسأله ويوهمه أنه لا يعرفه: من أنت؟. فقال الرجل: أنا صاحب العقد الذي أودعتك إيّاه، فغضب العطار على الرجل ودفعه عن دكانه ،وقال : تدّعي أنك تركت عقداً عندي؟.

فاجتمع الناس يدافعون عن الرجل العطار، قائلين: ويلك يا حاج هذا رجل خيروصلاح، أما وجدت من تدّعي عليه، إلا هذا الرجل الأمين الصالح في البلد.

فتحيّر الرجل الحاج، وتردد إليه مراراً وتكراراً، فما أرعوى الرجل العطار، ولم يحصل الرجل الحاجّ الغريب إلاّ الشتم والضرب، واقترح عليه رجل أن يذهب إلى أميرالمؤمنين عضد الدولة، فله أساليب في الفراسة، فأعرض عليه أمرك مع هذا العطار،لعله يعمل لك شيئاً في استرجاع عقدك.

فكتب قصته ورفعها إلى أميرالمؤمنين عضد الدولة،ولما وصلت الرسالة إلى عضد الدولة طلبه في الحال، وسأله عن قصته مع العطار، فقال عضد الدولة،

اذهب إلى العطار بكرة واقعد على دكته،فإن منعك من القعود فاقعد على د كة تقابله طول النهار، ولا تكلمه، وافعل ذلك ثلاثة أيام، وسأمرعليك في اليو م الرابع، وأقف وأسلم عليك، فلا تقم لي ولا تزدني على ردّ السلام، وجواب ما أسألك عنه، فإذا انصرفت فأعد عليه ذكر العقد، ثم أخبرني ما يقول لك فإن أرجعه إليك فأتني به.

فذهب الرجل الحاج إلى دكان العطار ليجلس فمنعه،فجلس على دكة تقابله ثلاثة أيام، وفي اليو م الرابع مرّ أمير المؤمنين عضد الدولة في موكبه، فلما رأى عضد الدولة الرجل الحاجّ الغريب وقف وقال: السلام عليكم، فقال الرجل: وعليكم السلام ولم يتحرك من مكانه ولم يقم، فقال عضد الدولة: يا أخي تقد م البلد ولا تأتي إلينا، ولا تعرض حوائجك علينا، فقال الرجل كما اتفّق له من الرّد على تساؤلات عضد الدولة، والرجل بناء على طلب عضد الدولة، لم يقف ولم يتحّرك، وعضد الدولة واقف يحتفي بالرجل، والرجل لا يبادله الحفاوة والتقدير، ولما رأى العطار موقف عضد الدولة والحفاوة التي أبداها نحوالرجل، وكأن عضد الدولة يعرف الرجل معرفة سابقة، فكاد العطار أن يغمى عليه خوفاً وفرقاً من أن تصل قصة العقد إلى عضد الدولة.

لقد فعل الرجل الغريب الحاجّ ما أمره به عضد الدولة،وبحضورالعطار وإيهام العطار بأن الرجل على معرفة سابقة وصلة وثيقة بعضد الدولة، فخاف الرجل العطار أن يفتضح أمره لدى عضد الدولة، ويدفع الثمن غالياً.

ولما مرّ عضد الدولة في موكبه،وقف ليسلم على الرجل الحاج الغريب ورد الرجل السلام وهو جالس، وكأنه أعلى قدراً من عضد الدولة، وسؤال عضد الدولة الرجل، وجواب الرجل على أسئلة الأمير،ولما انصرف عضد الدولة التفت العطار إلى الرجل بدافع الخوف والانفضاح.

فقال العطار للرجل الحاجّ الغريب متلطفاً علىغيرعادته: ويحك يا رجل متى أودعتني عقدك؟ وفي أي شيء كان ملفوفاً؟ فذكرني بشيء من أوصافه لعلّي أتذكره، فقال الرجل الحاج: من صفته كذا وكذا.

فقام العطار كأنه يفتش من مكان إلى مكان في زوايا دكانه، ثم عمد إلى جرة في إحدى زوايا الدكان فنفضها فوقع العقد على الأرض،فقال العطار للرجل: أرجو المعذرة، فلو لم تذكرني بأوصافه ما تذكرت، فهذا عقدك خذه بارك الله لك فيه، واعذرني.

ولما استرجع الحاج عقده، فقال الرجل لنفسه: لا أظنّ أن عضد الدولة يهمه استرجاعي للعقد من العطار، ولكن من الناحية الأدبية أَوْلَى أن يعرف عضد الدولة، ويتأكّد بأنني استلمت العقد كاملاً.

فذهب صاحب العقد الحاجّ إلى عضد الدولة ،فأعلمه بذلك ، فبعث عضد الدولة بالعقد مع الحاجب إلى دكان العطار، فعلّق العقد في عنق العطار وصلب أمام دكانه، ونودي عليه، هذا جزاء من استودع شيئاً فجحده، فلما انقضى النهار وعلم الناس أمر العطار والعقد والرجل الحاجّ، أخذ الحاجب العقد فسلّمه إلى صاحبه الحاجّ، وقال له: إذهب به راشداً.

الأمير المهلبي والأعرابي:

ودخل أعرابي يُرَى عليه أثر السفر أشعث أغبر على داود بن يزيد بن أبي حاتم المهلبي، وكان أحد الأمراء الشجعان العقلاء، وكان إذا حضر الطعام يتقدّم بصرف البوابين ولا يمنع أحداً من الوصول إلى طعامه، فلما فرغ من الطعام وثب الأمير قائماً وأومأ إلى الأعرابي، وقال له: من أنت يا فتى؟ قال الأعرابي: شاعر قصدك بأبيات من الشعر، قال داود: مهلاً قليلاً ثم دعا بقوس فأوترها أي جعل لها وتراً، وأومأ إلى الأعرابي وقال له: قل فإن أنت أحسنت خلعت وأجزلت ، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع في أي موضع يقع فيه ، فتبسم الأعرابي وقال:

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... ولا حدثاناً إن شددت به أزري
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وملك سليما ن وصدق أبي ذر
فتى مهرب الأموال من جود كفه ... كما يهرب الشيطان من ليلة ا لقدر
فقوسك قوس الجود والوتر والندى ... وسهمك فيه الموت فاْقتل به فقري

فضحك داود بن يزيد المهلبي ورمى بسهمه مع القوس من يده، فقال: يا فتى العرب بالله عليك هل كان ذكر القوس في الأبيات؟

فقال الأعرابي: لا والله ما كان ذكر القوس ضمن الأبيات التي أعددتها، ففرح الأمير بذلك وقال: يا فتى العرب، بالله عليك أيّما أحبّ إليك أعطيك على قدرك أم على قدري؟

فقال أيها الأمير: اعطني على قدري لا على قدرك، قال: كم على قدرك؟ قال الأعرابي: مائة ألف درهم فأمر له بها.

ثم قال له: ما منعك أن تقول على قدري؟ فقال الأعرابي: أيها الأمير أردت أن أقول ذلك، فإذا الأرض كلها لا تساوي قدر الأمير، فطلبت على قدري، فقال الأمير: لله درك والله إن نثرك لأحسن من نظمك، وأمر له بمائة ألف درهم ثانية، وطلب منه أن يكرّر زياراته اليه.

إذا اشتد الأمر فأبشر:

وهذا موقف شبيه بموقف صاحبنا تميم بن جميل الخارجي، جاء في كتاب الوزراء، عن أبي العباس أحمد بن محمد بن الفرات، عن محمد بن علي بن يونس عن أبيه، أنه كان يكتب لرجاء بن أبي الضحاك، وهو بدمشق عام ٢٢٦ هـ وأن علي ابن إسحاق بن يحيى بن معاذ كان يتقلّد خلافة صول أرتكين على المعونة بدمشق، فوثب على رجاء بن أبي الضحاك فقتله، وقبض على جماعته بسبب ذلك وقال وأودعت السجن، وكان السجان جاراً، فكان يأتيني بالخبر وما يحدث أولاً بأول وساعة بساعة.

فدخل عليّ يوماً فقال: قد خرج رأس صاحبك رجاء على قناة، ثم جاءني وقال قد قتل مطببه، ثم جاءني وقال: قد قتل ابن عمّه، ثم جاءني فقال: قد قتل كاتبه الآخر.

ثم جاءني فقال: قد جاء دورك، والله يدعو بك لتقتل فقد سمعت نبأ ذلك فنالني جزع شديد لما سمعت، وخرج السجان فأقفل الباب عليّ، فدعي بي فدافع عني، وقال: إن البيت الذي هو فيه مقفل،والمفتاح مع شريكي في العمل وسيأتي بعد قليل وبعث في طلبه.

فنالني في تلك الساعة نعاس، فرأيت في منامي كأني ارتطمت في طين كثير وكأني خرجت من ذلك الطين، وما علق بقدمي منه شيء، فٱستيقظت وتأولت الفرج ولكن بينما أنا أفكر في تلك الرؤيا إذا بي أسمع حركة مقبلة إليّ شديدة، فما انتابني شك أنها جاءت لطلبي وقتلي، فانتابني جزع أشدّ من الأول.

فدخل السجان وقال: أبشر جاء الفرج فقد أخذ الجند علي بن إسحاق فحبسوه، فلم ألبث إلا يسيراً حتى جاءني الجند فأخرجوني، وذهبوا بي إلى مجلس علي بن إسحاق الذي كان جالساً فيه، فرأيت أمامه دواة وكتاباً، قد كتبه إلى المعتصم في تلك الساعة، يخبره بقتله رجاء،وجعل له ذنوباً ولنفسه معاذير وسماه رجاء المجوسي والكافر، فتناولت الكتاب ومزّقته، وكتبت الخبر كما يجب إلى المعتصم، فحبس علي بن إسحاق طويلاً، ثم أظهر الوسواس، وتكلّم فيه أحمد ابن أبي دؤاد فأُطلِقَ.

أهذه فراسة أم ذكاء؟

قال أبو السمراء: يحكى عن فراسة أعرابي، قال: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق، إذا نحن بأعرابي قد اعترض سبيلنا، فإذا هو شيخ فيه شيء من الفراسة والذكاء على بعير له أورق، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، وكان معنا إسحاق بن إبراهيم الرافقي، وإسحاق ابن أبي ربعي، ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره دواباً وأجود لباساً من الأمير.

فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا نظر المستغرب، فقلت: يا شيخ قد حدقت فيّ النظر وألحت فيّ الأثر، أعرفت شيئاً من أمرنا أم أنكرت ما لم ينكر؟ فقال الأعرابي: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوء رأيته فيكم ولكني رجل حسن الفراسة في الناس، جيد المعرفة بهم، فأردت أن اختبر فراسته وادعاءه، فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي، فقلت: ما تقول في هذا؟ فأنشد قائلاً:

أرى كتاباً داهي الكتابة بيّن ... عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن أنه ... عليم بتقسيط الخراج بصير

ثم نظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي، فقال:

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبناً وبخلاً وشيمة تخبّر عنه أنه لوزير

ثم استمر في الإنشاد بعد أن نظر إليّ نظر تفحّص:

وهذا نديم للأمير ومؤنس يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً فبعض نديم مرة وسمير

ثم نظر إلى الأمير عبد الله بن طاهر وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عصم الإسلام منه بذائد به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الإله بن طاهر لنا والد برّ بنا وأمير

فوقع ذلك الشعر من الأعرابي في قلب الأمير عبد الله بن طاهرأحسن موقع فأمر له بخمسمائة دينار،وطلب منه أن يصحبه، فاّعتذرالأعرابي عن ذلك.

فراسة طاهر بن الحسين:

كان طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي، أكبر من اشتهر في عهد أمير المؤمنين المأمون بقيادة الجيوش، يمن النقية وبعد الصيت، فهو الذي وطد الحكم للمأمون، لما كان المأمون في مرو، فانتدب طاهراً للزحف إلى بغداد، فهاجمها وظفر بالأمين فقتله عام ١٩٨ هـ ، وعقد البيعة للمأمون، فولاه شرطة بغداد، ثم ولاه الموصل وبلاد الجزيرة والشام، ثم ولاه خراسان سنة ٢٠٥هـ ، وكان في نفس المأمون شيء عليه لقتله أخاه الأمين بغير مشورته.

فلما استقر طاهر بن الحسين بخراسان انقبض عن المأمون، وأخذ حذره، فأعد له المأمون وصيفاً، وأدبه وعلمه كثيراً من فنون العلم، ثم أهداه إليه مع

ألطاف كثيرة وطرف وهدايا من العراق، وعهد المأمون إلى الوصيف بأن يخدم طاهر بن الحسين على أن يقوم بسمه أثناء الخدمة، وأعطاه سم ساعة، ووعده بمال كثير بعد تنفيذ الخطة.

فلما وصل الوصيف خراسان، ودخل على طاهر بن الحسين ،وأوصل الهدايا التي أرسلها أمير المؤمنين المأمون قبلها طاهر بن الحسين، وشكر أمير المؤمنين على ذلك، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من رغد العيش، وتركه شهراً كاملاً فبرم الوصيف بمكانه ، فكتب إليه قائلا:

(يا سيدي إن كنت تقبلني فاقبلني، وإلا فردني إلى أمير المؤمنين، فأرسل إليه وأمر بإدخاله، فلما انتهى إلى باب المجلس الذي فيه طاهر بن الحسين أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لبد أبيض، وليس على فراش وثير فقرع رأسه بالعصا، وكان بين يديه مصحف منشور، وسيف مسلول فقال:

لقد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك، فإنا لا نقبلك،وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، وليس عندي جواب أكتبه إلا ماترى من حالي،فأبلغ أمير المؤمنين السلام، وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها.

فراسة المأمون:

فلما قدم الوصيف على المأمون، وأخبره بما كان من أمره، ووصف له حال طاهر بن الحسين، فشاور المأمون وزراءه وأعيان الدولة في ذلك، وسألهم عن ما يرمز إليه طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي،فلم يعرف أحد شيئاً عن ذلك.

فقال المأمون لكنني قد فهمت ما يرمز إليه: أما قرع رأسه وجلوسه على اللبد الأبيض، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل، وأما المصحف المنشور فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا، وأما السيف المسلول فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فالسيف هو الحكم بيني وبينك، أغلقوا عنا باب ذكره، فنحن في غنى عن إثارة الفتنة، فتركه المأمون وشأنه حتى مات.

فراسة النبي سليمان:

فمن مواقف الفراسة والدهاء: ما رواه أبو هريرة ﷺ، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خرجت امرأتان ومعهما صبيان، فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصمتا في الصبي الباقي إلى النبي داود عليه السلام، فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة فحكم به للكبرى منهما، فاختصما إلى النبي سلميان بن داود عليهما السلام**».

فقال النبي سليمان بن داود: ائتوني بسكين أشقّ الغلام نصفين لكل منكما نصف، فقالت الصغرى: أتشقّه يا نبيّ الله؟ قال النبيّ سليمان: نعم. قالت: لا تفعل، ونصيبي فيه للكبرى. حينئذ قال النبي سليمان عليه السلام للصغرى: خذيه فهو ابنك وقضى به للصغرى لما رأى من رحمتها به وشفقتها عليه. أخرجه الشيخان والنسائي.

فطنة ملك الروم:

ومن ذكاء وفطنة قيصر الروم في زمان معاوية بن أبي سفيان، ما يروى أنه لما كبر معاوية بن أبي سفيان اعتراه أرق شديد، فكان لا ينام إلا قليلا من الليل، وكان كلّما أتى مضجعه لينام أيقظته النواقيس المنبعثة من كنائس الروم في دمشق الشام.

وفي صباح يوم من الأيام حينما دخل عليه الناس، قال: يا معشر العرب هل فيكم فتى يفعل ما أطلبه منه وأعطيه ثلاث ديات أعجلها له، وديتين إذا رجع من مهمته؟ فقام فتى شهم شجاع من قبيلة غسان، فقال: أنا يا أمير المؤمنين، فما هو المطلوب؟. قال معاوية: تذهب بكتابي هذا إلى ملك الروم قيصر، فإذا صرت أمامه على بساطه أذّنت، فقال الفتى له: ثم ماذا بعد ذلك؟. قال معاوية: تلك هي رسالتي وذلك هو طلبي.

فقال الفتى الغساني: لقد كلّفت صغيراً، وأتيت كبيراً، فكتب معاوية الرسالة وسلّمها له، فخرج الفتى بالرسالة من عند معاوية، فلمّا وصل الفتى إلى قيصر ملك الروم سلّم الرسالة إليه، وأذّن أمام الملك،وعلى بساطه، فارتاع البطارقة، وسلّوا

سيوفهم لقتل الفتى العربي، رسول معاوية بن أبي سفيان، ففطن ملك الروم قيصر لِمَا دبرّه معاوية، فمنعهم من قتله.

ثم نادى ملك الروم الفتى، فأجلسه بين يديه، والتفت إلى البطارقة قائلاً: يا معشر البطارقة، إن معاوية رجل قد أسنّ، ونتيجة لتقدمه في السنّ أصابه الأرق، وقد آذته النواقيس بأصواتها فدبّر هذه الحيلة والمكيدة، فأراد أن نغضب على الفتى فنقتله بسبب أذانه أمامنا، فيقتل بسبب ذلك من ببلاده من قومنا على النواقيس.

فمن أجل ذلك أخلف ظنه فينا، فأكرم الفتى ولا أقتله حتى يرجع إليه سالماً غانماً مكرماً، فأكرمه ملك الروم قيصر، وأعطاه من الهدايا ما خيّب به ظنّ معاوية فلما رجع الفتى العربي إلى معاوية قال له معاوية: أوقد جئتني سالماً؟ قال الفتى العربي: نعم جئتك سالماً منهم، وأما من قبلك فلا.

لقد كان معاوية بن أبي سفيان داهية، ولكن صار ملك الروم قيصر أدهى منه، إذ فوّت عليه فرصة الانتقام من الروم الموجودين في دمشق، لقد أذَّن الفتى العربيّ أمام قيصر الروم، وظنّ معاوية بأن رسوله إلى قيصر سيقتل، وبالتالي سيكون له ما يبرّر به قتله للروم في دمشق.

من ذكاء معن بن زائدة:

يحكى أن معن بن زائدة الشيباني، بعد أن أسنّ، دخل يوماً على أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، فقال له: يا معن لقد كبرت. فقال: في طاعتك يا أمير المؤمنين، فقال: وإنك لا زلت فيك بقية، فقال معن: هي لك يا أمير المؤمنين. وأن فيك قوة يا معن، قال معن: هي على عدوك يا أمير المؤمنين.

وقال أبو جعفر المنصور يوماً لما دخل عليه معن بن زائدة الشيباني: ما أكثر وقوع الناس في قومك يا معن. فقال معن: يا أمير المؤمنين:

إن العرانين تلقاها محسَّدة ولا ترى للئام الناس حسادا

فقال لله درك يا معن

ودخل على معن بن زائدة أحد الفصحاء البلغاء يوماً، فقال له: إن لو أردت أن استشفع إليك ببعض من يثقل عليك لوجدت ذلك سهلاً، ولكني استشفعت

إليك بقدرك، واستغنيت بفضلك، فإن رأيت أن تضعني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك فافعل، وغني لم أكرم نفسي عن مسألتك، فأكرم وجهي عن ردك، فأكرمه وأحسن إليه غاية الإحسان.

فطنة الإمام عبد الوهّاب الرستمي:

يروى أنه لما توفي الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية في بلاد المغربي الأوسط (الجزائر) ١٦٠هـ، وقدم أصحاب الحلّ والعقد ولده عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً فسار سيرة والده، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وضبط الأمور بأخذ يد الظالم، وإنصاف المظلوم.

خرج عليه بعض من الذين مرضت قلوبهم، يريدون الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة غافلون، فشقّوا عصا الطاعة، يتزعّمهم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، وأظهروا الإنكار على الإمام عبد الوهّاب في توليته لبعض رجال مناصب في الدولة، وأنهم ليسوا أهلاً ولا أكفاء، في نظر الخارجين على طاعة الإمام عبد الوهّاب، مدّعين أنهم هم أولى بتلك المناصب التي أسندت إلى غيرهم وأثاروا ضجة على الإمام عبد الوهّاب، وقالوا إنه لا يصلح عبد الوهاب للإمامة، ونحن في حلّ من بيعته وطاعته، واستمالوا إليهم بعض الناس البسطاء ممن كانوا على شاكلتهم، في طلب الحياة الدنيا.

وكان الإمام عبد الوهّاب بن عبد الرحمن بن رستم، من الرجال العلماء العاملين، الذين لا يقعقع له بالشنآن، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ضرب على أيديهم وحاصرهم.

ثم إن القوم الخارجين على طاعة الإمام لم ينالوا ما رغبوا فيه، دبّروا مكيدة لقتل الإمام، ولذكاء الإمام وفطنته وشجاعته استطاع أن يكشف أمرهم ويقضي على مكيدتهم في مهدها، وملخص تلك المكيدة:

ولما رأى الخارجون عن طاعة الإمام خيبة مساعيهم وتحقّقوا عدم نجاحها، فكّروا في تدبير مكيدة تضمن لهم حصول مطالبهم، وبلوغ مآربهم، فكّروا في حبك مؤامرة للغدر بالإمام وقتله.

وقد علموا أن للإمام بيتاً خصّصه لنفسه،فيه ما يحتاج إليه من كتب وغيرها، فيخلو فيه للمطالعة والتهجّد، وتصريف أمور المسلمين، وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من العلماء المحققين، كان شغوفا بالبحث والتحقيق، ولذلك طلب أن يشترى له كتب من إخوانه المشارقة، وبعث أموالاً لذلك فاستنسخ له حمل أربعين جملاً كتباً، ولما وصلت إليه عكف على قراءتها، وبعد الانتهاء من قراءة تلك الكتب، قال: ما استفدت من قراءة تلك الكتب إلا مسألتين فقط، ولو سئلت عن تلك المسألتين، لكنت أجبت عنهما بما يقرب من الإجابة مما استفدت، وهذا يدل على علمه الواسع.

اتفق القوم الخارجون على طاعة الإمام، أن يجعلوا رجلاً في صندوق ذي قفل من الداخل، ويضعوا عنده سلاحاً، ويحمل الصندوق رجلان منهم ممن لا ريبة فيهم إلى الإمام، ويظهران للإمام أنهما مختلفان متنازعان فيه، ويطلبان من الإمام أن يحفظ الصندوق على وجه الأمانة حتى يتفقا ويعودا إليه.

وكأنهم علموا مسبقاً أنه إذا قبله الإمام ألا يضعه إلا في ذلك البيت الذي خصّصه الإمام لنفسه، محافظة على الأمانة وحرصاً عليها، فإذا أوى الإمام إلى فراشه ونام، وتيقن الرجل الذي في الصندوق أن الإمام قد نام فتح الصندوق من الداخل فخرج سالًّا السيف على الإمام، وكان المتفّق معه على تنفيذ الخطة وهو لا يعلم أنه سيكون هو الضحية.

واتّفقوا معه أنه إذا قتل الإمام يذهب إلى منارة المسجد ويؤذن فيها ليعلموا تمام مرادهم فيهاجموا حينئذ المدينة على حين غفلة من أهلها، ويحتلوا دار الإمارة، ويوزعوا أنفسهم على الأماكن المهمة، ويفرضوا أمرهم على الناس، فكان ذلك ما دبروه.

فلما جاؤوا بالصندوق إلى الإمام عبد الوهّاب، أجاب طلبهم وأمرهم بحمله إلى البيت المخصوص، ولاحظ حركاتهم عند حملهم الصندوق أنه ثقيل والرفق الذي ظهر من خلال حملهم للصندوق، وأدرك بفطنته الوقادة في الحال، أن المسألة لا تخلو من تدبير أمر، فوضعوه في المكان الذي أمرهم الإمام أن يضعوه، وبعد وضعهم للصندوق، رجعوا مستبشرين مسرورين، وظنوا أن الأمر يسير لصالحهم.

ثم بعد ذلك أقبل الإمام عبد الوهّاب يتأمل الصندوق مليًّا، وتفقده من جهاته الأربع، فلم يجد له قفلاً من الخارج، فازداد يقينا فيما ظنه أن بالصندوق أمراً ومكيدة مدبرة.

ولما جنّ الليل على الإمام، شرع فيما عوّد نفسه به من تفقّد البيت، والقراءة والتهجد، ولما حان وقت النوم عمد إلى قربة فنفخها حتى إذا امتلأت هواء ربطها ربطاً خفيفاً بحيث يخرج منها نفس خفيف، يوهم أنه نفس الإمام وهو نائم ووضعها في أحدى زوايا البيت، وغطى القبة بثوب أبيض ليرى في الظلام، وأوقد قنديلاً في زاوية أخرى، وغطاه بوعاء يحجب ضوءه عن الناظر.

وانتحى الإمام بعد ذلك جانباً من البيت، لإحياء بقية ليله بالصلاة والاستغفار، واستعد تمام الاستعداد لمواجهة الموقف، ولما أحسّ صاحب الصندوق بعدم وجود القنديل، وسكون حركة الإمام ظنّ أن الإمام قد نام، وأن الفرصة قد حان وقتها، فتح الصندوق برفق، وخرج و سيفه بيده، ووقف مصغياً إلى النفس المنبعث من القربة، ظانًّا بأنه نفس الإمام، وتخيّل بياض الثوب المغطى به القربة أن ذلك هو الإمام عبد الوّهاب، فحمل الرجل بسيفه حملة البطل الشجاع وقدّ القربة نصفين، وعند ذلك كشف الإمام الغطاء عن القنديل، فبهت الرجل وأدركه الفشل وسقط في يديه، فبادره الإمام بسيف وقدّه نصفين، ولفه في ثوبه ورده في الصندوق حفرة الخداع، وبيت الخيانة، وأتمّ الإمام بقية ليله بالذكر والصلاة حامداً الله على توفيقه وحفظه من كيد الكائدين، ولعمري إنها أعظم المكائد لو صادفت المرمى، وهي من أقوى الدلائل على ما كان للإمام عبد الوهّاب من الذكاء والفطنة.

ولما أصبح الصباح، ولم يقع بالمنارة أذان، وقد قضى القوم ليلتهم في سهر، تساءلوا فيما بينهم عن صاحبهم، وقالوا: إما أنه لم يفعل شيئاً، وإما أن يكون قد دارت عليه الدائرة فقتل.

ثم اتفقوا على الذهاب إلى الإمام، لأخذ الصندوق بدعوى أنهم اصطلحوا واتفقوا ولم يبق بينهم في شأنه نزاع، ولما أتوا الإمام قابلهم الإمام بكلّ بشاشة بحيث لم يفهموا منه أنه حصل له شيء، أو حصل على صاحبهم شيء، وهذا موقف يدل

على قوة الإمام عبد الوهاب وثباته، ولما سألوه استرجاع الصندوق، قال لهم هو في مكانه الذي وضعتموه فيه، فاذهبوا فخذوه، ولما حملوه وذهبوا به إلى مأمنهم فتحوه فوجدوا صاحبهم ملفوفاً في ثيابه مخضباً بدمائه، وقد صدق في قوله من قال: (من حفر حفرة لأخيه المسلم أوقعه الله فيها).

عندئذ توقع القوم بأن تآمرهم ضد الإمام، سوف يتخذ الإمام منهم موقفاً حازماً، فتأهبوا للمواجهة، وصاروا يدخلون المدينة بأسلحتهم وكثرة العدد، مظهرين الشدة، وبعث الإمام إليهم من نصحهم من بعض خواص دولته، وكان ردهم أن حمل السلاح لا يعتبر معصية أو جريمة، والمؤمن لا يفارق سلاحه وقامت حروب بينهم وبين الإمام،ثم نصر الله الإمام عليهم،وتوفي بعد أن مكث تسعة عشر عاماً في الإمامة، وبعد وفاته بايع أهل الحل والعقد ولده أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم إماماً، فسار سيرة أسلافه آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مقيماً لحدود الله، فرحم الله أولئك الأئمة وأسكنهم فسيح جناته آمين.

ذكاء الهرمزان :

ومن مواقف الذكاء والفطنة، يروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بالهرمزان أسيراً، فدعاه إلى الإسلام، فأبى أن يسلم، فأمر أمير المؤمنين بقتله، فلما عرض عليه السيف.

فقال الهرمزان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: لو أمرت لي يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظمإ، فأمر له بماء ليشرب ،فلما صار الإناء بيد الهرمزان، قال: يا أمير المؤمنين: هل أنا آمن حتى أشرب؟. فقال له أمير المؤمنين عمر: نعم أنت آمن حتى تشرب، فألقى الهرمزان الإناء من يده وأراق الماء على الأرض، وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج.

فقال له أمير المؤمنين: لك حتى أنظر في أمرك، وأمر برفع السيف عنه، فلما رفع السيف عنه، قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فلما أعلن إسلامه، قال له أمير المؤمنين عمر: ويحك أسلمت خير إسلام، فما أخّرك؟.

قال الهرمزان: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال: إن إسلامي إنما كان جزعاً وخوفاً من الموت، فقال أمير المؤمنين عمر: إن لفارس حلوماً استحقت بها ما كانت فيه من الملك، فصار عمر بعد ذلك يستشير الهرمزان في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ، ويعمل برأيه.

الباب الخامس والعشرون

في الجود والكرم

أثر الجود والكرم في النفوس:

لقد أولع العرب بالسخاء والجود والكرم، وكانوا يتفاخرون بنحر الجمال، للقرى والضيف، وصارت تلك الصفات من الأشياء المألوفة التي يتوارثها الأبناء عن الآباء، وكانوا يعدّون كثرة النحر دليلاً على السخاء والكرم، فكان الرجلان في الجاهلية يتباريان في الجود والسخاء، فيعقر هذا من إبله، وهذا من إبله حتى يعجز صاحبه، وقد ظهر هذا واضحاً في أشعارهم، فمن ذلك قول زهير بن أبي سلمى الشاعر الجاهلي الحكيم:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ... قوم لأولهم يوماً إذا قعدوا

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا ... ممردون بهاليل إذا اجتهدوا

هذه قصيدة أعشى قيس في رسول الله ﷺ:

أجدك لم تسمع وصاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا يكون كمثله ... وأنك لم ترصد لما كان أرصدا

فإياك والميتات لا تأكلنها ... ولا تأخذن سهما حديدا لتفصدا

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

وصلِّ على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

ولا السائل المحروم لا تتركنه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا

ولا تسخرن من بائس ذي ضراوة ... ولا تحسبن المرء يوما مخلدا

ولا تقربن جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا

إن من يطالع قصيدة صناجة العرب هذه، أعشى بني قيس ميمون بن قيس بن جندل، يظهر له أن الشاعر كان يعلم ما يدعو إليه الإسلام، من مكارم الأخلاق، إذا ذكر بعض ما يحثّ عليه الإسلام من التزود بزاد التقوى، يندم يوم لا ينفع الندم، وذكر ما يدعو إليه الإسلام، من أن أكل لحم الميتة حرام،

وأكل الدم حرام، وما نُحِرَ على النصب حرام، وعبادة الأوثان حرام، وحثّ على الصلوات وحذّر من عبادة الشيطان، وردّ السائل المحروم حرام، واحتقار الضعيف حرام، والزنا حرام وشرب الخمر حرام، كلّ ذلك ذكره الشاعر في القصيدة التي ذكرنا منها بعض الأبيات، ورغم ذلك مات كافراً.

الباب السادس والعشرون

في الظلم

تجاوز الحدود:

يحكى أن معاوية بن أبي سفيان، كان جالساً في مجلس بدمشق، وكان المجلس مفتح الجوانب بحيث يدخل من تلك الفتحات الهواء المنعش، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر، وقد اشتد نفح الهجير، إذ نظر فرأى رجلاً يمشي نحوه وهو يتلظى بالنار من حرّ الرمضاء، حافي القدمين، رثّ الثياب، يرى عليه أثر السفر، فالعناء والنصب بادٍ على ملامحه، فتأمّله معاوية وقال لجلسائه:

هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في هذه الساعة العصيبة؟ فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين، فقال معاوية: والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطينه، أو مستجيراً لأجيرنه، أو مظلوماً لأنصرنه، يا غلام: قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه من الدخول عليّ.

فخرج الغلام مسرعاً، والتقى بالأعرابي، فسأله: ما تريد يا أعرابي؟. فقال الأعرابي: أريد أمير المؤمنين، قال: أدخل، فدخل على أمير المؤمنين معاوية وسلّم عليه بالإمارة فرد عليه السلام، وسأله: ممن الرجل؟.

قال الأعرابي: أنا من تميم، قال معاوية: ما الذي جاء بك في هذا الوقت الشديد الحرّ؟ قال الأعرابي: جئتك مشتكياً، وبك مستجيراً، قال معاوية: ممن تشتكي، وممن تستجير، قال الأعرابي: من مروان بن الحكم، عاملك على المدينة المنورة، ثم أنشد هذه الأبيات:

معاوية يا ذا الفضل والحلم والعقل ... وذا البر والإحسان والجود والبذل

أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي ... وأنكرت مما قد أصبت به عقلي

ففرج كلاك الله عني فإنني ... لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي

وخذ لي ـ هداك الله ـ حقي من الذي ... رماني بسهم كان أيسره قتلي

وكنت أرجي عدله إن أتيته ... فأكثر تردادي مع الحبس والكبل

سباني سعدى وانبرى لخصومتي ... وجار ولم يعدل وغاصبني أهلي

فطلقتها من جهد ما قد أصابني ... فهذا أمير المؤمنين من العدل

فلما سمع معاوية إنشاده، والنار تتوقد من فِيْهِ قال: مهلاً أخا العرب، إشرح لي قصتك، وأفصح عن أمرك. قال الأعرابي: يا أمير المؤمنين، لقد كانت لي زوجة

وهي إبنة عمي، وكنت لها محباً وبها كلفاً، وهي كذلك،وكنت بها قرير العين، وطيب العيش،وكانت لي صرمة من الإبل (الصرمة ما بين العشرين إلى الثلاثين، وقيل غير ذلك) وكنت أستعين بها على قيام حالي، وإصلاح أودي ، فأصابتنا سنة ذات قحط شديد، أذهبت الخف والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً، فلما قلّ ما بيدي، وذهب حالي ومالي، بقيت مهاناً ثقيلاً على وجه الأرض، وقد ابتعد من كان يشتهي القرب مني، وازورَّ عني من كان يرغب في زيارتي.

فلمّا علم أبوها ما بي من سوء حالي، وشرّ مآلي،أخذها مني، وسألني الفراق، وجحدني وطردني، وأغلظ عليّ، فأتيت إلى عاملك على المدينة المنورة، مروان ابن الحكم مستصرخاً إليه، وبه راجياً لينصرني، فأحضر أباها، وسأله عن حالي فقال: ما أعرفه قبل اليوم.

الظلم مرتعه وخيم:

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها فليفعل، فبعث إليها الأمير مروان بن الحكم من يحضرها، فحضرت مجلسه، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب، فحمله إعجابه بها أن يصير خصماً لي ومنكراً عليّ أمري، وانتهرني وأغلظ القول وأظهر الغضب، وبعث بي إلى السجن، فوجدتني كأنني خررت من السماء في مكان سحيق لهول ما أصابني.

ثم التفت إلى أبيها، فقال له: هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار، وعشرة آلاف درهم لك؟. وأنا ضامن لك على خلاصها من هذا الأعرابي، فطمع أبوها في المال وأجابه لذلك.

فلما كان اليوم الثاني، بعث إلي وأخرجني من السجن، وجاء بجماعة وأوقفني بين يديه، ونظر إلي كالأسد متهيئاً للإنقضاض على فريسته، وقال:

يا أعرابي طلِّق سعدى، فقلت: لا أقدر على هذا، ومعنى ذلك أنك تريد إخراج الروح من الجسد، وما إن علم برفضي لطلبه حتى سلّط عليّ جماعة من غلمانه أحضرهم لتعذيبي وإرغامي على تطليقي لسعدى، فشرعوا يعذبونني بأنواع العذاب، وتحت سياط غلمانه فلم أجد بدًّا من إجابة أمره، ففعلت، ثم رجعت إلى السجن ليخلو له الجوّ، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدّتها فتزوّجها

ودخل بها ، تلك هي قصتي مع عاملك مروان بن الحكم، لذا جئتك مستجيراً بك وملتجئا إليك، فقال الأعرابي:

فـــي القلـــب مـنَي نـارُ والـنـــار فيـــها استـعارُ
والجســـم مـــني سقيـــم واللـــــون فـي اصـفـــرار
وفـــي فـــؤاديَ جـمـــر والجـمــر فـــيـــه شـرار
والعـــين تبـكـــي بشـــجـو والدمـــــع منـها غـــزار
والحـــــب داء عســيــــر فـيـــه الطـبـيب يـــحـــار
حـمـلـــت مـــنـــه عظيماً فـــمـا عليـــه اصطبـــار
فـلـــيس ليـلـــيَ لـيـــل ولا نــــهـــاري نـهـــار

وما إن انتهى من إنشاده حتى أخذته رعدة، فخرّ مغشياً عليه، وأخذ يتلوّى كالحية المقتولة، وخشينا أن يقضي نحبه، فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال :لقد تعدى مروان بن الحكم طوره فظلم متجاوزاً حدود الدين، واجترأ على حرم المسلمين، وما بهذا أمرته، ثم أقبل على الأعرابي، فقال: والله يا أعرابي ، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قطّ، ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب ما يلي:

إلى مروان بن الحكم :قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك وانتهكت حرمة من حرم المسلمين، وتعدّيت حدود الدين، وينبغي لمن كان والياً أن يغض بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذاته ، وكتب في آخره:

ركبت أمـراً عظيماً لست أعرفه أستغفرالله من جور أمـرىءٍ زانِ
قـد كنت تشبه صوفيّاً له كـتب من الفــرائض أوآيـات فـرقـانْ
حتى أتاني الفتى العذري منتحباً يشكـو إليَّ بحـق غيـر بهتان
أعطي الإله عهـوداً لا أخيس بها أولا فبرئـــت من ديـن وإيمـان
إن أنت راجعتني فيما كتبت به لأرجعنـك لحمـاً بـين عقبان
طلق سعاد وعجلـها مجهــزة مـع الكميت ومع نصر بن ذبيان
فما سمعت كما بلغت من عجب ولا فعـالك حقـاً فعـل إنسـان

ثم طوى معاوية الكتاب وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت ونصر بن ذبيان وكان يعتمد عليهما في قضاء الحوائج لأمانتهما، فأخذا الكتاب وسارا يغذّان السير إلى

المدينة المنورة، ولما وصلا المدينة المنورة، دخلا على مروان بن الحكم وسلّما إليه الكتاب ففضّه وقرأه، ثم ارتعدت فرائصه،وطلّقها في الحال وجهزها، وبعث بها إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، وكتب إليه كتاباً ختمه بالبيت التالي:

حوراء يقصر عنها الوصف إن وصفت	أقول ذلك في سر وإعلان

فلما وصل كتاب مروان بن الحكم إلى معاوية وقرأه قال:لقد أحسن في الطاعة وأطنب في الحسن في وصف الجارية، ولما رأى معاوية الجارية رأى من الحسن والجمال ما لم ير قبل ذلك، وخاطبها مستنطقاً إياها ، فوجدها من أفصح نساء زمانها، ثم قال: عليّ بالأعرابي، فأتي به وهو على غاية من سوء الحال.

فقال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان:يا أعرابي هل لك عنها من سلوة وأعوضك عنها ثلاث جوار مع كل جارية ألف دينار،وأعطيك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويعينك على صحبتهن؟.

فلما سمع الأعرابي كلام أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان شهق شهقة سقط على أثرها على الأرض، وظنّ معاوية أنه قد مات، ولما أفاق قال له معاوية: ما بالك؟، فقال الأعرابي : شرّ بال وأسوأ حال، استجرت بك من جور مروان بن الحكم لظني بعدلك، ففوجئت بجورك فبمن أستجير من جورك ثم أنشد قائلاً:

لا تجعلني والأمثال تضرب بي	كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب	يمسي ويصبح في هم وتذكار
قد شفّه قلق ما مثله قلق	وأسعر القلب مني أي إ سعار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها	وأصبح القلب عنها غير صبّار

ثم قال يا أمير المؤمنين: لو أعطيتني ما حوته الخلافة دون سعدى. فقال أمير المؤمنين معاوية: يا أعرابي إنك مقرّ بأنك طلّقتها، ومروان مقّر بأنه طلّقها، ونحن نخيرها، فإن اختارت سواك زوجناه بها،وإن اختارتك أرجعناها إليك، قال الأعرابي: أفعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ودعاها معاوية وقال لها: ما تقولين يا سعدى؟ أي أحب إليك أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه وقصوره،وخدمه وحشمه وما تصيرين إليه عنده ؟ أو مروان بن الحكم في عسفه وظلمه وجوره، وما علمت منه؟ أو هذا الأعرابي مع فقره وجوعه وسوء حاله؟ فعبرت عن رأيها بهذين البيتين:

هذا وإن كان ذا فقر وإضرار   أعز عندي من قومي ومن جاري
وصاحب التاج أو مروان عامله   وكل ذي درهم منهم ودينار

ثم قالت: والله يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلة له لحادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، والزمان ذو غير والأيام دول، والرضا بقضاء الله يزيد المؤمن إيماناً، ومن المحال دوام الحال، ويزيدني التمسك برأيي هذا هو أن لي معه صحبة طويلة لا تنسى، ومحبة لا تبلى، وأنا أحقّ من يعبر على الضراء، اعترافاً بما تنعّمت معه في الماضي على السراء.

فتعجّب أمير المؤمنين، معاوية بن أبي سفيان من رجاحة عقلها، ومن مروءتها، وخالص محبّتها، فَعَلَا (يعلو) قدرها لديه، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وردّها إلى زوجها الأعرابي بعقد جديد، فرجع الأعرابي فرحاً مسروراً شاكرا لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان وهو ينشد:

خلوا عن الطريق للأعرابي   ألم ترقُّوا ويحكم مما بي

إنها قصة فيها من المواقف والعبر، والشهامة ما يتحيّر منها الفكر، موقف الوالد الذي تنكر لابن أخيه، بدعوى أنه لا يعرفه، وليس له صلة به أو معرفة، زوج ابنته، التي رضيت به زوجاً، صابرة على الضراء، شاكرة على النعماء، لإيمانها أن الدنيا لا تدوم على حال،رضي بأن يعذّب، مجرد ما أغراه به أمير المدينة المنورة، مروان بن الحكم.

إن المرأة كانت عاقلة، حينما رضيت بأن تعود إلى ابن عمها ، وليس عاراً، أن يبتلى بالفقر، ذلك اختبار من الله ، وكأني بلسان حالها ينشد قول القائل:

نعيمك يا دنيا نعيم سينفد   وملك جنان الخلد ملك مؤبد
فلو كانت الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسول الله فيها مخلد

موقف أمير المدينة:

إن موقف أمير المدينة المنورة، مروان بن الحكم، موقف يدل على أن بعض الناس يغريهم المنصب، وبدلاً من أن يكون سبباً لحلّ مشاكل الناس، إذا بهم يستغلّون مركزهم، للتفريق بين المرء وزوجه، يخونون الأمانة التي أؤتمنوا عليها، يظنون أنهم ما خولوه يؤهلهم لأن ينتهكوا حرمات الله، ولا يريدون أن يكونوا سبباً للحكم بين الناس فيما شجر بينهم، وأن ينصروا الحق، ويعطوا كلّ ذي حقّ حقه.

إن انتهاك حرمة الضعفاء من الناس، لا يقرّه عقل ولا دين، فهم يستغلون ضعف الناس، فيزيدون المشاكل تعقيداً، فينحازون مع الزمان على الضعيف، حينما تشد عليهم ظروف الزمان، انطلاقاً من القوّة التي مكّنوا منها، والمثل يقول: (إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك)، وويل لمن تسلط على إنسان ليس له نصير إلا الله، والزمان ذو غير، وما من ظالم إلا سيبلى بمن هو أظلم منه، وقال الشاعر:

صبرت على التقريع والضرب والأذى ... فأوصلني ربي لرشف المباسم

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

موقف معاوية:

إن موقف معاوية بن أبي سفيان، وغضبه على من وثق به و اختاره أن يكون أميراً على مدينة رسول الله ﷺ، وقد استفزته حالة الأعرابي المظلوم، وإسراعه في إحضار زوجة الأعرابي، وقد كان رغب أن يراوغ ، عندما رأى جمال المرأة، وفصاحتها وتعقّلها، وقد حاول أن يغري الأعرابي بالمال، والجواري وإعطائه من المال ما يغنيه طول حياته، ظنًّا منه أن كلّ الناس يمكن أن يجعلوا المال هدفهم وغايتهم، والمال والجاه والشرف، ما هي إلا عارية، وموهبة من الله وابتلاء.

لقد كان موقف المرأة الحصيفة ، موقف الشرف والأنفة، وأظهرت بأنها تتمسك بابن عمها ، ضاربة بالمال والجاه والشرف عرض الحائط ،فهي تفضل الرجوع إلى ابن عمها، بعد أن خيّرها معاوية ، بينه مع خدمه وحشمه وماله وشرفه ، وبين مروان بن الحكم مع ظلمه وعسفه، وبين ابن عمها مع فقره.

قطوف و مواقف:

يقال إن خمسة أشياء من الأخلاق، وهي علامات من علامات علماء الآخرة، وردت في خمس آيات من **كتاب الله** العزيز، وهي: (الخشية، والخشوع وخفض الجناح للمؤمنين، وعدم الخضوع للكافرين، والزهد في الدنيا من أجل ثواب الله).

الأول: الخشية من الله تعالى: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

الثاني: الخشوع لله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٩].

الثالث: خفض الجناح للمؤمنين: فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢١٥].

الرابع: حسن الخلق في عدم الخضوع للكافرين: فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

الخامس: الزهد في الدنيا: ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة القصص: ٧٩-٨٠].

ومما يحكى من تدبير الله والرضى بما قدره الله على عباده، أن أحد الصالحين كان إذا أصيب بشيء أو ابتلي ببلاء يرضى بقضاء الله، وكان قد اعتاد على قول خير، وفي ذات ليلة جاء ذئب ودخل المنزل، فأكل ديكاً له، فقيل له: لقد أكل الذئب الديك، فردّ بقوله: خيراً إن شاء الله.

وفي ليلة من الليالي مرّ قوم بمنزله فرأوا كلبه الذي اتخذه للحراسة فقتلوه، فلما أخبر بذلك قال: خيراً إن شاء الله، وفي ليلة أخرى مات حماره فأخبر بذلك ، فقال: خيراً إن شاء الله، فضاق أهله بذلك ذرعاً.

وفي إحدى الليالي أغار قوم على أهل البلدة التي هو فيها وأهله،فقتلوا جميع من فيها،وما نجا إلا هو وأهله،إذ استدل القوم الغازون بصياح الديك ونباح الكلب ونهيق الحمار، وبما أن الرجل لم يبق له ما يدلّهم على وجوده، لاديك يصيح ولا كلب ينبح ولا حمار ينهق، فنجا فسبحان مدبرالأمور بحكمة، فخيرة المولى لعبده خير من خيرة العبد لنفسه.

حصافة الإمام الخليلي:

يحكى أن في زمن الإمام محمد بن عبد الله بن سعيد بن خلفان الخليلي رحمه الله ورضي عنه، وقعت ثورة من أناس على أحد العلماء الفضلاء، فأرسل الإمام الخليلي رجلاً من قبله من أهل الفضل لينظر جلية الأمر، وأوصاه أن يصلح بين الثائرين وبين العالم بتقريب وجهات النظر بين الفريقين.

فلما وصل الرجل إليهم، وأخذ يبحث عن حقيقة الأمر، وكان في الثائرين من الرجال الدهاة،الذين لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، يقلبون الحقائق بدهائهم وأظهروا بأنهم على حقّ، فيما ادعوا على عالمهم، وهكذا استطاعوا أن يجعلوا رسول الإمام ـ بما زوقوه، وبما حبكوه بدهائهم ـ إلى جانبهم، إذ وجد أكثر الناس معهم، فَمَالَ مع الكثرة.

فلما رجع رسول الإمام إلى الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، بعد انتهاء مهمته، سأله الإمام عما رأى وعمل، فقال الرسول: لقد رأيت أهل البلد كلهم مجمعين على كلمة واحدة، ورأي واحد ضد العالم فلان بن فلان، وما رأيت مع العالم إلا القليل من أهل البلد،والأمر إليك أيها الإمام.

فأجاب الإمام محمد بن عبد الله الخليلي من فوره: لقد استدللنا من كلامك هذا أن الحق عند العالم فلان، فقد غرّتك الكثرة من الناس، وأكثرهم للحقّ

كارهون، وقال الشاعر:

والحق قد نعلمه ثقيل ... يأباه إلا نفر قليل

الزمرد الفائق للشيخ محمد بن راشد الخصيبي الجزء الثالث ١٢٣.

من مواقف القضاة الورعين:

يروى عن أحد القضاة الورعين الذين يخشون الله في سرّهم وعلانيتهم ولا يحكمون إلا إذا تبيّن لهم وجه الحق،ويتثبتون إذا تضاربت أقوال وحجج الخصوم، فيرجئون الفصل فيما اشتبه الأمر فيه إلى وقت آخر.

وقد حصل مثل ذلك للقاضي الورع عافية بن زيد بن قيس الأزدي، إذ كان القاضي عافية يتقلّد القضاء لأمير المؤمنين المهدي، بأحد جانبي مدينة السلام خلفا للقاضي ابن علاثة، فتقدّم إلى القاضي عافية بن زيد خصمان اختصما في قضّية معضلة، أحد الخصمين من شيراز، والثاني من أصبهان، وكل خصم أحضر ما يؤيد به حقه من وثائق وشهود، وأخذ كل خصم يدلي بحجج، تحتاج إلى تأمل وتثبت وتمحيص، فردّ الخصوم رغبة في الصلح والصلح خير، أو يتبين لي وجه الحق، فأحكم على ما وضح من وجه الصواب، ذلك الذي دفعني لعدم الحكم في القضية.

أما أحد الخصمين فقد علم بأني أحبّ الرطب السكري: (وهو من أجود أنواع الرطب، وأحسنها منظراً وحلاوة)، يستساغ أكله خلالاً ورطباً وتمراً، فعمد إلى جمع كمية منه، وهو أول أوقات الرطب،وقد لايتهيأ جمع تلك الكمية لندرته في ذلك الوقت لأمير المؤمنين المهدي،وما رأيت أحسن منه، وقدم رشوة لبوابي جملة دراهم، على أن يدخل ذلك الرطب إليّ.

ولما دخل عليّ البواب بالرطب، قلت له: ما هذا وما قصته، فقال: جاء به فلان أحد الخصمين في قضية الأمس، التي لم يتمّ فصل الحكم فيها، فأنكرت ذلك وطردت بوابي، وأمرت بردّ الرطب فردّ فعلاً.

ولما دخل الخصمان مجلس القضاء، فوالله ما استوى الخصمان في قلبي ولا في عيني، هذا مع ردّ الرطب وإنكاري لما حدث، فكيف لو أني قبلت ذلك ورضيته.

ذلك الذي حدث للقاضي الزاهد عافية بن زيد،فخشي على دينه من أن يزيغ في الحكم، فذهب إلى أمير المؤمنين المهدي في وقت الظهر في يوم من الأيام بعد تلك الحادثة، فوجده وحده فٱستأذن عليه، فأذن له فدخل عليه يحمل سجلاته وأوراقه، فطلب من الأمير المهدي أن يعفيه من منصب القضاء ،ويستأذنه في تسليم ما بيده إلى من يأمره الأمير بذلك.

فلما سمع أمير المؤمنين المهدي كلام القاضي عافية بن زيد،ظنّ أن بعض الأولياء قد ضايقه بعدم تنفيذ أحكامه،أو أضعف يده في الحكم، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين والله ما جرى من ذلك شيء.

فقال الأمير المهدي: إذن فما سبب استعفائك من منصب القضاء؟ فحكى له القصة من أولها إلى آخرها، وما حصل له مع أحد الخصمين الذي تقدم بالرطب ورد القاضي الرطب، وشعوره بعدم استواء الخصمين مع عدم القبول، والإنكار فكيف لوقبل، فقال القاضي: هذا يا أمير المؤمنين الذي جعلني أطلب إعفائي من القضاء، ولا آمن بعد ذلك أن تقع عليّ حيلة أخسر فيها ديني، فأهلك وقد فسد الناس في زماننا، فأقلني يا أمير المؤمنين، أقالك الله وأعفني، فأعفاه وهكذا من يستبرىء لدينه وعرضه، يجب عليه أن لا يجعل نفسه شمعة تحرق نفسها بإضاءة غيرها.

وقال أبو دلامة منها، بورع القاضي عافية بن زيد الأزدي، حيث أنشد قائلا:

لقد خاصمتني غواة الرجا ... ل وخاصمتهم سنة وافية
فما أدحض الله لي حجة ... ولا خيّب الله لي قافية
ومن كنت من جوره خائفاً ... فلست أخافك يا عافية

فلما سمع القاضي عافية شعر أبي دلامة قال له : لأشكونّك يا أبا دلامة إلى أمير المؤمنين، فقال أبو دلامة: ولم تشكوني إلىأمير المؤمنين؟ قال القاضي عافية: لأنك هجوتني في مجلس القضاء، ومجلس القضاء له حرمة.

قال أبو دلامة : والله لئن شكوتني إلى أمير المؤمنين ليعزلنك؟ قال القاضي عافية: ولم؟ قال أبو دلامة: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح.

وأبو دلامة لم يخف من حكم القاضي عافيه بن زيد لما يعلمه من تحري الصدق، وعدم التسرّع في الفحص، والتحرز من أجل دينه.

عمر بن عبد العزيز يطلب النصح:

وكتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، إلى الحسن البصري: إجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة، فكتب إليه: (إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام،ومن حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم ومن خاف سلم،ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فآسأل، وإذا غضبت فأمسك، وآعلم أن أفضل الأعمال ماكرهت النفوس عليه.

تلك هي رسلة العالم العامل الورع التقي، حينما طلب منه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فقد نصح وأبلغ في النصح، وهكذا شأن العلماء العاملين الورعين، وينبغي للعالم أن لا يكتم عمله لمن يستحقه، ولا يبديه لمن يضيعه، وفي الحديث النبوي الشريف: «**من كتم علما ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار**». نعوذ بالله من النار والعار والشنار.

الخليل بن أحمد في ضيافة راهب:

يحكى أن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي العروضي، اجتاز في بعض أسفاره براهب في صومعة: فقال الخليل: لما رأيت الليل قد أزف، وخفت التوغل في الصحراء وحيداً، اتجهت إلى الصومعة، فطرقت الباب فإذا بصاحب الصومعة يسأل قائلاً: من الطارق؟. فقلت: أنا أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد.

فقال الراهب: أنت الذي يزعم الناس أنك وجه وواحد في العلم بأمر العرب؟ فقلت : كذلك يقولون، ولست كما يقولون، فأنا دون ذلك.

قال الراهب: إن أجبتني عن ثلاث مسائل جواباً شافياً مقنعاً فتحت لك الباب وأحسنت ضيافتك، وبالغت في ذلك،وإن عجزت عن الجواب لا أفتح لك.

فقلت: وما هي تلك المسائل الثلاث؟ قال الراهب:ألسنا نستدل على الشاهد بالغائب؟ قلت: بلى . قال الراهب :فأنت تقول :إن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض، ولم نر له مثلاً، فبأي شيء أثبته؟ (العرض وجمعه أعراض الحالة تطرأ على الجسم فتكون من صفاته العارضة،كالبياض والسواد والحركة والسكون).

وقال الراهب :وأنت تزعم أن الناس في الجنة يأكلون ويشربون ولا تكون لهم فضلات، وأنت في الدنيا لم تر آكلاً وشارباً إلا له فضلات.

قال الراهب: وأنت تزعم: أن نعيم أهل الجنة لاينقضي، وأنت لم تر شيئاً إلا منقضيا، فما كان له أول فلا بد أن يصير له آخر.

قال الخليل بن أحمد للراهب:لقد استدللت على ذلك كله، بالشاهد الحاضر فقال الراهب: كيف ذلك؟.

قال الخليل بن أحمد: أما الله تعالى فإني أستدللت عليه بأفعاله الدالة عليه أنه لا مثل له، وفي الشاهد مثل ذلك الروح التي فيك، وفي كل حيوان،وهي سبب الحياة، ونحن نحس بها تحت كل شعرة منا، ومع ذلك فنحن لا ندري أين هي، ولا كيف هي؟ ولا ما صفتها،ولا وجودها، فإذا خرجت الروح من الإنسان يموت ويفقد الحس والحركة ولا يشعر بأي شيء، واستدلالي عليها وعلى وجودها بأفعالها، وبحركاتها، وتصرفنا بكونها فينا.

وأما قولك : إن أهل الجنة لا تكون لهم فضلات مع الأكل والشرب، فالشاهد لا يمنع ، ألا تعلم أن الجنين يتغذى في بطن أمه، ولا يفرز بسبب الغذاء فضلات، فهذا استدلال لذلك، وآرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢١].

وأما قولك : إن نعيم الجنة لا ينقضي ،مع أن أوله موجود،فإنا نجد أنفسنا نبتدىء الحساب بالواحد، ثم لو أردنا أن لا ينقضي الحساب إلى ما لا نهاية له، نكرره ولا نزال نكرره وأعداده وتضعيفه، وهكذا إلى ما لا نهاية، ولا انقضاء له.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي، فلما أجبته على أسئلته فتح لي الراهب باب الصومعة،وأحسن ضيافتي، وفي الصباح قبل مغادرتي الصومعة شكرت الراهب على حسن الضيافة وذهبت في حال سبيلي.

اختيار الأسماء:

لقد كان العرب يسمون أولادهم بأسماء تدلّ على الشدّة والقوّة والبأس، مثل: فهر وحجر،وصخر وحرب، وعباس ومرداس وجبل، وعلى العكس من ذلك كانوا

يسمّون خدمهم وعبيدهم بأسماء رقيقة مثل: سواد وسويد، وهرم ونمير، وعبيد وفهم وغنم وجحش وجحيش.

ولما سئلوا : ما بالكم تسمون أولادكم بأسماء مستقبحة،وتسمون عبيدكم بأسماء مستحسنة؟ قالوا: كنا نسمي أبناءنا بأسماء تدّل على الشدّة والقوّة والبأس، لأننا نسمي أبناءنا لعدونا، ونسمي خدمنا وعبيدنا بأسماء مستحسنة، لأننا كنا نسميهم لأنفسنا، فهو أخف على ألسنتنا.

ولما جاء الإسم تغيرت حالة الناس،وحتى لا تكون الأسماء مسبَّة لمن سمي بأسماء مستقبحة، حثّ الإسلام على اختيار الأسماء الحسنة.

فقد روي أن النبي ﷺ قال:« **إياك وهذه الأسماء القبيحة ، فما من مولود يولد إلا ويحضره ملك وشيطان ، فيقول الملك سموه بكذا إسماً حسناً ، ويقول الشيطان سموه بكذا إسماً قبيحاً** »، وقال: « **كنية الرجل أحد شواهد عقله، واسمه أحد شواهد عقل أبيه** ».

وقيل أشِيعوا الكنى فإنها منبهة، وقال ﷺ: « **من آتاه الله وجهاً حسناً ، وإسماً حسناً وجعله في غير موضع شائن ،فهو من صفوة خلقه** ».

التفاؤل بالأسماء:

وقد جبل الناس على حبّ الأسماء الحسنة، والتفاؤل بها، ومن هذا القبيل قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن أحبّكم إلينا أحسنكم أسماء، فإذا رأيناكم، فأجملكم منظراً، وفي رواية أجملكم وجهاً، فإذا اختبرناكم فأحسنكم مختبراً.

وخرج يوماً من الأيام أمير المؤمنين هارون الرشيد، فرأى أحد الحرس، فسأله عن اسمه قائلا له: ما اسمك؟ فقال الرجل: إسمي سعيد أسعدك الله يا أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين: ابن من؟ فقال الرجل: ابن أسلم سلم الله أمير المؤمنين.

قال أمير المؤمنين هارون الرشيد: أبومن؟. قال الرجل: أبو عمرو عمر الله أمير المؤمنين، فقال أمير المؤمنين للرجل: بارك الله فيك، وأكرمه غاية الإكرام إذ تفاءل باسمه واسم ابيه وكنيته.

وقال الشاعر:

وقلما ابصرت عيناك من رجل   إلا ومعناه في اسم منه أو لقب

وسأل رجل صبيًّا جميلاً، صبيح الوجه: ما اسمك؟ فقال الصبي الذكي، إسمي وصف وجهي، فقال له الرجل: إن كنت كما تزعم ما أراك تسمى إلا حسناً، فقال الصبي فهو كذلك إسمي، وقد أنشد الشاعر في المعنى:

إن اسم حسنى لوجهها صفة   وما رأى ذا لغيرها اجتمعا

فهي إذا سميت فقد وصفت   وقد يجمع الإسم معنيين معا

وكما أن الناس يتفاءلون بالأسماء والكنى والألقاب الحسنة، ويعتبرون ذلك فاتحة خير للنصر والظفر ونيل المطالب، وتحقيق ما تصبو إليه النفس، وذلك في الأسماء الحسنة والكنى والألقاب المحبوبة، فقد يصادف الرجل عندما يريد أن يعمد إلى عمل، أو أمر مهم، أسماء مستقبحة فيتشاءم منها فيرى الإحجام أولى من الإقدام،ومن ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أراد أن يولي رجلاً، فسأله عن اسمه، فقال الرجل: إسمي ظالم بن سراق،فقال أمير المؤمنين عمر: أنت ظالم وأبوك سراق، لاخير فيك والذي لاخير فيه، لايتعدّى خيره غيره فلم يولِّه.

ومما يتظرّف من أسماء الرجال: وقف رجل بباب أحد الأمراء فسئل عن اسمه، فقال: إسمي من الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسماوات مطويات بيمينه، فذهب الخادم يخبر الأمير، فقال: يا سيدي: إن نصف المصحف واقف بالباب، إن شئت أن تأذن بدخول نصف المصحف.

وسئل رجل عن كنيته: فقال: (أبو الحسن وأبو الغمر،فقيل له: ألم تكتف بكنية واحدة؟ فقال الرجل: لا فإن ضاعت مني واحدة بقيت لي الأخرى.

وقيل لأعرابي: ما اسمك؟ قال: إسمي نعامة، فقيل له: على أي شيء هذا الاسم يدل؟. قال: الإسم علامة، ولو كان الإسم كرامه لتشارك الناس كلهم في اسم واحد.

الجود بالموجود:

يحكى أن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، خرج مرة من المدينة المنورة ذاهباً إلى الشام، يريد معاوية بن أبي سفيان، فأظلمت السماء بالغمام، فنزل المطر فنظر عن يمينه فرأى نويرة، تصغير (نار)، فقال لغلامه: مِلْ بنا نحوها لعلّنا نجد عندها من نأنس به.

فلما وصلا إليها وجدا شيخا ذا هيئة رثة تنبىء عن حاله، فحاله يغني عن سؤاله، فلما رآهما قال لهما: أنيخا وٱنزلا على الرحب والسعة حييتما، فلما نزلا أسرع الشيخ إلى أهله، فقال لامرأته: هيئي شاتك أقضي بها ذمام هذا الرجل وصاحبه، فإني أتوسم في الرجل خيراً، فإن يكن من مضر فهو من بني عبد المطلب،وإن يكن من اليمن فهو من بني آكل المرار، وكان الرجل لايملك إلا تلك الشاة، ومنها طعام صِبْيته.

فقالت المرأة زوجته: لقد علمت حال صِبْيتنا وأن معيشتهم منها ،وأخاف الموت عليهم إن فقدوها، فقال الرجل: فو الله لموتهم أحبّ إلي من اللّوم بخلاً، ثم عمد إلى الشاة فأخذها وأخذ شفرة وأنشد:

قريبتي لا توقظي بنيّا إن يوقظوا ينسحبوا عليّا
وينزعوا الشفرة من يديّا أبغض هذا أن يرى لديّا

ثم ذبحها وكشط جلدها، وقطعها أرباعاً، وقذفها في القدرحتى إذا نضجت ثرد في جفنة، فعشاهم ثم غداهم.

ولما أراد عبيد الله بن العباس الرحيل، قال لغلامه:اعط الشيخ ما معك من نفقة، وكان عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب مشهوراً بالجود والسخاء والكرم.

فقال له غلامه: لقد ذبح لك الشاة، فكافئه بعشرة أمثالها، فيكفيه ذلك، وهو لا يعرفك، فقال عبيد الله: ويحك إن هذا الرجل لم يكن يملك من الدنيا غير هذه الشاة، ومع ذلك فجاد لنا بها، وآثرنا على صِبْيته، وهو لا يعرفنا، فإذا كان لا يعرفنا، فأنا أعرف نفسي، إرم بها إليه، فرماها إليه ،وتناولها الشيخ فوجدها خمسمائة دينار، ولا تسل عن فرحة الشيخ وأهله وصِبْيته، لقد فوجىء الجميع بذلك المبلغ الضخم، ولعلّهم لم يسمعوا مجرد سماع به فضلاً من امتلاكه، ولقد صدق ظنّ الشيخ فيما توسّمه في ضيفه.

ثم ارتحل عبيد الله بن العباس مودّعا الشيخ الكريم، في طريقه إلى معاوية ابن أبي سفيان، فلما قضى حاجته أقبل راجعا إلى المدينة المنورة، حتى إذا قرب من منزل الشيخ، قال لغلامه: مِلْ بنا نحو الشيخ ننظر حاله، فلما وصلا إليه وجدا رجلاً سريًّا، قد علا دخان ناره من طهي الطعام، وكثرة رماده ولديه إبل وغنم، ففرح عبيد الله بن العباس بذلك، إذ رأى أثر نعمة الله على الشيخ.

فلما رأى الشيخ عبد الله وصاحبه ، قال لهما: أنزلا على الرحب والسعة فقال له عبيد الله: أتعرفنا؟. فقال الشيخ : لا والله لا أعرفكما، فمن أنتما؟، فقال عبيد الله: إنّا نزيليك ليلة كذا وكذا، وهذا صاحبي، فلم يتمالك الشيخ أن قام مسرعاً فقبل رأسه ويديه ورجليه، وقال لقد قلت أبياتاً بعد أن رحلتما عنا: أتسمعها مني؟. فقال عبيد الله: هات أبياتك فأنشد:

توسمته لما رأيت مهابة	عليه وقلت المرء من آل هاشم
وإلا فمن آل المرار فإنهم	ملوك عظام من كرام أعاظم
فقمت إلى عنز بقية أعنز	لأذبحها فعل امرىء غير نادم
فعوضني عنها غناي ولم تكن	تساوي عنزي غير خمس دراهم
فقلت لأهلي في الخلاء وصبيتي	أحقاً أرى أم تلك أحلام نائم

فلما سمع عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب الأبيات ضحك، وقال : يا شيخ لقد أعطيتنا أكثر وأبقى مما أعطيناك،يا غلام أعطه مثلها، وبلغ خبر عبيد الله مع الشيخ معاوية بن أبي سفيان فقال: لله درعبيد الله من أي بيضة خرج، وفي أي عش درج.

وقيل لبعض الأعراب، وقدأسلم لما عرف دعوته ﷺ: عن أي شيء أسلمت؟. وما رأيت منه مما دلّك على أنه رسول الله؟. فقال الأعرابي: ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته حرمه، ولاحرم شيئا فقال العقل: ليته أباحه، فذلك الذي جعلني أسلم.

عدلت فأمنت فنمت:

ويحكى أن كسرى ملك الفرس أرسل رسولاً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لينظر أحواله، ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة المنورة، سأل أهلها، وقال: أين ملككم؟.

فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير المؤمنين، وقد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج رسول كسرى في طلبه ويسأل من لقي عنه، فقال له أحدهم: ذلك هو أميرنا النائم في الشمس، فقصده رسول كسرى، فلما رآه على تلك الحال نائماً في الشمس على الأرض، فوق الرمل الحار، وقد وضع عصاه تحت رأسه كالوسادة، والعرق يسيل من جسمه وقد بلّ الأرض بالعرق.

فلما رآه رسول كسرى،على تلك الحالة هابه، ووقع الخشوع في قلبه وقال قولته المشهورة: (رجل يكون جميع الملوك لا يقرّ لهم قرار لهيبته، وتكون هذه حاله فلا جرم، ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت. وملكنا حكم فجار فهو لا جرم لا يزال ساهراً خائفاً).

وقد صور هذا الموقف شاعر النيل حافظ إبراهيم تصويراً رائعاً فريداً في قصيدته العمرية ، حيث قال:

قد راع صاحب كسرى أن رأى عمرا ... بين الرعية عطلاً وهو راعيها

وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها

رآه مستغرقاً في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببرده كاد طول الدهر يبليها

فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها

فقال قولة حق أصبحت مثلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها

أمنت لما أقمت العدل بينهم ... فنمت نوم قرير العين هانيها

وقد كان اهتمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بأمر الناس أكثر من اهتمامه بخاصة نفسه وأهله، وذلك يدل على عظم المسؤولية التي تقلّدها، ويخاف الله تعالى إن قصر فيها، واستمع إلى الشاعر حافظ إبراهيم، وهو يصور رحمته

واهتمامه بأمة محمد ﷺ حيث قال:

ومـن رآه أمـام القـدر منبطحاً والنـار تأخـذ منه وهو يـذكـيها

وقـد تخلل في أثـنـاء لحيتـه منها الـدخان وفوه غاب في فيها

رأى هـنـاك أمير المؤمنين على حال تـروع لعمر الله رائيـها

يستقبل النار خوف النار في غده والعين من خشية سالت مآقيها

إنه موقف عظيم، من مواقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على سهره وتفقّده لمصالح الناس.

حراسة القافلة:

وقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: دعاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذات ليلة وقال: قد نزل بباب المدينة قافلة، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شيء من متاعهم، فمضيت معه فلما وصلنا قال لي: نم أنت ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته.

حاجة الإنسان إلى المداراة:

إن مدارة الناس من الأمور التي يضطر إليها الإنسان لكسب مصلحة أو لدفع مضرة، وجاء قول بعضهم: على العاقل أن يداري الناس مدارة الرجل السايح في الماء الجاري،ومن ذهب إلى عشرة الناس من حيث هو كدرعلى نفسه عيشه، ولم تصف له مودتهم، ولأن وداد الناس لا يتجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه،إلا أن يكون مأثماً أو معصية، فلا سمع ولا طاعة،والبشر قد ركب فيهم أهواء مختلفة، وطباع متباينة، فكما يشقّ عليك ترك ما جبلت عليه نفسك، فكذلك يشقّ على غيرك مجانبة مثله.

لذا: فليس إلى صفو ودادهم سبيل إلا بمعاشرتهم من حيث هم، ومحال تجنب مخالفتهم في كل الأوقات، ومن لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء فيما ليس فيه معصية تكدّر عيشه، ومن لم يدارِ صديق السوء، كما يداري صديق الصدق

فليس بحازم، ولقد أحسن الشاعر الذي يقول:

تجنب صديق السوء واْصرم حباله وإن لم تجد عنه محيصاً فداره
وأحبب حبيب الصدق وأحذر مراءه تنل منه صفو الود ما لم تماره

وذلك لأنه إذا كان كلما رأى من أحد زلة رفضه لزلته، بقي وحيداً لا يجد من يعاشر وفريداً لا يجد من يصاحب، بل يغضي على الأخ الصديق زلاته، ما لم يكن في معصية، ولا يناقش الصديق السيء على عثراته، وقال الشاعر في المعنى:

وأغمض عيني عن صديقي كأنني لديه بما يأتي من القبح جاهل
وما بي جهل غير أن خليقتي تطيق احتمال الكره فيما أحاول
متى ما يريني مفصل فقطعته بقيت وما لي في نهوضي مفاصل
ولكن أداريه وإن صحّ شدني فإن هو أعيا كان فيه تحامل

وقال العلماء في المداراة: قال المناوي: المداراة: الملاينة والملاطفة، وأصلها المخاتلة، وقال ابن بطال: المداراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ لهم في القول، وقال ابن منظور: المداراة: المخالفة والمدافعة، ويقال: فلان لا يداري، ولا يماري، والمداراة: تعتبر من حسن الخلق والعشرة.

وقال الماوردي: إذا كان للإنسان عدو، وقد استحكمت شحناؤه واستوعرت سراؤه، واستخشنت ضراؤه، فهو يتربص بدوائر السوء، وانتهاز فرصة ويتجرّع بمهانة العجز مرارة غصة، فإذا ظفر بنائبة ساعدها، وإذا شاهد نعمة عاداها، فالبعد عن هذا خير وأسلم والكف عنه متاركة أغنم، لأنه لا يسلم من عواقب شرّه، ولا يفلت من غوائل مكره إلّا بالبعد عنه أو مداراته.

وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال إنّ الشرّ بالشرّ يطفأ، فإن كان صادقاً، فليوقد نارين ولينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار.

وأما إذا كان ذلك العدوّ لئيم الطبع خبيث الأصل، فمثل هذا لا يتقبح الشر ولا يكفّ عن المكروه، فهذا حاله أطمّ، وضرره أعمّ، ولا سلامة منه إلّا بالبعد

عنه والانقباض، ولا خلاص منه إلا بالصفح والإعراض، لأنه كالسبع الضاري في سوارح الغنم، وكالنار بطبع لا يزول ، وجوهر لا يتغيّر ولا يتبدّل وقال الشاعر:

وإذا عجزت عن العدو فداره وأمزح له إن المزاح وفاق

فالنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الاحراق

ويروى أن النبي داود ﷺ، جلس كئيباً خالياً، فأوحى الله إليه: (يا داود ما لي أراك خالياً كئيباً؟). قال : يا ربِّ هجرت الناس فيك قال: أفلا أدلّك على شيء تبلغ به رضائي؟: (خالق الناس بأخلاقهم واحتجر الإيمان فيما بيني وبينك).

أشر الناس:

وفي الحديث النبوي الشريف :عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل، فقال ﷺ: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة**» فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له : يارسول الله، قلت ما قلت ثم ألنت له في القول، فقال ﷺ: «**أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه أو وعده الناس إتقاء شره**».

وقال الحسن البصري: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول: هي العقل كله.

ويحكى عن أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة أنه قال: خمسة يجب على الناس مداراتهم: الملك المسلّط، والقاضي المتأوّل، والمرأة والعالم، ليقتبس من علمه.

وقال الإمام الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسيَ من هم العداوات

إني أحيي عدوي عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات

وأظهر البشر للإنسان أبغضه كأنما قد حشا قلبي محبات

ألناس داء وداء الناس قربهم وفي اعتزالهم قطع المودات

رضاء الناس غاية لا تدرك:

وقال أحد العلماء: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لايدرك، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بدّا، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات، كان يستقبحها واستقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثماً أو معصية، فإن ذلك من المداراة المستحسنة، وما أكثر من دارى فلم يسلم،فكيف توجد السلامة لمن لا يداري، وقال الشاعر:

مادمت حيًّا فدار الناس كلهم ... فإنما أنت في دار المداراة
من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى ... عما قليل نديماً للندامات

وقال محمد بن الحنفية: ليس بحكيم من لا يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدًّا، حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً، وأنشد المتنبي في المعنى:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

وعن أبي مليكة أن النبي ﷺ أهديت له أقبية من ديباج مزردة بالذهب فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل واحداً لمخرمة بن نوفل فجاء ومعه ابنه المسور بن مخرمة، فقام على الباب، فقال: ادعه في فسمع النبي ﷺ صوته ، فأخذ قباء فتلقاه به واستقبله بأزراره، فقال: يا أبا المسور خبأت هذا لك، وكان في خلقه شيء.

وقال معاوية بن أبي سفيان: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم إن مدوها خليتها ، وإن خلوها مددتها.

وقال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي من أقوى أسباب الألفة بينهم، فإن قال بعضهم إن المداراة هي المداهنة، وهذا غلط، لأن المداراة مندوب إليها ، والمداهنة محرّمة، والفرق بينهما أن المداهنة من الدهان، وهو الذي يظهر الشيء، ويستر باطنه، وقد فسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق ، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تأليفه.

وقال الشاعر صالح بن عبد القدوس:

أرضى عن المرء ما أصفى مودته   وليس شيء من البغضاء يرضيني
والله لو كرهت كفي مصاحبتي   لقلت إذ كرهت يوماً لها بيني
ثم انثنيت على الأخرى فقلت لها   أتسعديني وإلا مثلها كوني
إني كذاك إذا أمر تعرض لي   خشيت منه على دنياي أو ديني
خرجت منه وعرضي ما أدنسه   ولم أقم غرضاً للنذل يرميني
وملطف بي مدار ذي معاشرة   معض على وغر في الصدر مكنون
ليس الصديق الذي تخشى بوادره   ولا العدو على حال بمأمون
يلومني الناس فيما لو أخبرهم   بالعذر فيه ويوماً لم يلوموني

وقال الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سلمى:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقال النمر بن تولب:

وأبغض بغيضك بغضاً رويداً   إذا أنت حاولت أن تحكما
وأحبب حبيبك حباً رويداً   فليس يعولك أن تصرما

المداراة لا تكون إلا في الأمور الدنيوية فقط، وتحرم إذا كانت في أمور الدين، فإن كانت في أمور التدين فهي المداهنة.

الباب السابع والعشرون

في المروءة

وقالوا في المروءة:

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه**».

وقال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إنـي لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
وتهزني ذكرى المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق
فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق
فالناس هذا حظّه مال وذا ... علم وذاك مكارم الأخلاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يتوج ربه بخلاق

وقيل لبعض الحكماء، ما أصعب شيء على الإنسان؟. قال: أن يعرف نفسه، ويكتم الأسرار، فإذا اجتمع الأمران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهراً والأدب بهما وافراً، ومشاق الحمد بينهما مسهلة،وشروط المروءة بينهما متينة.

وقال الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ... عليك لها فأطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة ... يعدّ مسيئاً فيه من كان محسنا

وقال وحيد الدين خان في كتابه البعث الإسلامي، إن أولئك الذين نشؤوا في جزيرة العرب، وشبوا في الكثبان الرملية، والصحاري القاحلة الجدباء كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي: (المروءة).

وقال الحصين بن المنذر الرقاشي:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة ... يبني الكريم بها المكارم باعها

وقال بعضهم: الكامل المروءة من حصن دينه، ووصل رحمه، وأكرم أخوانه وعفا عن من ظلمه، وأحسن إلى من أساء إليه.

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأخلاق.

وقال الماوردي: ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حدّ المروءة منك باقية، ولا عن المراعاة مستغنية، وإنما المراعاة هي المروءة، لا ما انطبعت عليه من فضائل الأخلاق،لأن غرور الهوى،وتنازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خلائقها،والأجمل من طرائقها، وإن سلمت منها وبعيد أن تسلم إلّا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعاً، واستغنى عن تهذيبها تكلّفاً وتطبّعاً.

وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقال أحد الحكماء: وتنتظم المروءة أخلاقاً سنيّة وآداباً مضيئة. ورسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس يحتاج إلى صبر ومجاهدة، ودقة وملاحظة وسلامة ذوق.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منها تمرة ورفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد ان تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار**».

وقد ضرب الرسول الكريم ﷺ المثل الأعلى في المروءة، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فألقى إليّ وسادة حشوها ليف، فلم أقعد عليها وبقيت بيني وبينه.

وقال أحدهم عن المروءة: مروءة الرجل صدق لسانه،واحتمال عثرات جيرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفّ الأذى عن أباعده وأقرانه.

إن المروءة من الصفات الحميدة المحمودة المحببة لدى الناس، ومن لا مروءة له لا دين له، وينال المرء بمروءته ما لا يناله بقوّته، لأن المروءة تخاطب الأرواح، والقوّة تخاطب الأشباح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد،فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال :عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فترك حتى كان الغد ثم قال له: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد،فقال له: (ما عندك يا ثمامة)؟. فقال ثمامة: عندي ما قلت لك.

فقال النبي ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فلما أطلق انطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

يا محمد والله، ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة فما ترى؟.

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة المكرمة، قال له قائل: صبوت يا ثمامة؟. قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

وعن يحيى بن سعيد، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:كرم المؤمن تقواه، ودينه حسبه، ومروءته خلقه، والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث شاء، فالجبان يفرّ عن أبيه وأمه، والجريء يقاتل عمّا لا يؤوب به إلى رحله،والقتل حتف من الحتوف، والشهيد من احتسب نفسه على الله.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: (خذ الناس بالعربية، فإنه يزيد في العقل ،ويثبت المروءة).

ويحكى أن معاوية بن أبي سفيان، سأل عمرو بن العاص عن المروءة؟ فقال عمرو: المروءة تقوى الله تعالى، وصلة الرحم، وسأل المغيرة عنها؟. فقال المغيرة: هي العفة عمّا حرّم الله تعالى، والحرفة فيما أحلّ الله تعالى. وسأل معاوية ابنه يزيد عن المروءة؟.

فقال يزيد: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، والعفو عند المقدرة، فقال معاوية حينئذ: أنت مني حقاً استحساناً لقوله.

وقال أحد الشعراء:

وكنت إذا صحبت رجال قوم	صحبتهمُ وشيمتيَ الوفاء
فأحسن حين يحسن محسنوهم	وأجتنب الإساءة إن أساؤوا
وأبصر ما يعيبهم بعين	عليها من عيوبهم غطاء
أريد رضاهمُ أبداً وآتي	مسيئتهم وأترك ما أشاء

وقال مسروق: كان يقال مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تذكي القلوب. وسئل الأحنف بن قيس التميمي عن المروءة؟ فقال: المروءة صدق اللسان، ومواساة الإخوان، وذكر الله تعالى في كل مكان.

حلم الرسول ﷺ:

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة، وهو في واد كثير العضاة فنزل تحت شجرة واستظل بها، وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون.

فبينما نحن كذلك، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: (إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتًا، قال: ما يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه ثم قعد فهو هذا. ولم يعاقبه رسول الله ﷺ.

أقسام المروءة:

ولقد قسم بعض الناس المروءة إلى ثلاثة أقسام:

فقال القسم الأول: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يحملها قسراً على فعل ما

يجمل ويزين، وترك ما يقبح ويشين، ليصير لها ملكة في السرّ والعلانية فلا يفعل خاليا ما استحيا من فعله في الملإ إلا ما لا يحظره الشرع الشريف والعقل.

القسم الثاني: مروءة المرء مع الخلق، وذلك بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه.

القسم الثالث: المرء مع الحق سبحانه وتعالى، ويكون ذلك بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك، في كل خاطرة تخطر من نفسك، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، لأنه سبحانه وتعالى قد اشتراها منك وأنت تسعى في تسليم المبيع، وليس من المروءة أن تسلم المبيع معيباً، فالمقابل عظيم: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. [سورة آل عمران: ١٣٣].

وقالوا: حدّ المروءة: استعمال ما يجمّل العبد ويزيّنه، وترك ما يدنّسه ويشينه، سواء تعلّق ذلك به وحده ،أو تعداه إلى غيره.

وقالوا: من شرائط المروءة أن يتعفّف المرء عن الحرام،وأن ينصف في الحكم، وأن يكفَّ عن الظلم، وأن لا يطمع فيما لا يستحق، وأن لا يعين قوياً على ضعيف، وأن يؤثر دني الأفعال على شريفها، وأن لا يسر ما يعقب الوزر والإثم، وأن لا يفعل ما يقبح الإسم والذكر.

وقال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... ألجود يفقر والإقدام قتال

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ... ما كل ما شية بالرجل شملال

إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما قاته وفضول العيش أشغال

وعن شهاب بن عبّاد أنه سمع بعض وفد عبد القيس،وهم يقولون: قدمنا على رسول الله ﷺ، فاشتدّ فرحهم بنا، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا فقعدنا، فرحّب بنا النبي ﷺ ودعا لنا ، ثم نظر إلينا فقال: (من سيّدكم وزعيمكم؟).

فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائد ،فقال النبي ﷺ: (أهذا الأشج؟)، فكان أول يوم وضع عليه هذا الإسم، لضربة بحافر حمار، قلنا: نعم يا رسول الله، فتخلّف

بعد القوم، فعقل رواحلهم وضم متاعهم، ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السفر، ولبس من صالح ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ، وقد بسط النبي رجله، واتكأ، فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له، فقالوا :ههنا يا أشج، فقال النبي ﷺ،واستوى قاعداً وقبض رجله: «**ههنا يا أشج**».

معاملة الرسول لوفد عبد القيس:

فقعد عن يمين رسول الله ﷺ، فرحّب به، ولاطفه، وسألهم عن بلادهم، وسمّى لهم بعض قراهم تأنيساً لهم من قرى هجر،فقال: بأبي وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء قرانا منا،فقال النبي ﷺ: «**إني وطئت بلادكم وفسح لي فيها**». قال: ثم أقبل على الأنصار فقال: «**يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم، فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيء بكم أشعاراً وأبشاراً أسلموا طائعين،غير مكرهين ولاموتورين،إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا**».

قال : فلما أصبحوا، قال النبي ﷺ: «**كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم، وضيافتهم إياكم؟**». قالوا: خير إخوان ألانوا فراشنا وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ، فأعجب النبي ﷺ، وفرح بها، ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على من يعلمنا، وعلمنا فمنا من علّم التحيات وأم الكتاب والسورة والسورتين والسنن.

فأقبل علينا بوجهه، فقال: (هل معكم من أزوادكم؟)، ففرح القوم بذلك وابتدروا رواحلهم، فأقبل رجل منهم معه صرة من تمر فوضعها على نطع بين يديه، وأومأ بجريدة في يده كان يتخصّر بها فوق الذراع ، ودون الذراعين فقال :تسمّون هذا التعضوض؟ قلنا: نعم. ثم أومأ إلى صرّة أخرى، فقال: تسمّون هذا الصرفان؟ قلنا: نعم. ثم أومأ إلى صرة أخرى فقال: تسمون هذا البرني؟ قلنا: نعم.

فقال النبي ﷺ: «أما إنه من خير تمركم وأنفعه لكم»، قال فرجعنا من وفادتنا تلك، فأكثرنا الغرز منه، وعظمت رغبتنا فيه حتى صار أعظم نخلنا وتمرنا البرني.

من مواقف المروءة:

يحكى أن ثلاثة من الشباب جاؤوا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهم يمسكون برجل وقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل قتل والدنا ، ونريد حقّنا منه.

فسأله أمير المؤمنين عن ذلك، فاعترف بأنه قتل والدهم، ولكنه طلب أمهاله مدة ثلاثة أيام، حتى يرجع إلى أهله وأولاده، ليخبرهم بثروة مدفونة لايعلمها غيره، فقالوا من يضمنك حتى ترجع ، فقال المتهم هذا يضمنني وأشار على الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه فضمنه.

فقاربت المدة المحددة على الانتهاء، وهي الثلاثة الأيام التي طلبها المتهم، وكاد أبو ذر رضي الله عنه أن يقتل بضمانه للرجل، وفي آخر لحظة وصل الرجل، وعليه غبار الطريق، ومشقّة السفر فلما حضر الرجل قال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لم حضرت، وقد كان بإمكانك أن تهرب؟. فقال الرجل المتّهم، الخوف من الله، ومن أن يقال ذهب الوفاء بالعهد والوعد.

ثم قال أمير المؤمنين عمر لأبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه: وأنت يا أبا ذر لم ضمنته حين طلب منك ذلك ولم تكن تعرف الرجل؟ فقال أبو ذر: لقد ضمنته حتى لا يقال ذهب أهل المروءة والكرم، فقال أبناء القتيل: ونحن قد عفونا وسامحنا حتى لا يقال ذهب أهل العفو والمغفرة.

الباب الثامن والعشرون

في علو الهمَّة

إن معالي الأمور وعزّة المسالك، سبيل محفوفة بالمكاره،والعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم،وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم:فلا يخلص إليه الطالب دون أن يقاسي شدائد، ويحتمل متاعب، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضي العزيمة.

قال الشاعر:

والحر لا يكتفي من نيل مكرمة	حتى يروم التي من دونها العطب
يسعى به أمل من دونه أجل	إن كفّه رهب يسعى به رغب
لذاك ما سال موسى ربه أرني	أنظر إليك وفي تسآله عجب
يبغي المزيد وفيما نال مكرمة	وهو الكليم لديه الوحي والكتب

وعظيم الهمّة، يستخف بالرتبة السفلى، ولا تهدأ نفسه إلا حين يضعها في أسمى منزلة، وأقصى غاية،وإذا كان هذه الخلق لا يقع إلا على معالي الأمور، فلا عظمة لهمم قوم، يبتغون النهاية في زينة هذه الحياة الدنيا الفانية، ويغرقون في التمتع بلذاتها المادية القاتلة المهلكة.

ويتكوّن عظم الهمّة من طريق الإقتداء، أو من طريق تلقين الحكمة وبيان فضل عظم الهمة ما يكسب صاحبها من سؤدد وكمال، أو من طريق درس التأريخ والنظر في سير أعاظم الرجال، والتاريخ مليء بتلك المواقف.

وإننا لو أخذنا نبحث عن مفاخر أولئك الذين سجل التاريخ أسماءهم لوجدنا معظم مفاخرهم قائمة على هذا الخلق العظيم الذي نسميه (عظم الهمة) أو (علو الهمة).

والقرآن الكريم يملأ النفوس بعظم الهمّة، وهذا العظم هو الذي حرص أولياء الله، أن يتخذوا ذلك الطريق، لنسف تلك العروش الظالمة، فنسفوها من وجه الأرض نسفاً، ثم رفعوا مكانها لواء العدل والحرية، ففجروا أنهار العلوم لتشمل جميع الناس تفجيراً.

وقال أحد العلماء: إن كبير الهمّة الذي لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبداً لبطنه وفرجه، بل يجتهد أن يتحلّى بمكارم الشريعة الغرّاء،وكبير

الهمة هو من يتحرّى الفضائل، لتكون له خلقاً يتخلق به، لا لجاه ولا لثروة ولا للذّة عابرة، ولا لإستعلاء على الناس، بل الواجب على كبير الهمّة أن يتحرّى مصالح العباد، فيكون في خدمتهم شاكراً بذلك نعمة الله عليه متوخيا به رضاه سبحانه وتعالى، غير مكترث بقلّة مصاحبيه، فإنه إذا عظم المطلوب احتقر المبذول، وقل المساعد وطرق العلاء قليلة الإيناس.

وقال الشاعر يصف صاحبه بعلو الهمة حينما رأى صاحبه مصلوباً:

علو في الحياة وفي الممات لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كمدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت ترعى بحراس وحفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد علاها في السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأس تباعد عنك تعيير العدات
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت فأنت قتيل ثأر النائبات
وكنت لمعشر سعداً فلما مضيت تفرقوا بالمنحسات
غليل باطن لك في فؤادي يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدرت على قيام بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي ونحت بها خلاف النائحات
ولكني أصبّر عنك نفسي مخافة أن أعدّ من الجناة
وما لك تربة فأقول تسقى لأنك نصب هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى برحمات غواد رائحات

ابن مسعود وعلو الهمّة:

ومما جاء في علو الهمّة: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: والذي لا إله غيره ،لقد قرأت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغني الإبل إليه لأتيته.

ويحكى أن أبا صالح أيوب بن سلمان، عكف على كتاب العروض للخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي العماني، حتى حفظه، فسأله سائل عن عكوفه وإقباله على علم العروض بعد أن بلغ من الكبر عتيّاً، فقال أبو صالح أيوب بن سليمان حضرت قوماً يتكلّمون فيه، فأخذني ذلك في نفسي أن لا أشارك القوم فيما يتكلّمون فيه من أبواب العلم، قال الشاعرفي المعنى:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته ليَ سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكنَّ نفس الحر تحتمل الظَّما
أنهنها عن بعض ما لايشينها ... مخافة أقوال العدا فيم أولما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلة ... إذا فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولوعظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

الحاكم النيسابوري وعلّو الهمّة:

وقال أبو عبد الله الحاكم النيسابوري في كتابه: معرفة علوم الحديث، وهو يذكر فضل أصحاب الحديث وطلّابه: هم قوم سلكوا محجّة الصالحين، واتبعوا آثار السلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله ﷺ.

هم قوم آثروا قطع المفاوز والقفار،على التنعم في الدِّمن والأوكار، واستلذوا البؤس في الأسفار مع مساكنة أهل العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار.

لذلك جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها تكاهم،وحصرها فرشهم، نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة وسمرهم المعرضة (أي مقارنة ما كتبوه بما سمعوه) وأراحوا النفوس بالمذاكرة،واتّخذوا خلوقهم المداد، ونومهم السهاد، واصطلاءهم الضياء، وتوسّدهم الحصى.

فصارت الشدائد مع وجود الأسانيد عندهم رخاء، واعتبروا الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤساً فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضاء في الأحوال عامرة، تعلُّم السنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل البدع والإلحاد أعداؤهم.

الذهبي يصف ابن جرير الطبري:

وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة الإمام محمد بن جرير الطبري، قال أبو محمد الفرغاني تلميذ ابن جرير: كان محمد بن جرير الطبري لا تأخذه في الله لومة لائم،مع عظيم ما يؤذى، فأما أهل العلم والدين فغير منكرين علمه وزهده، ورفضه الدنيا وقناعته بما يأتيه من أبيه من طبرستان،قال:ورحل محمد بن جرير الطبري، لما ترعرع وسمح له أبوه بالسفر لطلب العلم، وكان أبوه طول حياته ، يوجه إليه بالشيء بعد الشيء ، إلى أماكن وجوده إلى البلدان، فسمعته يقول :لقد أبطأت مني نفقة والدي واضطررت إلى أن بعت شيئا من ثيابي، ولم يعلم أحد بذلك، وقال الشاعر:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مكالمتي رفيقي
ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق

ومما جاء في وصف عبد الله بن العباس رضي الله عنهما قول الشاعر:

صَمَتّ إذا ما زين الصمت أهله ... وفتاق أبكار الكرام المختم
وعى ما حوى القرآن من كل حكمة ... وسيطت له الآداب باللحم والدم

إنها مواقف جديرة بالاقتداء في علو الهمة، فالشدائد تصقل المواهب، فتظهر بارزة للعيان.

سعد بن أبي وقاص يصف أخاه بعلو الهمة:

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ، يوم بدر يتوارى، فقلت: مالك يا أخي؟. قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ، فيستصغرني فيرّدني، وأنا أحبّ الخروج لعلّ الله أن يرزقني الشهادة، قال: فعرض على رسول الله ﷺ فردّه، فبكى فأجازه، فكان سعد رضي الله عنه يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره، فقتل في نفس غزوة بدر الكبرى، وهو ابن ست عشرة سنة.

وجاء قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٩].

غرس علو الهمّة في قلوب الأولاد:

إن تربية الأولاد على علو الهمّة واجب من واجبات المدرسة، كما هو واجب الأسرة، إذ على المعلم أن يكون قدوة في غرس هذه الصفة الخلقية في قلوب تلاميذه بتطبيقها عملياً، وأن يعمل بمقتضاها لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والله حذر من أن نقول ما لا نفعل بمقتضى ما نقول حيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [سورة الصف: ٢-٣].

فغرس الهمّة العالية في النفوس ليس سهلاً، وإن دور الأسرة وبخاصة الوالدين أو من يقوم مقامهما أهمّ عناصر البيئة تأثيراً في إظهار النبوغ وزراعة الهمّة العالية في قلوب الأطفال، وهذا ما يفسّر لنا سرّ اتصال سلسلة من النابغين من أبناء أسر معينة، لأن الأطفال مادة خام تشكلها كما تريد، فإن وجد الأطفال من يأخذ بأيديهم إلى أحسن السبل حمدوا النتيجة، وإن لم يجدوا من يأخذ بأيديهم انتهوا إلى ما لا تحمد عقباه.

وقد كان الخلفاء والأمراء في طليعة المشجعين لطلبة العلم، وتربيتهم على علوالهمّة، وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يشجع عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب، ويدخله عليه مع من شهد غزوة بدر الكبرى من المهاجرين والأنصار،يقول ابن عباس رضي الله عنهما: كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدخلني مع أشياخ بدر وكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال:

ما تقولون في قول الله سبحانه وتعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي عمر: أكذلك تقول يا ابن عباس؟.

فقلت: لا: قال فما تقول؟. قلت: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه له، فقال: إذا جاء نصرالله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

أبو محجن الثقفي وعلوّ الهمّة:

ويقال إن أبا محجن الثقفي كان مولعاً بشرب الخمر، وحبسه القائد سعد بن أبي وقاص لهذا السبب، وكان أبومحجن ضمن جيش سعد بن أبي وقاص، فلما كان يوم القادسية بين المسلمين والعجم، وعلم أبو محجن ما يلاقي المسلمون من الفرس، وهو مكبّل بالقيود، شكا أمره إلى أم ولد سعد بن أبي وقاص، كيف أن الجميع يجاهدون وأنا مسجون لا أستطيع الإشتراك في الجهاد بسبب القيود والسجن وأنشد قائلاً:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغلقت ... مغاليق من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا أهل كثير وإخوة ... فقد تركوني واحداً لا أخا ليا
هلم سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لاتزداد إلا تماديا

فقالت له أم ولد سعد: أتجعل لي عهداً إن أطلقتك أن ترجع حتى أعيدك في الوثاق؟. قال: نعم. فأطلقته وركب فرس سعد لأن سعداً كان مريضاً وحمل

أبو محجن على الفرس، وسعد يراقب المعركة، فلما رأى سعد فرسه وعليه رجل متلثم قال:لولا أن أبا محجن في الوثاق لظننت أنه أبو محجن وأنه فرسي، وأبو محجن يخترق صفوف الفرس حتى انهزموا، وعاد أبو محجن إلى وثاقه وسجنه،وأعادت أم ولد سعد أبا محجن إلى وثاقه، وأتت سعداً فأخبرته، فأرسل إلى أبي محجن فأطلقه، وقال سعد لا أحبسه أبداً، فقال أبو محجن: أنا والله لا أشرب الخمر بعد اليوم أبداً وأنشد قائلاً:

ألم ترني ودعت ما كنت أشرب ... من الخمر إذ رأسي لك الخير أشيب
وكنت أروي هامتي من عقارها ... إذ الحد مأخوذ وإذ أنا أضـــرب
فلما دروا عني الحـــدود تركتها ... أللحد هذا منك أم أنت تلعب
وقالوا عجيب تركك اليوم قهوة ... كأني مجنون وجلدي أحرب
ســأتــركـهــا لله ثــم أذمّـهـــــا ... وأهجرها في بيتها حيث تشرب

لقد صدق أبو محجن الثقفي في عهده ووعده، فتركها وهذا يدلّ على علّو الهمّة، وطلب المنزلة العالية، وقد أخلص في الجهاد حين طلب من أم ولد سعد أن تطلقه، وتعيره فرس سعد بن أبي وقاص، فصدقه في الأولى، ففتح الله له باب التوبة في الثانية فتاب الله عليه حين تاب وقال:

أتـوب إلى الله الرحـيم فـإنـــه ... غفور لذنب المرء مـا لم يعاود
ولـست إلى الصهباء ما عشت عائداً ... ولا تابعـاً قــول السفيه المعانـد
وكيف وقد أعطيت ربي مواثقاً ... أعود لها والله ذو العرش شاهدي
سأتركها مذمومة لا أذوقهـــــا ... وإن رغمت فيها أنوف حواسدي

الباب التاسع والعشرون

في القيم الأخلاقية

وفادة الخنساء على الرسول:

ومما يحكى عن الخنساء، تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة الفصيحة، الصحابية الشجاعة، أنها قدمت على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم، فأسلمت، وهي القائلة في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لمولانا وسيدنا وإن صخراً إذا نشتوا لنحّار

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وكان النبي ﷺ يعجبه شعرها، ويستنشدها، ويقول: «**إهيه يا خناس**» ويومىء بيده الشريفة ﷺ.

قدوم عدي بن حاتم الطائي:

ولما قدم عدي بن حاتم الطائي على رسول الله ﷺ، وحادثه فقال: يا رسول الله، إن فينا أشعر الناس، وأسخى الناس، وأفرس الناس، فقال له الرسول ﷺ: «**سمهم**».

فقال: أما أشعر الناس، فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس ، فحاتم بن سعد الطائي، يعني أباه، وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول الله ﷺ: «**ليس كما قلت يا عدي: أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو ، وأما أسخى الناس فمحمد ـ يعني نفسه ـ ﷺ، وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب**».

وهذا العائذ بن محصن بن ثعلبة من بني عبد القيس من ربيعة ، الشاعر الجاهلي، من أهل البحرين المعروف بالمثقب العبدي المتوفى حوالي ٣٥ قبل الهجرة، يقول بعنوان قيم أخلاقية:

لا تقولن إذا ما لم ترد أن تتم الوعد في شيء نعم

حَسَنٌ قول نعم من بعد لا وقبيح قول لا بعد نعم

إن لا بعد نعم فاحشة فبلا فابدأ إذا خفت الندم

فإذا قلت نعم فاصبر لها بنجاح القول إن الخلف ذم

لا فإن الذم نقص للفتى ومتى لا يتقي الذم يذم

أكـــرم الجـــار وراعي حقـه　　　إن عرفـــان الفتـى الحق كـرم
لا تـــراني راتــعـاً في مجلـس　　　في لحـو م الناس كـالسبع الضرم
إن شر الـنـاس مـن يشكر لــي　　　حـين يلقانـي وإن غـبـت شتم
وكـــلام سـيء قـــد وقـــرت　　　أذني عـنــه وما بـي من صـمـم
فتـعـزيـت خـشـاة أن يـرى　　　جـاهـل أني كـمـا كـان زعـــم
ولبعــض الصفــح والإعــراض عــن ذي الخـنـا أبقى وإن كـان ظلم

وهذا عمرو بن سعد بن مالك المعروف بالمرقش الأكبر من بكر بن وائل من شعراء الجاهلية، ومن الشجعان المشهورين، توفي حوالي عام ٧٥ قبل الهجرة النبوية يقول:

إنـــا محيوك يـــا سلمى فحيينا　　　وإن سقيت كـرام الـنـاس فاسقينا
وإن دعـــوت إلى جـلى ومكرمة　　　يوماً سراة كـرام الـنـاس فادعينا
إن تبتدر غـــاية يومـاً لمـكـرمـة　　　تـلـق السوابق مـنـا والمصلـينا
وليس يهلك مـنـا سيد أبـــداً　　　إلا ا فتلينا غـلامـاً سيّداً فـــينا
إنا لنرخص يـو م الـروع أنفسنا　　　ولـو نسام بـهـا في الأمـن أغلينا
شعث مفارقنـا تغـلـي مراجلنا　　　نـأ ســـو بـأموالـنـا آثار أيـديـنـا
ألمطعمـو ن إذا هبـت شـآمـيـة　　　وخـيـر نـادٍ رآه الـنـاس ناديـــنـا
إني لمـن معشر أفنى أوائـلـهـم　　　قـيل الكماة ألا أيـن المحا مونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا　　　مـن فـارس؟ خـالهم إياه يعنونا
إذا الكـمـاة تنحـوا أن يصيبهم　　　حـدّ الظّـبـاة وصلناها بأيـديـنا
ولا تراهـم وإن جـلـت مصيبتهم　　　مع البكا ة على من مات يبكونـا
ونـركـب الكـره أحياناً فيفرجه　　　عــنــا الحـفـاظ وأسياف تـواتـيـنا

عمر بن الخطاب يختار قائداً:

وعن معقل بن يسار،أن عمر بن الخطاب ﷺ شاور الهرمزان فقال: ما ترى في الجهاد أأبتدىء بفارس أو بأذربيجان أم بأصبهان؟

فقال الهرمزان: إن فارس وأذربيجان الجناحان،وأصبهان الرأس، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان فأبدأ بالرأس.

فدخل عمربن الخطاب رضي الله عنه المسجد والنعمان بن مقرن رضي الله عنه يصلي، فقعد إلى جنبه، فلما قضى النعمان صلاته، قال له: إني أريد أن استعملك، فقال النعمان: أما جابياً فلا، ولكن غازياً، فقال عمر: فأنت غاز، فوجهه إلى أصبهان.

ويقال إن المغيرة بن شعبة كان مع النعمان،فلما أسرع رمي الفرس في المسلمين، قال المغيرة للنعمان: يرحمك الله ،إنه قد أسرع في الناس الرمي فأحمل، فقال النعمان:والله إنك لذو مناقب، لقد شهد مع رسول الله ﷺ القتال، وكان إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس، وتهبّ الرياح وينزل النصر.

ثم قال النعمان: إني هازٌّ لوائي ثلاث مرات: فأما الأولى ليقضي الرجل حاجته ويتوضأ، وأما الثانية لينظر الرجل في سلاحه وشسعه ليصلحه،وأما الثالثة فأحملوا ولا يلوين أحد على أحد، وإن قتل النعمان فلا يلوي أحد، فإني أدعو الله عز وجل بدعوة، فعزمت على كل امرىء منكم أن يؤمن عليها ، فقال النعمان: اللّهم اعط النعمان اليوم الشهادة في نصر المسلمين وافتح عليهم.

وهزّ النعمان لواءه أول مرة، ثم هزّ الثانية، ثم لبس درعه، ثم هزّ الثالثة فحمل القوم، فكان أول شهيد رضي الله عنه، فقال معقل بن يسار: فأتيت إليه فتذكرت قوله وعزمته، فجعلت عليه علماً، وكان دأبنا كذلك على من قتل حتى سقط قائد الفرس ذوالحاجبين عن بغلته فانشق بطنه، فهزمهم الله، ثم رجعت على النعمان ومعي شيء من الماء فغسلت وجهه ففتح عينيه، فقال: من أنت؟ فقلت: معقل بن يسار، فقال: ما فعل الناس؟ فقلت: فتح الله عليهم، قال: الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر بن الخطاب، ففاضت نفسه رضي الله عنه وقال الشاعر:

لعمرك مـا أهـويت نفسي لـريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لـها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقـلي
ولست بمـاش مـا حييـت لمنـكـر ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثـر نفسي عـلى ذي قـرابـة ... وأوثر ضيفي ما أقام على أهـلي
وأعـلـم أنـي لم تصبني مصيـبـة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

وقال امرؤ القيس:

فلو أن ما اسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمر بن الخطاب امرأة شابة، فقالت: يا أمير المؤمنين: هلك زوجي وترك صبية صغاراً، والله ما ينضجون كراعاً، تقصد أنهم لا يستطيعون أن يطبخوا طعاماً يأكلونه لصغرهم وضعفهم، ولا لهم زرع ولا ضرع وخشيت أن تأكلهم الضبع ، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، قد شهد أبي الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم.

فوقف معها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً، وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه، ثم قال: خذي الجمل وما حمل، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأدري أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نأخذ أنصباءنا من الفيء.

وقال ابن الجوزي: تأمّلت أحوال الناس في حالة علوّ شأنهم فرأيت أكثر الخلق تبين حسراتهم حينئذ، فمنهم من بالغ في المعاصي من الشباب، ومنهم من فرط في اكتساب العلم، ومنهم من أكثر من الاستمتاع باللذات.

فكلهم نادم في حالة الكبر، حين فوات الاستدراك لذنوب سلفت، أو قوى ضعفت أو فضيلة فاتت، فيمضي زمان الكبر في حسرات، فإن كانت للشيخ إفاقة من ذنوب قد سلفت، قال: وا أسفاه على ما جنيت؟ وإن يكن له إفاقة صار متأسفاً على فوات ما يلتذّ به.

أما من أنفق عصر الشباب في العلم، فإنه في زمن الشيخوخة يحمد جني ما غرس،ويلتذّ بتصنيف ما جمع ، ولا يرى ما يفقد من لذات البدن شيئاً بالإضافة إلى ما ناله من لذات العلم.

هـذا مع وجـود لذاته في الطلب،الذي كان يأمل به إدراك المطلوب، وربما كانت تلك الأعمال أطيب مما نيل منها، كما قال الشاعـر:

أهـتـز عــنــد تمنيّ وصلها طرباً ورُبّ أمنيـة أحـلـى من الظفـر

وعـن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قال: هاجر إلى الحبشة رجال من المسلمين،وتجهزأبو بكر مهاجراً؟ فقال النبي ﷺ: عـلى رسلك، فإني أرجـو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: أو تـرجـو ذلك بأبي أنت وأمي؟. قال: نـعم، فحبس أبو بكر نفسه عـلى رسـول الله ﷺ لصحبته، وأعـدَّ راحلتين.

قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيتنا في حرّ الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هـذا رسـول الله ﷺ مقبلا متقنعــاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

فـقال أبو بكـر: فـداً لك بأبي وأمي، والله إن جاء به في هـذه الساعـة إلا لأمر، فجاء النبي ﷺ، فاستأذن له، فـدخل فقال حين دخل لأبي بكر: «**أخرج من عندك**» قال: إنما هـم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال : «**فإني قد أذن لي في الخروج**». قال أبو بكر: فالصحبة بأبي أنت يا رسـول الله؟. قال: نعـم، فـقال أبو بكـر: فخـذ بأبي أنت يا رسـول الله إحدى راحلتي هاتين، فقال رسـول الله ﷺ: «**بالثـمـن**».

الرسول يسأل حساناً عن مدح أبي بكر:

وروى ابن سعد عن الزهري، قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «**هل قلت شيئا في أبي بكر؟**». قال حسان: نعم، فقال رسول الله: «**قل وأنا أسمع**»، فقال حسان:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طـاف العدو به إذ صعـد الجبـلا

وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يـعـدل بـه رجــلا

قال: فضَحِك رسـول الله ﷺ، حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**صدقت يا حسان هو كما قلت**».

وروي أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا فقصّها على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا أبا بكر رأيت كأني استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف، قال: خيراً

يا رسول الله يبقيك الله حتى ترى ما يسرّك ويقرّ عينك، فأعاد الرسول ﷺ ثلاث مرات، فقال أبو بكر: يا رسول الله يقبضك الله إلى رحمته ومغفرته وأعيش بعدك سنتين ونصفاً.

المحبة ما لها وما عليها:

إن المحبّة تدل على اللزوم والثبات، قال ابن فارس: واشتقاق الحبّ والمحبّة من أحبّه إذا لزمه،وقال الراغب الأصفهاني:حببت فلاناً في الأصل بمعنى أصبت حبّة قلبه، نحو: شغفته، وكبدته، وفأدته (أي أصبت شغفته وكبده وفؤاده). وأما قولهم: أحببت فلاناً، فمعناه جعلت قلبي معرضا لحبه، واستعمل حببت، في موضع أحببت، والمحبة إرادة ما تراه وتظنّه خيراً، والاستحباب أن يتحرى الإنسان في الشيء أن يحبّه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [سورة فصلت: ١٧].

ومحبة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبّة العبد لله سبحانه وتعالى طلب الزلفى إليه أي طلب القرب إليه بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه،قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

الرسول يصف المتحابين في الله:

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، أقبل على الناس بوجهه فقال: «**يا أيها الناس إسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، على مجالسهم وقربهم من الله**»، فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس،وألوى بيده إلى نبي الله ﷺ، فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم، وقربهم من الله؟ إنعتهم لنا - أي صفهم لنا-:

فسرّ وجه الرسول ﷺ لسؤال الأعرابي،فقال رسول الله ﷺ: «**هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا**

يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، ويجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة، ولايفزعون وهم أولياء الله، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». أخرجه أحمد والحاكم.

وقال مجنون ليلى قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري:

وقالوا لو تشاء سلوت عنها ... فقلت لهم فإني لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي ... كما علقت بأرشيه الدلاء
لها حب تنشأ في فؤادي ... فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعني ملاماً ... وفي زجر العواذل لي بلاء

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**». أخرجه مسلم

المحبة عند ابن الفارض:

وقال ابن الفارض، أبو حفص عمر بن أبي الحسن بن علي بن المرشد في الحب:

ألا في سبيل الحب حالي وما عسى ... يكن أن ألاقي لو دريتم أحبتي
أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي ... يضركُم أن تتبعوه بجملتي
وجدت بكم وجداً قوى كل عاشق ... لو احتملت من عبئه البعض كلّت
برى أعظمي من أعظم الشوق ضعف ما ... بجفني لنومي أو بضعفي لقوتي
وهى جسدي مما وهى جلدي لذا ... تحمله يبلى وتبقى بليتي
كأني هلال الشك لولا تأوهي ... خفيت فلم تهد العيون لرؤيتي
فجسمي وقلبي مستحيل وواجب ... وخدي مندوب لجائز عبرتي
وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن ... أمور جرت في كثرة الشوق قلّت
نحرت لضيف الطيف في جفني الكرى ... قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي
وأبعدني عن أربعي بعد أربع ... شبابي وعقلي وارتياحي وصحتي
فلي بعد أوطاني سكون إلى الفلا ... وبالوحش أنسي إذ من الإنس وحشتي

المحبّة أنواع وضروب:

وقالوا عن المحبّة بأنها أنواع وضروب، وأفضلها محبّة المتحابّين في الله عز وجل، وأن يحبّ المرء من يحبّه لله وحده، فالمحبة في الله أفضل وأدوم، لأنّ من أحبّ من أجل مصلحة تنتهي المحبّة بتحقيق تلك المصلحة، فما بُنِيَ على المادي انتهى بانتهاء المادة التي هي دواعي المحبّة، وما بُنِيَ على الأرواح تعانقت الأرواح وإن تباعدت الأشباح.

وقال الحسن البصري: ادّعى قوم محبّة الله، فانزل الله آية المحبة فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة آل عمران: ٣١-٣٢].

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، إشارة إلى دليل المحبّة وثمرتها، وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتّباع الرسول ﷺ، وفائدتها وثمرتها محبّة المرسل إليكم، فلما لم تحصل المتابعة فليست محبّتكم له حاصلة ومحبّته لكم منتفية.

وهذا ابن الفارض يصف الحب بقوله:

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل ... فما اختاره مضنى بـه وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عنـاً ... وأوله سقم وآخره قـتـل
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به ... شهيداً وإلا فالغرام له أهـل
فمن لم يمت في حبه لم يعش به ... ودون اجتناء النحل ما جنت النحل
وقل لقتيل الحب وفيت حـقه ... وللمدعي هيهات ما الكحل الكحل
أحـبة قلبي والمحبة شافعي ... لديكم إذا شئتم بها اتصل الحبل
أحباي أنتم أحسن الدهر أم أسىً ... فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخِل

المحبّة سبب انتظام الأمور:

وقال الراغب الأصبهاني: المحبّة والعدل من أسباب نظام أمور الناس، ولو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبّة، لاستغنوا بها عن العدل، فقد قيل: العدل خليفة المحبّة، يستعمل حيث لا توجد المحبّة، ولذلك عظّم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبة

بين أهل الملة، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ [سورة مريم: ٩٦]. أي محبّة في القلوب تنبيهاً على أن ذلك أجلب للعقائد، وهي أفضل من المهابة، لأن المهابة تنفر القلوب، والمحبّة تؤلف القلوب.

وقالوا: طاعة المحبّة أفضل من طاعة الرهبة، لأن طاعة المحبّة من داخل القلب، وطاعة الرهبة من خارجه، وهي تزول بزوال أسبابها، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا، وإذا تواصلوا تعاونوا، وإذا تعاونواعملوا، وإذا عملوا عمروا، وإذا عمروا عمروا وبورك لهم.

وعن أبي ذرالغفاري ﵁، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاده، وأن أبا ذرّ عاد رسول الله ﷺ، فقال: بأبي ذر أنت يا رسول الله، أي الكلام أحب إلى الله؟.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما اصطفاه الله لملائكته: سبحان ربي وبحمده، سبحان ربي وبحمده**». أخرجه الترمذي

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال :قال رسول الله ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يحبّهما الله: الحلم والأناة**». أخرجه مسلم

وقال مجنون ليلى قيس بن الملوّح:

وجدت الحب نيرانا تلظى ... قلوب العاشقين لها وقود
فلو كانت إذا احترقت تفانت ... ولكن كلما احترقت تعود
كأهل النار إن نضجت جلود ... أعيدت للشقاء لهم جلود

وعن أنس بن مالك ﵁، أن رجلاً كان عند النبي ﷺ، فمّر به رجل، فقال: يا رسول الله، إني لأحبّ هذا، فقال له النبي ﷺ: «**أعلمته؟**» قال: لا قال: «**أعلمه**» فلحقه، فقال: إني أحبّك في الله، قال له الرجل: (أحبك الله الذي أحببتني له). أخرجه أبو داود

وعن رجل من بني سليط، قال: أتيت النبي ﷺ، وهو في جماعة من الناس، فسمعته يقول: «**المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ وأشار إلى صدره ـ وما توادّ رجلان في الله تبارك وتعالى فيفرّق بينهما إلّا بحدث يحدثه أحدهما**». أخرجه الإمام أحمد

وعن أبي هريرة ﷺ قال:قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ،ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلاَ أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ إفشوا السلام بينكم**» .أخرجه مسلم

المحبة عند الجاحظ:

وقال أبو عثمان الجاحظ : ينبغي لمحبّ الكمال أن يعوّد نفسه محبّة الناس والتودّد إليهم والتحنّن عليهم، والرأفة والرحمة لهم، فإن الناس قبيل واحد متناسبون، تجمعهم الإنسانية، وحلية القوة الإلهية هي في جميعهم، وفي كل واحد منهم، وهي قوة العقل، وبهذه النفس صار الإنسان إنساناً.

وإذا كانت نفوس الناس واحدة، والمودة إنما تكون بالنفس، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، وذلك في الناس طبيعة ولو لم تقدم الأهواء التي تحبب لصاحبها الترؤس فتقوده إلى الكبر والإعجاب، والتسلط على المستضعف واستصغار الفقير، وحسد الغني، وبعض ذوي الفضل، فتسبب من أجل هذه الأسباب العداوات ، وتتأكد البغضاء بينهم.

فإذا ضبط الإنسان نفسه الغضبية، وانقاد لنفسه العاقلة صار الناس كلهم له إخواناً وأحباباً، وإذا أعمل الإنسان فكره رأى أن ذلك واجب عليه، لأن الناس إما أن يكونوا فضلاء، أوغير فضلاء، فالفضلاء يجب عليهم محبتهم لموضع فضلهم، وغير الفضلاء يجب الرحمة بهم لما جبلوا عليه من نقص الأخلاق، فيحقّ لمحبِّ الكمال أن يكون رحيماً لجميع الناس، متحنناً عليهم رؤوفاً بهم.

وجاء في الحديث النبوي الشريف،فعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ : متى الساعة يا رسول الله؟.

قال رسول الله: «**ما أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثيرصلاة، ولا صوم، ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. قال له : «**أنت مع من أحببت**» .

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، أن رجلاً زار أخاً له في قرية ، فأرصد الله له (أي جعل من يرقبه على طريقه) ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال الرجل: أريد أخاً لي في هذه القرية.

قال له: هل لك عليه من نعمة تربها (أي تقوم بإصلاحها)؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك، فإن الله قد أحبك كما أحببته فيه. أخرجه مسلم

وقال الشاعر:

تنكر حال علتي الطبيب	وقال أرى بجسمك ما يريب
جسست العرق منك فدل جسمي	على ألم له خبر عجيب
فما هذا الذي بك هات قل لي	فكان جوابه مني النحيب
وقلت: أيا طبيب الهجر إني	وقلبي يا طبيب هو الكئيب
فحرك رأسه عجباً لقولي	وقال: الحب ليس له طبيب
وأعجبني الذي قد قال جدًّا	فقلت بلى إذا رضي الحبيب

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال يوم خيبر: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله**».

قال: فبات الناس يذكرون ليلتهم (أي في تساؤل) أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: «**أين علي بن أبي طالب؟**».

فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**» فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية، فقال علي : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا (أي مسلمين).

فقال رسول الله ﷺ: «**أنفذ على رسلك حتى تنزل ساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام ،وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم**».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «**يا معاذ والله إني لأحبّك ، والله إني لأحبّك**». فقال : «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول :اللّهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**».

الإعـتراف بالفضـل :

يحكى أن إبراهيم بن أدهم، إذا صنع له أحد معروفاً حرص على أن يكافئه على معروفه، بأفضل مما قدّم له من معروف،وإن لم يستطع كافأه بالمثل.

قال أحد أصحاب إبراهيم بن أدهـم، كنت قادماً من الرملة ذاهباً إلى بيت المقدس، راكباً على حمار، فلقيني إبراهيم بن أدهـم، وقـد اشترى تفاحاً وسفرجلاً وخوخاً، وأنواعا من الأطعمة، فقال لي: أحبّ أن تحمل هـذا لهذه، فإذا بامرأة عجوز يهودية تسكن في كوخ لها، فقال: أن توصل هـذا إليها فإنني مررت بها وأنا أمشي ، فبيَّتتني عندها فأحبّ أن أكافئها على صنيعها ذلك.

وقال الشاعر:

ومن يُسْدِ معروفا إليك فكن له　　　شكوراً يكن معروفه غير ضائع
ولا تبخلنَ بالشكر والقرض فاْجزه　　　تكن خير مصنوع إليه وصانـع

وقال أحدهم: إن الواجب على المرء أن يشكر النعمة التي وصلت إليه بغير حول مِنّة وقوّة، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته إن قـدر فبالضعف، وإلا بالمثل، وإلا بالإعتراف بالفضل لذوي الفضل، الذي أسدى إليه تلك النعمة، ولا يقابل ذلك بالجحود، وأولى بالشكر والاعتراف له بالفضل هو الله وحده ،ومن لايشكر الناس على معروفهم لا يشكر الله، وماذا ينقص لديه إن بذل الشكر وقال: جزاك الله خيراً وزادك من واسع فضله.

وقال الشاعر:

علامة شكر المرء إعلان حمـده　　　فمن كتم المعروف منهم فما شكر
إذا ما صديقي نال خيراً فخانني　　　فما الذنب عندي للذي خان أو فجر

والإسلام حثّ ويحثّ على هذا الطريق، طريق الاعتراف بالفضل، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

والله سبحانه وتعالى لا شكّ هو صاحب الفضل الأول، فهو المنعم في الأولى تفضلاً، وبيده في الآخرة الجزاء تكرّما لمن شكر، وآمن وعمل صالحاً وقال: إنني من

المسلمين، واستمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فاطر ٣٢-٣٥].

فانظر أيها العاقل المتبصّر كيف قسم الله تبارك وتعالى الناس إلى ثلاثة أقسام:

فالقسم الأول: هو الظالم لنفسه، بالتقصير في العمل والتقصير في العمل جحود لفضل المنعم، على ما أنعم به على هذا القسم من الناس. إذاً من هنا جاء الحكم بأنه ظالم لنفسه.

القسم الثاني: المقتصد أن يتخذ طريقاً وسطاً، يعمل بما أمر به في أغلب الأحيان، وذلك يعتبر اعتراف بالفضل لصاحب الفضل، وهو الله، وإن شابه بعض التقصير، فهو القسم الوسط.

القسم الثالث: وهذا القسم هو السابق بالخيرات، وهو القسم المحبب إلى الله وإلى الناس جميعا لسبقه بالخير والفضل، فهو شاكر عامل معترف بفضل الله عليه، وهذا الصنف هو المختار، وذلك بفوزه بقصب السبق على الأصناف الأخرى، فتبوأ تلك المنزلة العالية، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة فاطر ٣٤-٣٥].

ودار المقامة: هي دار الإقامة الدائمة ، والدائم ما فيها وهي الجنة، وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة نوم؟.

قال النبي ﷺ: «**ألا إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت**» . قال الرجل: فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «**ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة**» فنزلت الآية : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ . [سورة فاطر: ٣٥].

وقال الشاعر:

أحق الناس منك بحسن عون لمن سلفت لكم نعم عليه
وأشكرهم أحقهم جميعاً بحسن صنيعة منكم إليه

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ﷺ، أنه قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس الغنائم في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا في أنفسهم شيئاً (أي دار في خاطرهم) إذ لم يصبهم ما أصاب الناس من الغنائم.

وعن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما أصبت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك،وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي.

قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا وجاء آخرون فردّهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «**يا معشر الأنصار: ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم**»، قالوا: بلى، لله ولرسوله المن والفضل.

ثم قال : «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل، قال ﷺ: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك،**

وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشرالأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟.

فالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى اخْضَلَّت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا. أخرجه البخاري ومسلم

إنه موقف عظيم يتجلّى فيه اعتراف الرسول ﷺ بفضل الأنصار، واعتراف الأنصار بفضل الله ورسوله عليهم،ثم ما أكرمهم به رسول الله ﷺ، فالرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم، لأنه سبب لخروجهم من الظلمات إلى النور، ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سور الأحزاب: ٦].

وقد اعترف المهاجرون بفضل الأنصار عليهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنورة أتاه المهاجرون، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى خفنا أن يذهبوا بالأجركله، فقال النبي ﷺ: «**لا، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم**». أخرجه أبو داود والترمذي

موقف أبي بكر من عمر:

وهذا موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من عمر بن الخطاب، وموقف عمر بن الخطاب من أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: فعن أبي الدرداء ﷺ، أنه قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدىعن ركبتيه، فقال النبي ﷺ: «**أما صاحبكم فقد غامر**»،أي خاصم فلما وصل سلم، وقال: يا رسول الله: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه، ثم ندمت،فسألته أن يغفر لي فأبى علي، فأقبلت إليك.

فقال النبي ﷺ: «**يغفر الله لك يا أبا بكر ـ ثلاثاً ـ ثم إن عمر بن الخطاب ندم**»، فأتى منزل أبي بكر، فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبي ﷺ، فلما

وصل عمر بن الخطاب تغيّر وجه رسول الله ﷺ فغضب على عمر حتى أشفق أبو بكر على عمر من موقف الرسول، فجثى أبو بكر على ركبتيه أمام رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم (مرتين).

فقال النبي ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت وقال أبو بكر صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟**» (مرتين) فما أوذي أبو بكر بعدها. أخرجه البخاري

فهل هناك موقف أفضل من موقف رسول الله ﷺ، للاعتراف بفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكيف غضب الرسول على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أجل أبي بكر،ومن هو عمر بن الخطاب وهل هناك أحد يأتي بعد أبي بكر من عمر، ومواقفه في سبيل الله وبلائه في نصرة دين الله.

ومما أوصى به لقمان الحكيم ولده قائلا له: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء، وقال الله تعالى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩].

الأدب قبل العلم:

يحكى عن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال :كفى بالأدب شرفاً أنه يدّعيه من لا يحسنه،ويفرح إذا نسب إليه، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه وينفيه عن نفسه من هو فيه، ويغضب إذا نسب إليه، وقال الشاعر:

ويكفي خمولاً بالجهالة أنني   أراع متى أنسب إليها وأغضب

وقال الإمام علي كرم الله وجهه: قيمة كل إنسان ما يحسن، فأخذ أحد الشعراء المعنى فقال:

قال علي بن أبي طالب   وهو اللبيب الفطن المتقن

كل امرىء قيمته عندنا   وعند أهل العلم ما يحسن

والأدب يتفرع إلى فروع، وأنواع شتى ومنها: الأدب مع الله عزّ وجلّ والأدب مع الرسول ﷺ، والأدب مع العلماء، والأدب مع الحكام، والأدب مع الناس، والأدب مع النفس، والأدب مع الأهل والأولاد، تلك هي بعض المواقف التي يحتاج إليها الإنسان أن يتعامل مع الفئات البشرية، كل فئة وأدبها.

والأدب مع الله عزّ وجلّ أن لا يفقدنا مما أمرنا به، وأن لا يجدنا فيما نهانا عنه، أو بعبارة أخرى،أن لا يفقدنا من مواطن محبوباته، وأن لايجدنا في مواطن مكروهاته، وقال بعضهم: المقصود أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه،والتأدّب بآدابه ظاهراً وباطناً، ولا يستقيم ذلك إلا بإحدى ثلاث: معرفته بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحبّ، وما يكره، ونفس مستعدة قابلة متهيئة لقبول الحقّ علماً وعملاً واعترافاً وتأدية.

ومن الأدب مع الله سبحانه وتعالى: التأدب مع القرآن الكريم، تلاوة وتدبرا، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [سورة محمد: ٢٤]، لأن في ذلك: العلم والمعرفة بما أمر به الله عز وجل عباده، ونهى عنه، وتعظيم شعائر الله، وعدم انتهاك محارمه.

والتدبر للقرآن الكريم، يوصل إلى أفضل السبل والسمو الروحي، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢].

ومن الأدب مع الله سبحانه وتعالى، التوجه إليه بالدعاء والتضرع لقضاء الحاجات، وطلب العون والتوفيق منه سبحانه، والله علّمنا أن نقول بل ونعتقد: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود: ٨٨].

ودعاء المؤمن لله أن يكون المؤمن واثقاً من إجابة الله لدعائه لأن الله قال في كتابه العزيز: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [سورة غافر: ٦٠]. وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [سور الفرقان: ٧٧]. وهذا رسول الله ﷺ، وهو يدعو الله أن يعينه على الشكر والذكر وحسن العبادة حيث قال: «**اللّهم أعِنّي على ذكرك**

وشكرك وحسن عبادتك»، ولنا برسول الله أسوة حسنة، وحقيقة الأدب هو الأخذ بمكارم الأخلاق في جميع المواقف، وقد صدر بعض المفسرين أدب الرسول مع الله عزوجل يقول الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [سورة النجم: ١٧-١٨]، فقال: إن هذا وصف لأدب رسول الله ﷺ في ذلك المقام العظيم إذ لم يلتفت جانباً ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى غير ذلك طغيان وتجاوز، ولذلك جاء الوصف اللائق به ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [سورة النجم ١١-١٢]. وهي شهادة إلى أدب التبليغ بغير زيادة أو نقصان ﷺ. وقال الشاعر في قول الإمام علي بن أبي طالب:

(قيمة كل امرىء ما يحسن):

حسود مريض القلب يخفي أنينه ... ويضحي كئيب البال عندي حزينه

يلوم على أن رحت في العلم راغباً ... وأجمع من عند الرواة فنونه

فأعرف أبكار الكلام وعونها ... وأحفظ مما استفيد عيونه

ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ... ويحسن بالجهل الذميم ظنونه

فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

إن الرجل منا يجب عليه أن يتعلّم الأدب قبل أن يتعلّم العلم، فالعلم لا ينال إلا بأدب السؤال، وأدب المجالسة ، وأدب الصحبة، وأدب المعاشرة.

أخلاق المُصْطَفين الأخيار:

لذلك كانت حلية المصطفين الأخيارالأدب، فمن تحلّى بالأدب تحلّى بمكارم الأخلاق، وفي الحديث النبوي الشريف يقول الرسول الكريم ﷺ: «**إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن تسعونهم بأخلاقكم**».

وٱنظر إلى مواقف الأنبياء والرسل صلى الله عليهم أجمعين مع الله سبحانه وتعالى ، فهذا أبوالأنبياء إبراهيم خليل الرحمن يقول كما حكى الله في كتابه العزيز: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [سورة الشعراء: ٧٧-٨٠]، ولم يقل: وإذا أمرضني تأدبا مع الله سبحانه وتعالى.

واستمع إلى أدب العبد الصالح يخبر النبي موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩﴾ [سورة الكهف: ٧٩]، ولم يقل فأراد ربك أن أعيبها تأدباً مع الله، بينما قال في الغلامين كما حكى الله ذلك في كتابه العزيز: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [سورة الكهف: ٨٢].

إنها الآداب العالية التي وردت في كتاب الله، والمؤمن الحقّ هو الذي يتحلّى بهذه الآداب، والرسول ﷺ، يقول في الحديث النبوي الشريف: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»، فكيف لا يكون الرسول الكريم متميزاً بتلك الآداب، ويتبوأ تلك المنزلة العالية من الأخلاق ، وقد وصفه الله الذي يعلم السرّ وأخفى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة القلم: ٤].

ولما سئلت أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [سورة التحريم: ٦].

بمعنى: أدبوهم، وعلموهم، وهذه اللفظة مؤذنة بالاجتماع ، فالأدب اجتماع خصال الخير في الإنسان، ومنه مأدبة الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وهذا النبي موسى عليه السلام يقول بأدب مع الله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٤].

وهذا موقف النبي آدم عليه السلام الذي يدل على الأدب مع الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣]، ولم يقل: رب قدرت عليّ وقضيت عليّ.

وموقف النبي أيوب عليه السلام، يدل على الأدب مع الله سبحانه وتعالى، إذ لم يقل: عافني واشفني، وإنما عرض حاله، قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣]، إنه الأدب مع الله، والله أعلم بعباده، فهو لا تخفى عليه خافية، فجاء الجواب من الله حيث قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٤].

وهذا موقف الصديق يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وما قال لأبيه، وإخوته، ورغم موقف إخوته منه، قال الله تعالى حكاية عن النبي يوسف ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠].

فقال: ﴿أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولم يقل من الجبّ حفاظاً للأدب مع إخوته، وحتى لا يثير حفيظة أبيهم عليهم عندما يخبره بأنهم رموه في الجبّ.

وقال: (وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ) ولم يقل: إنه أضرتكم الشدائد وجئتم إليّ وأحسنت إليكم لرفع الجهد والجوع والحاجة عنكم، تأدباً مع أبيه وإخوته وأضاف ما جرى إلى السبب ،ولم يضفه إلى المباشر الذي هو أقرب الناس إليه منه.

وقال : ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾، فأعطى الفتوة والكرم والأدب حقه، ولهذا لم يكن كمال هذا الخلق إلا للأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وعلى نبينا أجمعين، ذلك الأدب الذي يحثّ عليه الإسلام المسلمين ، وتلك هي الأخلاق الفاضلة والمزايا الكاملة.

من توجيهات الرسول في الأدب:

ومن توجيهات الرسول محمد ﷺ، في الأدب يقول:

«على الرجل أن يستر عورته، وإن كان خالياً لايراه أحد أدباً مع الله على حسب القرب والبعد منه ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظيمه وإجلاله وشدة الحياء منه ومعرفة وقاره».

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء الأدب أحد في الباطن إلا عوقب في الباطن، وقال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وقد أرشدنا الله في كتابه العزيز على احترام الرسول الكريم ﷺ والأدب معه، فمن الأدب مع الرسول الكريم بأن لا يتقدّم أحد بين يديه بأمر أو نهي، ولا يأذن ولا يتصرف حتى يأمر وينهى ﷺ، ويبلغ فقال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحجرات: ١].

وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تتقدَّم بين يدي الإمام، وبين يدي الأدب أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه. وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى.

وقد حذر الله المؤمنين حتى عن رفع أصواتهم فوق صوته ﷺ، وجعل رفع الصوت على صوته سبباً لإحباط العمل، فما ظن من يكذب عليه أو يرد سنته وأمره مخالفاً لأمره ونهيه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [سورة الحجرات: ٢-٣].

وقد حذرنا الله سبحانه وتعالى أيضاً من أن يكون الكلام مع الرسول ﷺ ككلام الناس بعضهم لبعض، وإنما يكون بالتقدير والتعظيم، ومن تعظيم الله لرسوله ومنزلته عنده، أنه لم يخاطبه باسمه مجرداً من النبوة أو الرسالة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [سورة الأنفال: ٦٥]، وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [سورة التحريم: ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨]،

وقـــال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦].

وقال الله تعالى مخاطباً نبيه بقوله: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [سورة المائدة: ٤١]، فهذا تقدير الله لرسوله، وذلك لمنزلة الرسول عند الله، فأين نحن من هذا الأدب العظيم، إنه لتعليم لنا معشر المسلمين حتى يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما؟

وقد خاطب الله سبحانه وتعالى سائر رسله بأسمائهم، فهذا شيخ المرسلين النبي نوح عليه السلام، خاطبه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ [سورة هود: ٤٦]،وقال أيضاً: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [سورة هود: ٤٨].

وخاطب سيدنا إبرهيم عليه السلام بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [سورة هود: ٧٦].

وخاطب الله سيدنا زكريا بقوله : ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم:٧]، وخاطب النبي يحيى بقوله تعالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ١٢]

وليس ذلك تحقيراً أوتنقيصاً، من قيمة ومنزلة من اصطفاهم الله من الأنبياء والرسل معاذ الله، ولكن لنعلم منزلة الرسول محمد ﷺ والله هو الذي قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٣].

إن الله هو المنعم المتفضل على عباده، تكرماً منه سبحانه وتعالى، ولكن إذا أنعم الله على عبد نعمة يريد أن يرى أثرها عليه، وأن يربط النعمة بالشكر، وتوظيفها لما فيه خَيْرَي الدّنيا والآخرة ، وأن ينفع بها الآخرين، ولكن بعض من أنعم الله عليهم بنعمة من نعمه يضنّ بها على الآخرين، معتقداً أن تلك النعمة ما خصه الله بها إلا لعلو منزلته عند الله،وما علم أنها ابتلاء من الله سبحانه وتعالى.

من يتَّقِ الله يجعلْ له مخرجاً:

يحكى أن قوماً ركبوا البحر، فبينما هم يسيرون في لجّة البحر، سمعوا هاتفاً يهتف بهم يقول: من يعطيني عشرة آلاف درهم حتى أعلمه كلمة تنفعه وتنقذه إذا أصابه غمّ، أو أشرف على هلاك، فقالها انكشف عنه ذلك؟.

فقام رجل ممن ركب معهم في السفينة معه عشرة آلاف درهم، فقال: أيها الهاتف أنا أعطيك عشرة آلاف درهم، علّمني تلك الكلمة.

فقال الهاتف: إرم بالعشرة آلاف درهم في البحر، فرمى الرجل الدراهم في البحر، وإذا بالهاتف يقول له: إذا أصابك غمّ أو أشرفت على الهلاك فٱقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [سورة الطلاق: ٢-٣]

فقال جميع من في السفينة: لقد ضيعت مالك، فأنت مجنون تشتري كلاماً وتصدق هاتفاً، فقال الرجل بكل ثقة إن هذه عظة لا أشكّ في فائدتها، وأنا متوكّل على الله، فحسبي الله ونعم الوكيل.

ثم أخذت السفينة تمخر عباب البحر، فهبّت ريح عاصف فتقاذفت الأمواج السفينة، فغرقت السفينة بمن فيها، فلم ينج من ركابها إلا صاحب العشرة آلاف درهم، إذ وجد نفسه قاعداً على لوح من ألواحها، فأخذت الأمواج ترفعه مرة وتخفضه تارة أخرى.

فحدث الرجل بعد ذلك، فقال: بعد فترة وأنا في صراع مع الأمواج ممسكاً باللّوح، إذا بي تتراى لي جزيرة في وسط البحر فاتّجهت عليها، فلما نزلت في الجزيرة ٱرتحت قليلاً، ثم مشيت فرأيت قصراً عالياً منيفاً، فقصدته فوجدت بابه مفتوحاً، فدخلته، فإذا فيه من كنوز البحر من اللؤلؤ والجواهر، شيء كثير، ووجدت في القصر امرأة حسناء لم أر قط أحسن منها.

فقلت لها: من أنت؟ وما قصتك؟، وأي شيء تعملين هاهنا؟ قالت: أنا فلانة بنت فلان التاجر بالبصرة، وكان أبي من كبار التجار، وكان لايصبر عنّي ورغبت

في السفر فسافر بي معه في البحر، فغرقت السفينة فما أفقت مما أصابنا إلا وأنا في هذه الجزيرة، فخرج إليّ شيطان من البحر فأصبح يتلاعب بي منذ سبعة أيام، وأنا أتأذى من ملامسته لي وملاعبته بي، وأذيّتي، ثم ينزل إلى البحر، وهكذا دأبه معي، وهذا وقت طلوعه من البحر فاتّق الله في نفسك عن أن يصيبك بسوء، وما إن أتمت كلامها حتى رأيت ظلمة هائلة، فقالت: ها هو قد جاء فاحتل لنفسك، وإلا الهلاك والدمار لي ولك.

فلما قرب مني وكاد أن يغشاني قرأت الآية الكريمة التي اشتريتها بعشرة آلاف درهم، وأنا على ظهر السفينة، فإذا به قد خرّ كقطعة حبل تحوّل رماداً من أثر الاحتراق.

فلما رأت المرأة ذلك الحدث، قالت : والله لقد هلك الشيطان ، ونجونا بفضل الله، وكفانا الله شره، فمن أنت يا هذا الذي منَّ الله عليّ بك وكنت سبباً لإنقاذي من ذلك الشيطان الرجيم؟.

وبعد أن خلّصنا الله بفضله، قمت أنا وهي فانتخبنا من تلك الكنوز والجواهر ما خف ثقله وغلا ثمنه، ولما جمعنا ما اخترناه من تلك الكنوز، تحولنا إلى الساحل نراقب لعلّنا نرى سفينة قادمة طول النهار، فإذا أقبل الليل رجعنا إلى القصر فمكثنا أياماً لم نر سفينة، ثم تراءت لنا سفينة من بعيد فلوّحنا لها بأيدينا، فلما وصل صاحب السفينة بسفينته إلينا طلبنا منه أن يحملنا إلى البصرة بعد أن نجانا الله مما نحن فيه، فلما وصلنا إلى البصرة نزلنا في منزلي فوصفت المرأة لي منزل أهلها، فقلت لها: امكثي حتى أخبر أهلك.

فذهبت إلى منزل أهلها فطرقت باب بيتهم، فخرج أحد إخوتها، فقال: تفضل أدخل، فقلت: لا أدخل، وأنا رسول فلانة بنت فلان الفلانية، فما إن سمع من بالمنزل من أهلها حتى بكوا، وقالوا: لقد جدّدت مصابنا بذكرها.

فقلت لهم: لا داعي للبكاء وهي حيّة ترزق ، فتفضّلوا معي لتأخذوها، فجاء أهلها وهم بين مصدّق ومكذّب، فلما رأوها كادوا يموتون فرحاً، وسألوها عن خبرها، فأخبرتهم بذلك، وطلبت أن يزوجوني بها، فوافقوا على ذلك، فتزوجتها فرزقني الله منها الأولاد والمال، وعشنا في سعادة وهناء، وأنا اليوم أيسر أهل البصرة.

الخاتمة

نحمد الله تبارك وتعالى، على عونه وتوفيقه، بأن يسَّر لجمع شتات هذه المجموعة الأولى من هذه السلسلة، والتي هي بعنوان: **أخلاق عربية حثّ عليها الإسلام**، أرجو من الله أن يسهل وصولها إلى القارىء الكريم، الذي يهمه معرفة تلك المواقف من الأخلاق العربية، والمواقف النبيلة، وهي لا تخلو من فائدة، وما حثني على تقديمها بهذه الصورة غير المرتبة إلا رغبة في الاسترشاد، بملاحظات الإخوان، الذين لهم قَدَمَ صدق في التأليف والبحث والتحقيق، والتدقيق بمحض النصيحة، ولعل تلك النصائح تكون عوناً لي، وتشجيعاً لمواصلة جمع وترتيب وتبويب تلك الأوراق، المتفرقة زماناً ومكاناً، وقد ورد عن الصا دق المصدوق صلى الله عليه وسلم، عن تميم الدارمي ﵁، أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**»، قلنا لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» رواه مسلم، باب بيان أن الدين النصيحة.

لذا أرجو من الإخوان أن لا يبخلوا عليَّ بنصائحهم ، وتوجيهاتهم والمؤمن مرآة لأخيه، جعل الله ذلك في ميزان حسنات الجميع ، وإنني أَعِدُ القراء (إن شاء الله) بتقديم باقي السلسلة، وذلك بإعداد المجموعة الثانية للطباعة ، عندما تتيسر سبل ذلك.

وفَّق الله الجميع لما فيه خير الدّنيا والآخرة، والله من وراء القصد وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ناصر بن محمد بن راشد الزيدي
مسقط، الإثنين ١١ رجب ١٤٢٩ هـ
الموافق ١٤يوليو٢٠٠٨م
المراجعة النهائية يوم الاحد ١٤٣٠ هـ
الموافق ٨ يناير ٢٠٠٩ م

الفهرس العام

الموضوع | الصفحة

السيرة الذاتية

ناصر بن محمد بن راشد بن حمد الزيدي

(بيا ن مختصر للسيرة الذاتية ، الخاصة بالمواطن العماني / ناصر بن محمد بن راشد الزيدي).

الاسم / ناصر بن محمد بن راشد بن حمد الزيدي .

مكان الولادة / محلة العقر بنزوى / ولاية نزوى .

تاريخ الولادة / ١٨ / ١١ / ١٩٤٦ م (تقدير السن).

الشهادات العلمية / الثانوية العامة (دراسات إسلامية) من معهد الحياة الثانوي بالقرارة ميزاب (الجمهورية الجزائرية) تاريخها ١٩٦٧ م .

تفصيل أماكن الدراسة:

سلطنة عمان / ختم القرآن، ومبادىء النحو والفقه / جامع نزوى. قبل عام: ١٩٥٩ م .

المملكة العربية السعودية / المنطقة الشرقية مدينة الدمام مابين: (١٩٦٠-١٩٦٢ م).

مصر / القاهرة / (١٩٦٢ - ١٩٦٤ م).

الجزائر / القرارة: (١٩٦٤ - ١٩٦٧ م).

الوظائف:

مسؤول عن الطلبة العمانيين بالقاهرة : (١٩٦٢ - ١٩٦٤م).

مسؤول عن الطلبة العمانيين بالجزائر : (١٩٦٦ - ١٩٧٤م).

نائب مأمور بلدية نزوى : (١٩٧١ - ١٩٧٣ م).

موظف إداري بسفارة سلطنة عمان بالجزائر: (١ / ٩ / ١٩٧٤ حتى ٣٠ / ٩ / ١٩٨٧م).

أهم الأعمال بالسفارة:

(حسابات السفارة، وإعداد الموازنة السنوية، وإدارة شؤون الأرشيف والمحفوظات وإعداد كشوف الحسابات الشهرية حسب البنود الخاصة بالموازنة العامة، ونسخ التقارير بجميع أنواعها وكتابة المراسلات، وتدوين الصادر والوارد من التقارير والرسائل والمذكرات.

إعداد الحقيبة الدبلوماسية، وإرسالها، واستلام الحقيبة الواردة من وزارة الخارجية إلى السفارة، القيام بالمعاملات الخاصة بالسفارة لدى البنوك واستلام الطرود البريدية، سواء الوارد عن طريق الجمارك، أو المطار، أو البريد العادي.

العمل بوزارة التربية والتعليم ما بين: (٢٨ / ١١ / ١٩٨٧إلى ٢٦ / ١٢ / ٢٠٠٩م):

رئيس قسم المعاهد الإسلا مية الإعدادية بالجوامع: (١٩٨٧ إلى ١٩٩٣م).

المشاركة في: تصحيح المناهج، ومراجعتها أثناء الطباعة، وإعداد القوائم الخاصة بتوزيع الكتب على المعاهد.

رئيس اختيار الطلبة الجدد، قبل افتتاح العام الدراسي، إعداد امتحانات صفوف النقل الأول والثاني، لطلبة المعاهد الإسلامية الإعدادية.

أما امتحانات الإعدادية العامة، فدائرة الامتحانات بالوزارة هي التي تقوم بإعدادها، كذلك اختيار الهيئات التدريسية للمعاهد، واستقبالهم وتذاكرسفرهم وترحيلهم في العطلة الصيفية، والإجراءات الرسمية سواء ما يتعلق بالإقامة. أو ما يتعلق بالعلاج، القيام بالزيارات الميدانية ، وإشراك بعض الموجهين، سواء منهم موجهو دائرة التربية الإسلامية ، أوموجهو المناطق التعليمية.

كذلك توزيع الأدوات القرطاسية لطلبة المعاهد وغيرها من الأدوات وما يتعلق بمساكن الهيئات التدرسية ، وتذليل الصعوبات لراحة المعلم ، واقتراح دروس التقوية للطلبة المحتاجين ، وإعفاؤهم من طابور الصباح ، لاستغلال ذلك الوقت للتقوية في المواد الضعيفين فيها .

المشاركة في تصحيح كتب الكليات المتوسطة للمعلمين.

آخر وظيفة: (عضو فني إشراف) :

عضو في تسمية المدارس : الحكومية والخاصة .

عضو في لجنة التحكيم ، لمسابقة حفظ القرآن الكريم ، التي تقيمها وزارة التربية والتعليم سنوياً.

عضو في اختيار الكتب الدينية لتغذية مكتبات المدارس حسب المستويات: (الحلقة الأولى أو الحلقة الثانية لمدارس التعليم الأساسي . أو ما يتعلق بمكتبات مدارس ما بعد الأساسي، كذلك عضو في لجنة الشراء المباشر ، وتصنيف الكتب حسب المستوى، من المعارض التي تحتضنها سلطنة عمان سنوياً، الاشتراك في التدقيق اللغوي، والتشكيل لبعض الدروس للمنهج التكاملي .

القيام بمحاضرات خلال الفترة الماضية، في كثير من مدراس وزارة التربية والتعليم، وفي المناسبات كذكرى المولد الشريف أو ذكرى الإسراء والمعراج أو دخول السنة الهجرية، أو في شهر رمضان المبارك، وغيرها من المناسبات الدينية والوطنية.

المشاركات الخارجة عن وزارة التربية والتعليم من منطلق التعاون الوارد بين وزارة التربية والتعليم ، والوزارت الأخرى):

عضو لجنة التحكيم للمسابقة السنوية للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتي كانت تابعة للهيئة العامة للأنشطة الشبابية، وبعد انتقالها إلى وزارة التراث والثقافة، وكذلك عضو لجنة التحكيم لشباب دول مجلس التعاون التي تقام في سلطنة عمان كل ست سنوات ، وآخر لقاء في السلطنة من: (٧/ ١١ إلى ١١/ ١١/ ٢٠٠٩ م) .

أما ما يتعلق بالمشاركات في الصحف المحلية : ففي التسعينات نشرت عدة مقالات في صحيفة عمان تتعلق بالقرآن الكريم، وفي شهر رمضان المبارك ١٤٣٠هـ في صحيفة الوطن العمانية يومياً، وبعد شهر رمضان أسبوعياً، عنوان المقالات: (من أخلاق العرب قبل الإسلام / ثم من أخلاق العرب في الإسلام).

أما ما يتعلق بالحلقات الإذاعية: فهي حلقات متنوعة الأغراض والأهداف والمرامي، وقد وصلت إلى تاريخنا الحالي أكثر من سبعمائة حلقة: والبرامج هي:

برنامج: من عيون الشعر الإسلامي. وبرنامج: أخلاق عربية حث عليها الإسلام، أكثر من أربعمائة حلقة.

برنامج : مقتطفات من الشعر العماني عبر العصور. وبرنامج: المرأة في الإطار الإسلامي. وبرنامج: من نفحات الإيمان. وبرنامج: الرسول في مرآة الشعراء. والبرنامج الحالي : من أخلاق القرآن الكريم .

كذلك هناك محاضرات ودروس في المساجد: فبمناسبة شهر رمضان المبارك من كل سنة يومياً في عدة مساجد . وبعد شهر رمضان أربعة دروس أسبوعيًّا، وحلقتان أسبوعيًّا في كل من مسجد أبي عبيدة بالعذيبة يوم الإثنين ومسجد أبي بكر الصديق بالعذيبة يوم الأربعاء.

تلك هي بعض النقاط التي تتعلَّق، بالسيرة الذاتية المختصرة، الخاصة بالفاضل: ناصر بن محمد بن راشد الزيدي ، العماني، النزوي.

هذا والله الموفق